محاضرات في

تاريخ أوروبا الحديث

نابليون بونابرت - فرنسا

الفرقة الرابعة – جغرافيا

أستاذ المقرر

أ.م. د. محمد سيد إسماعيل

العام الجامعي 2023- 2024

مقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين وخاتم النبيين ورحمة الله للعالمين سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وعلى كل من سبقه من وصحبه أجمعين.

هذا الكتاب دراسة لتاريخ أوربا الحديث من عصر النهضة حتى مؤتمر ڤيينا ١٨١٥م؛ حيث شهدت أوربا كثيراً من الأحداث التى غيرت من أوضاعها خلال فترة التاريخ الحديث، منذ عصر النهضة الذي يعتبر نتيجة حاسمة لكثير من التغييرات التي نقلت أوربا إلى العصر الحديث، وإذا كانت النهضة نتاج لمؤثرات هامة غيرت من شكل أوربا، أي ظهور التطور والتقدم في كثير من المجالات التي تفصل بين العصور الوسطى والعصر الحديث، وهذا يعنى أن التاريخ الحديث قد بدأ قبل عصر النهضة.

وإذا كانت العصور التاريخية تبدأ بتغيير علاقات الإنتاج فإن تاريخ الطبقة البرجوازية هو التاريخ الحديث، ويلاحظ في هذه الدراسة أن العامل الديني رغم إرتباطه بالعوامل الأخرى (سياسية واقتصادية واجتماعية... إلخ) إلا أنه سيطر على أحداث أوربا في العصر الحديث.

على كل حال فإن كتابنا هذا قد بدأناه بـ"**عصر العلم والعقل**" **كفصل أول**؛ تلك النهضة التي نشأت على يد الطبقة البرجوازية في المدن التجارية في إيطاليا وما أحدثته من تغيير فى هذه الدولة، ثم انتقل هذا التغيير إلى باقي الدول الأوربية من خلال المهتمين بالعلوم والفنون والآداب رغم وقوف الكنيسة فى وجوههم. ثم يأتي **الفصل الثاني وهو بعنوان** "**النهضة الإيطالية**"؛ والذي يتحدث عن تلك النهضة التي نشأت على يد الطبقة البرجوازية في المدن التجارية في إيطاليا وما أحدثته من تغيير فى هذه الدولة، ثم انتقل هذا التغيير إلى باقي الدول الأوربية من خلال المهتمين بالعلوم والفنون والآداب رغم وقوف الكنيسة فى وجوههم.

ثم تنتقل الدراسة إلى **الفصل الثالث** وهو بعنوان "**الاستعمار الأوروبي – الكشوف الجغرافية** "**وجهان لعملة واحدة**"؛ وتحدثنا فى هذا الفصل عن العوامل التى ساعدت على وجوده، ونشاط البرتغال الجاد في هذا المجال ثم إسبانيا، وقد أثار ذلك فضول كل من انجلترا وفرنسا لنيل نصيبيهما من تلك الغنائم.

يأتى بعد ذلك **الفصل الرابع:** والُمعنون بـ "**الاصلاح الديني في أوروبا** "؛ وقد تناولنا فيه حركة الإصلاح الدينى وظهور المصلحين الدينيين أمثال "مارتن لوثر وزونجل وكلفن" والمشاكل التي واجهتهم من قبل الكنيسة الكاثوليكية، والذي يمثل **الفصل الخامس** تحت عنوان " **الاصلاح الديني الُمضاد**" كما تناولنا الحروب الإيطالية، والغزو الفرنسي لإيطاليا وتكوين الحلف المقدس ضد فرنسا إلى معاهدة كاتوكمبرسيس، ثم انتقلنا إلى المشكلة الدينية حتى مرسوم نانت، ودراسة خاصة عن هنري الرابع.

وفي **الفصل السادس:** والذى جاء بعنوان "**حرب الثلاثين عاماً**" وقد تناولنا أسبابها ومراحلها حتى صلح وستفاليا، ثم انتقلت الدراسة إلى "**الفصل السابع**" تحت عنوان " **فرنسا والملكية المطلقة** "**عصر التفوق الفرنسي**"، والذي تحدث عن لويس الرابع عشر وحرب الوراثة الإسبانية. ثم جاء **الفصل الثامن** تحت عنوان "**تاريخ انجلترا الحديث**" والذي تحدثنا فيه عن:"انجلترا والمذهب الآنجليكاني": انجلترا والثورة الدستورية والجمهورية، وعودة حكم أسرة استيوارت. ثم جاء الحديث عن "انجلترا فى القرن الثامن عشر": أسرة هانوفر ونظام الحكم، أما **الفصل التاسع تاريخ روسيا الحديث** والذى جاء الحديث فيه عن "روسيا وبروسيا وأزمات أواخر القرن الثامن عشر الميلادي" وتناولنا روسيا فى عهد بطرس الأكبر وكاترين الثانية والحرب ضد الأتراك والسويد، ثم ظهور بروسيا والحرب البولندية وحرب الوراثة النمساوية وحرب السنوات السبع.

وفى **الفصل** والمعنون بـ"**الثورة الفرنسية**": تناولنا الأسباب التى أدت إلى قيام هذه الثورة، واشتعالها وسقوط الباستيل، ثم جاء الفصل الأخير وهو بعنوان (فرنسا وظهور نابليون) والذي أشار إلى أزمة مجلس طبقات الأمة والجمعية الوطنية، ثم الجمعية التشريعية والمؤتمر الوطني وعصر الإمبراطور، وغزو نابليون لأوربا حتى استقالته وسقوط الإمبراطورية الفرنسية.

الفصل الأول

"عصر العلم والعقل"

✶ المقصود بالنهضة" The Renaissance "

اصطلح المؤرخون على تقسيم تاريخ أوربا إلى ثلاثة عصور (القديم والمتوسط والحديث)، وأساس هذا التقسيم هو اطلاق اسم العصر على عدة قرون من الزمن، كانت فيها أسس الحياة واحدة أو متشابهة ومتقاربة "سياسياً واجتماعياً واقتصادياً وفنياً".

كلمة نهضة في معناها الضيق "حركة بعث التراث القديم أو إحياء ذلك التراث" أي أنها تعني البعث الجديد أو حرفياً الولادة الجديدة، أما في معناها الشامل فهى تعني تحرر العقل الإنساني من قيود العصور الوسطى وشعور الفرد بحريته في التعبير عما يشعر به من انفعالات وأحاسيس، وعصر النهضة هو عصر تحرر العقل الإنساني من قيود القرون الوسطى، والنظر إلى العالم المحيط نظرة جديدة، وهو تاريخ لتحرير العقلية الإنسانية وشعور الفرد بالحرية والإستقلال(٢). وهناك من ينظر إلى النهضة على أنها عصر قائم بذاته، وهى بالفعل عصر خطير ليس في التاريخ الأوربي فحسب بل وتاريخ العالم بأسره؛ تلك الفترة التى شهدت كل التغيرات التي طرأت على المجتمع والقانون ونظم الحكم، والعلوم والفنون والفلسفة والدين والأدب، حتى عصر ظهور الفرد، وعصر الأدب، وعصر الفن، وهو عصر التحول والهدم والبناء، وعصر المخاطرة، وعصر العلم الجديد، وعصر التهكم والضحك والمرح، وعصر مخألفة القوانين والتقاليد الأخلاقية، وعصر الغدر والخيانة، وعصر السياسة الصاخبة، ومجد الأمراء والنبلاء والعظماء من الرجال. ومن ذلك يتضح أن مجال النهضة هو البناء الفوقي للمجتمع الأوربي، ولما كان البناء الفوقي هو انعكاس للبناء التحتى المكون من العلاقات الإنتاجية، ولما كانت العلاقات الإنتاجية الإقطاعية قد أخذت تتغير في ذلك الحين إلى علاقات برجوازية بظهور الطبقة البرجوازية في أحشاء المجتمع الإيطالى منذ القرن الحادي عشر(٣). بهذا الشكل يكون عصر النهضة هو عصر التغيرات الكبيرة التي أصابت المجتمع الأوربي في الفترة الواقعة بين العصور الوسطى والعصر الحديث، أي فيما بين القرنين الثالث عشر والخامس عشر، وهذه التغيرات تتمثل في ضعف الإمبراطورية الرومانية، وفي ضعف سلطة البابا، وهما السلطتان اللتان سيطرتا

على العالم الأوربي أثناء العصور الوسطى، وحل محلهما نمو الدول الأوربية الحديثة التي أصبح لكل منهما كيان سياسي مستقل. فهيأت بذلك حصاد العصور الوسطى لتصير بالتدريج حضارة العصر الحديث، وبذلك يكون عصر النهضة هو ذلك العصر الذي نختم به دراسة تاريخ العصور الوسطى، وفي الوقت نفسه نبدأ به دراستنا لتاريخ أوربا في العصور الحديثة.

من الصعب أن تُحدد للنهضة بداية معينة، وذلك لأنها دور انتقال، فبعض مظاهرها جاء قبل القرن الرابع عشر، مثل دراسة القانون الروماني، كما أن ظهور المدن الأوربية، وما هيأت للصناعة والتجارة من تقدم، ومن هذه المظاهر اتساع المعلومات الجغرافية، نتيجة لكشف العالم الجديد، ومنها الخروج على البابا وحركة الإصلاح الديني، وعلى هذا نستطيع أن نقول أن هذا العصر بدأ في القرن الثالث عشر، وأخذت النهضة في النمو والتقدم والإنتعاش في خلال القرنيين الرابع عشر والخامس عشر، واستمرت حتى أدركت القرن السادس عشر، على أنه يجب أن لا يغيب عن البال أن النهضة لم تبدأ في جهات أوربا في وقت واحد. ومع ذلك فقد أطلق المؤرخون تسمية "عصر النهضة" على الفترة التى تتوسط العصور الوسطى والعصور الحديثة والتي تشمل القرنين الرابع عشر والخامس عشر.

✶ خصائص النهضة

تتمثل في الخصائص السياسية والاقتصدية والفكرية والفنية وغيرها، فأما عن السياسة فلم تكن فكرة الدولة والأمة بالمعنى الذي نفهمه بها الآن، مفهومة في العصور الوسطى، فعلماء النظريات السياسية في العصور الوسطى، كانوا يؤمنون أن المسيحية تكون دولة واحدة، يحكمها البابا والإمبراطور فيما بينهما بتفويض من الله تعالى، الأول في الشئون الدينية، والثاني في الشئون الدنيوية، ولهذا فإنه يجب على كل الملوك إطاعتهما. وأثناء الإنهيار السياسي للإمبراطورية التي عرفتها العصور الوسطى بدأت الدول القومية تأخذ في النمو، ولكن في خطوات بطيئة ومضنية، وقد ظهرت في انجلترا أولاً حيث كانت الظروف ملائمة لنشأتها، ثم في إسبانيا والبرتغال وفرنسا وفي الولايات الكبرى من مجموعة الدويلات الألمانية، ومع بداية القرن السادس عشر توطدت دعائم النظم القومية في انجلترا وفرنسا وإسبانيا. وفي مجال السياسة الخارجية يعتبر النصف

الثاني من القرن الخامس عشر من الفترات المهمة والحاسمة في تاريخ أوربا، فالدولة البيزنطية قد انهارت بسقوط القسطنطينية عام ١٤٥٣م، وبدأت مرحلة جديدة بين الإسلام والمسيحية تتمثل في الدولة العثمانية ودول أوربا كلها، غير أن المد الإسلامي في الجهات الجنوبية الشرقية من أوربا قد تزامن مع انحسار في الأجزاء الجنوبية الغربية مثال ذلك سقوط غرناطة في عام ١٤٩٢م.

ولما ظهرت النهضة بدأ الناس يفكرون في النظم الحكومية، وجاءت النظرية التي تقول بأن مهمة الحكومة هي السهر على مصالح الأمة، فبدأ الناس يعتقدون أن أصلح الحكومات أقدرها على أداء هذه المهمة، وبدأ ما نسميه بالعلوم السياسية وظهر الإيطإلى "ميكافيللى" بآرائه السياسية في كتابه "الأمير" الذي درسه كل من شغلته السياسة، كما انتفع به كثير من ساسة العصور الوسطى، ولذا فإن ملوك أوربا في القرنين السادس عشر والسابع عشر ساروا على نسقه، والذي يتضمن دراسة واسعة عن إلاستبداد من الناحيتين النظرية والعملية. وقد اعترض ميكافيللي على منازعة زعماء الكنيسة ودفعهم بأن الحكام السياسيين الزمنيين ينبغي لهم الخضوع للسلطة العليا لهيئة الكهنوت الروحية، وأصر على ضرورة استقلالهم عنها، وقد ركز ميكافيللى على الدولة السياسية باعتبار أنها مجتمع ينظم في استقلال عن الكنيسة، كما ركز في كتابه الأمير على الثقافة بصفة عامة والفنون والآداب والدين. وقد خالف ميكافيللي السير الانجليزي توماس مور وصور دولة خيانة فى كتابه يوتوبيا الذي نشر عام ١٥١٦م وشرح فيه مور آراءه الاقتصادية والسياسية واقتبس فكرته من جمهورية أفلاطون، بقصد إظهار المساوئ المنتشرة في عصره ونقدها وهو من المشتغلين بالدراسات القديمة خاصة اليونانية، باسم "مصلحي اكسفورد" وغني جان باكسفورد وجدت الدراسات القديمة طريقها إلى كمبردج.

هكذا ظهرت في فترة الإنتقال نظريات سياسية جديدة قادت إلى إنهيار النظريات السياسية التي كانت سائدة في العصور الوسطى، فلم يأت القرن الخامس عشر إلا وكانت بعض الدول الأوربية قد اكتملت لها شخصية الأمم الحديثة، وبدت واضحة بكيانها القومى المستقل مثل انجلترا وفرنسا وإسبانيا، وبهذا تميزت فترة الإنتقال بوضوح الفكر السياسي وقيام الأمم الحديثة، وهذا ما لم يكن معروفاً من قبل.

من الناحية الاقتصادية فقد أصبح المال، وهو دائماًقوة يُحسب حسابها في شئون البشر، أكثر توافراً في أواخر العصور الوسطى، ثم سرعان ما ازداد وفرة مع بداية القرن السادس عشر فقد نمت التجارة في كل الأقطار الغربية في أعقاب العامل الأول الذي أنعشها أثناء الحروب الصليبية، ونتج عن ذلك نشأة طبقة وسطى ذات نفوذ قوي ومؤثر ومصالح مادية لا تنسجم مع إستمرارية فوضى النظام الإقطاعي. وقد أدى اتساع نطاق التجارة الأوربية إلى ظهور حركة الكشوف الجغرافية في أواخر القرن الخامس عشر، التي ترتب عليها تغير كبير في النظم الاقتصادية الأوربية، فبعد أن كان الاقتصاد الأوبي اقتصاداً زراعياً راكداً أصبح اقتصاداً ذا طابع تجاري وزراعي، وبدأت الصناعة تنمو، مما ساعد على نمو المدن التي ازدحمت بالسكان وتحولت إلى سوق رابحة لتصريف السلع الصناعية، وقد جذب ذلك عدد كبير من أهل الريف المشتغلين بالفلاحة إلى المدن، حيث أحس الفرد أنه في هذا المجتمع الجديد يستطيع أن يعيش حراً دون أن يخضع للعبودية التي كان يخضع لها في ضيعة الإقطاعي، ولذا ازدادت الهجرة من الريف إلى المدينة حتى اندثرت قرى بأكملها، وكان ذلك على حساب النظام الإقطاعي الزراعي، مما شجع الفلاحين على القيام بالثورات وإحراق قصور الإقطاعيين وسجلات الضرائب وأصبح الفلاح سيداً لأرضه.

وكان نظام الإقطاع سائداً في أوربا العصور الوسطى، وهو نظام زراعي حربي، ويرتبط بهذا النظام نظام الفروسية، الذي كان يقوم على انتماء الفرسان إلى هيئات حربية دينية، وهو نظام بعيد عن الروح الوطنية، ولا يعترف بمبادئ القومية، مثله في ذلك مثل المسيحية نفسها، فكان بين الفارس الألماني والفارس الفرنسي من الصلة والمودة ما لم يكن بين كل منهما ومواطنيه، فبأنحلال النظام الإقطاعي، ظهرت المدن الكبرى ونمت التجارة والصناعة، كما سبقت الإشارة، مما أدى إلى ظهور طبقة جديدة هي "الطبقة الوسطى" التي سكنت المدن، وكان لها نفوذها السياسي، وبذلك أصبحت المدينة مركز إلاجتماع بدلاً من قلعة الإقطاع. ونتيجة للتحرر الاقتصادي وبداية التحرر الاجتماعي، ستكون الحرية بكل صورها من خصائص ومظاهر النهضة الأوربية؛ فأخذ تحرر النفوس يظهر في النطاق الديني، وبعد أن كان نفوذ الكنيسة قوياً ، ظهرت في لومبارديا جماعات من الأهالي أخذوا يتهكمون على الديانة المسيحية

وينادون بشرب الخمر، ويمجدون "ياكوس" إله الخمر عند اليونانيين، كما ظهرت جماعة نسبة إلى انتقلت إلى إيطاليا ونشرت مبادئه، ونادت بالرجوع إلى نص الكتاب المقدس، والثورةعلى رجال الدين، وعلى أساس أنه يجب إلا تكون هناك وساطة بين الفرد والله، متمثلة في رجال الدين، وأن في وسع الفرد أن يتصل بخالقه مباشرة، وانعكس ذلك في شكل قلق وسخط على فن التصوير منذ القرن الثالث عشر، فكانت صور المسيح تظهر وهي تحمل دلائل السخط وعدم الرضا، وظهرت شخصيات تنادى بالتحرر مثل شخصية بيتر أبيلار وتلميذه ارنولدوبريشيا وشخصية يواكيم دافلورا، وشخصية القديس فرانشيسكو وكذلك الإمبراطور فردريك الأكبر.

وأما شخصية أبيلار الأستاذ بجامعة باريس، هو الذي مجد للعقل ودعا إلى إستخدامه فلا ينبغي أن يعتقد الفرد في شئ قبل أن يفهمه، وحتى الدين يجب تطبيق العقل عليه، ونادى بضرورة الحد من سلطة الكنيسة، وعدم وضع وساطة بين الفرد والخالق، وجاءت من بعده شخصية تلميذه أرنولدو الذى تشبع بالآراء الحرة، وانتقل إلى إيطاليا وهاجم السلطة الزمنية للكنيسة، ودعا إلى تحطهما مع اقتصار الكنيسة على الناحية الدينية، كما نادى بضرورة إعادة الجمهورية الرومانية، وتوحيد إيطاليا تحت سلطة روما، على نمط الجمهورية القديمة، وأن كان قد فشل وقتل، إلا أن أثار هذه الحركة ظلت في نفوس الأهالي، تدفعهم للتحرر من سلطة الكنيسة. وكذلك ظهرت شخصية "يواكيم دافلورا" الذي تأثر بالثقافة التي سادت في جنوب إيطاليا، متأثرة بثقافة اليونان والرومان والبزنطيين والعرب والنورمانديين، وهذه الثقافة تخلق عقلية أقل تمسكاً بالدين، والخضوع لسلطان الكنيسة، وأقرب منها إلى الحرية، ومن أهم الأفكار التي نادى بها يوايكم هي فكرة الحرية، وأن الله يحب الحق، فلابد أن يكون الإنسان حراً، وفكر بواكيم في الكنيسة وأحوالها وفسادها، وقال أن العالم بعد هذه الويلات، سيدخل في طور جديد، ويقوده الرهبان المخلصون، وتتسامى المسيحية ولاقت دعوته نجاحاً وانتشاراً في إيطاليا، وأحس الناس أنه قد أرضى حاجة فى نفوسهم، وكان قد دعا إلى التغيير، وأن كان التغيير لن يتم بالشكل الذي توقعه، ولن يكون قادة العصر الجديد هم الكهنة كما توقع.

ليس هذا فحسب فقد ظهرت شخصيات أخرى كان لها دور في مظاهر النهضة مثل شخصية الإمبراطور "فردريك الأكبر"؛ حفيد "فردريك بربروسا"، وهو الذي ترك حكم أملاكه فيما وراء الراين في يد أبنائه، واستقر هو في جنوب إيطاليا، قد عمل على القضاء على نفوذ الأمراء والبارونات، وعلى تنمية إمكانياته الطبيعية والاقتصادية، وسيطر على النقابات والبلديات، وعمل على إضعاف سلطة الكنيسة، فاعتبر نفسه حامى الكنيسة، متأثراً في ذلك بدين الإسلام، الذي أعطى للخليفة السلطتين الزمنية والروحية، ولقد قام فردريك بحرب صليبية في الشرق، في النصف الأول من القرن الثالث عشر، وكانت حرباً صليبية سلمية، واتفق مع الملك الكامل سلطان مصر، على معاهدة صلح وسلام، في حلف ضد أعدائها، حتى من مسيحي الشرق، وأخذ فردريك بيت المقدس، وأعجب بعادات وأخلاق الشرق، وظهر أنه بعيد عن التعصب.

يعتبر عام ١٢٢٩م نقطة تحول في العلاقات بين الشرق والغرب، ولقد احترم فردريك وفود الأديان الأخرى، وأصبح لكل من الديانات الإسلامية واليهودية والمسيحية مكاناً محترماً فى بلاطه، وأصبح يجتمع كثيراً بمفكري وعلماء المسلمين بل ويكاتبهم، واتصل بتلاميذ إبن رشد الذين كانوا يرون أن الإسلام يدعو إلى الفكر الحر والمناقشة، وعدم أخذ أي شئ إلا بعد ثبوته وأن للعقل المكان الأول في حياة البشر، وأن ما يروي عن المعجزات فجدير بالعامة، ولقد اهتم فردريك بالحركة العلمية؛ فأنشأ جامعة نابلي، وكلية الطب في بالرمو، وقام بتجارب عملية واشترك في بعضها في تشريح الجسم الإنساني، وكان بلاطه غاصاً بالمهندسين المعماريين المسلمين، فأقيمت مباني وكنائس متأثرة بالطراز العربى، بها كتابات عربية وكوفية في بعض الأحيان، وزاد الأمر حتى أنه أعلن أنه لا يعقل أن يكون الله في نظر المسيحيين هو المتجسد في جسم معين، ولا يعقل أن الله قد ولدته إمراة عذراء، وأعلن بذلك ثورة خطيرة على المسيحية، ولقد عبر فردريك عن عصره، ولذلك فإنه يمكن أن نقول بأن فردريك أول رجل يمثل العصر الحديث، ويمثل روح النهضة.

ومن هذا ترى أن حركة النهضة جاءت من خارج الكنيسة؛ وكانت علمانية وحاربت زيادة سلطة الكنيسة، وكانت عقلانية ورفضت وجود الكنيسة كواسطة بين الفرد والخالق، ولقد عملت هذه الحركة على إضعاف الكنيسة، وساعدت على إستمرار التغير

الاجتماعي والفكري، ولقد اعتمدت حركة النهضة على سكان المدن ورجال المهن والتجارة، والذين تزايدت الثروات في أيديهم، والأموال في أكياسها لديهم أو في المصارف، وهم رجال الطبقة الوسطى، أو الطبقة البرجوازية التي ستتزايد أهميتها، وفي الوقت الذي تقل فيه أهمية النبلاء والسادة الإقطاعيين، ولذلك فإن هذه المدن هي التي ستكون مراكز الإشعاع الفكري والعلمي والفني في كل غرب أوربا، وكما أن رأس المال يُنشد الحرية في تعامله، فإن صاحب رأس المال لا يمكنه أن يتعامل إلا طبقاً لمصالحه، وليس طبقاً لعقيدة معينة، خاصة إذا ما شعر أن وضعية الكنيسة تؤثر على مصالحه، وتفرض عليه التزامات لا يقرها العقل، ولذلك فإنهم حاربوا من أجل حرية الرأي، وحرية الشخصية، وحرية التعامل، وعملوا بذلك على تحطيم القيود التي كانت سائدة طوال العصور الوسطى، وظهرت هذه الحركة بمظاهرها المختلفة؛ وأول ما ظهرت فى إيطاليا.

لم يكن الفرد في العصور الوسطى أصل المجتمع، وإنما كان يتمثل ذلك في الجماعة أو الطائفة أو النقابة، فالمرء كفرد لم يكن له وزن أو اعتبار وإنما كان له شأنه كتابع أو جزء من الهيئة التي ينتمي إليها، ولذلك لم يكن هناك مجال لنشاط المرء كفرد، ولا فرصة للظهور في المجتمع، وبالتالي لم تتهيأ له الظروف لإبراز شخصية مستقلة، لها حرية الرأي والتصرف، والطريقة الوحيدة التي كانت أمام رجل طموح يبغي الوصول إلى الرفعة والشهرة، هي انخراطه في سلك أكبر الطوائف حينئذ وهي الكنيسة، أما في عصر النهضة؛ فقد ظهر الفرد بنفسه في المجتمع، وأصبح بالتدرج أصله، بعد أن كانت الجماعة أو الهيئة، وبذلك تمهد السبيل أمام الفرد، لإظهار عبقريته واستغلال مواهبه كما يشاء. ومن خصائص النهضة أن أفسحت للنساء مجالاً، وزادت في قيمتهن، لأن أهم ظاهرة في النهضة الإيطالية عبادة الجمال، وإحلال الفروق محل التقشف، وترك الأفكار المحزنة، والعناية بصحة الجسم ونشاطه فكثرت مناقشات السيدات في هذه الموضوعات التي تناسبهن، وقد تنوع نشاط النساء حتى شمل الرقص والغناء ودراسة الفلسفة والآداب القديمة، والعناية بالأسرة والملابس وحكم الأقاليم، وفي كل هذا أظهرن مقدرة كبيرة، ونشأت حول بعضهم دوائر للعلم والأدب، وفي هذه

المجتمعات بدأت الفكرة الأوربية الحديثة، من أن حرية الإختلاط تحوط الأخلاق بسياج أقوى من سور العزلة.

كما تميزت هذه الفترة بظهور بعض الكتاب والأدباء الذين ثاروا على الروح القديمة، وحرروا عقولهم من بعض قيود العصور الوسطى مثل الإيطالي "دانتي اليجيري" الذي يعتبر أول من استعمل اللغة الإيطالية في التأيف؛ فنشر كتابه الشهير "الكوميديا الإلهية" وهو عبارة عن رحلة خيالية إلى الجحيم و"المطهر" و"الجنة"، زار فيها العالم الآخر، فوصف الجحيم وهو يمثل عالم الخطيئة والإثم والعذاب، والمطهر وهو يمثل النضج والتطهر والأمل، والفردوس وهو يمثل الطهارة والحب والصفاء والحرية والنور، ويمكن اعتبار الكوميديا مرآة العصر الذي عاش فيه دانتي، فهي تصور كل القيم والأفكار التي سبقت عصر دانتي، ويؤكد بعض الباحثين أن دانتي تأثر في كتابتها بـ "رسالة الغفران" لأبى العلاء المعري من ناحية الفكرة، وأن اختلفت من حيث البناء والأهداف والتفاصيل والمضمون(٢٦).

كما شهدت فترة الإنتقال هذه "بوكاتشيو" ومن أهم مؤلفاته "كتاب ديكمرون" وهو يحذو فيها حذو الليالي العربية، ويغلب على هذه القصص روح السخرية والتهكم من تقاليد العصور الوسطى وهذه روح غريبة عما كان مألوفاً من قبل، وقد حاكى "بترارك" في ولهه بدراسة آداب القدماء حتى أنه فعل الكثير من أجل إدخال دراسة اللغة اليونانية في إيطاليا.

وبدأت روح البحث والنقد على الخرافات الذائعة والعقائد المضللة، بل قادت إلى التهجم عن الكنيسة ونقد رجال الدين، وطرح أفكارهم في كثير من الأحيان، ونتيجة لهذا التطور الفكري، ذاع كثير من النظريات العلمية الجديدة كفكرة كروية الأرض التي قام العالم الفلكي البولندي "نيقولاس كوبر نيكس" بنشرها، حيث كانت الفكرة السائدة قبله أن الأرض هي المركز، والشمس والكواكب تدور حولها، وأن حركة الشمس والكواكب ما هي إلا حركة ظاهرية منشأها دوران الأرض حول محورها مرة كل يوم، وفكرة كروية الأرض هذه قادت بعد ذلك إلى التفكير في الوصول إلى الشرق عن طريق الإتجاه غرباً.

وكان العالم الإيطالي "جاليليو" أول من استعمل المنظار في رصد الكواكب، وأيد رأي كوبر نيكس، ووصل إلى عدة اكتشافات علمية مهمة، ولما كانت نتائج كشوفه مخالفة لآراء الكنيسة وقتئذ، ثارت في وجهه، وألقت القبض عليه وحاكمته، فاضطر أمام هذا التعسف الشديد أن ينزل عن آرائه في الظاهر، وكان لروح البحث وحرية التفكير والتحرر من قيود العصور الوسطى أن حدثت عدة اختراعات مثل اختراع البارود وإستخدامه في الحرب الذي قلب الأنظمة الحربية التي كانت سائدة في العصور الوسطى، أيضاً الإهتداء إلى استعمال بيت الأبرة "البوصلة" وإلاسطرلاب، يرجع إليه الفضل في تشجيع الملاحين للكشوف الجغرافية التي قلبت أوضاع العلم، كما أن اختراع جوتنبرج الألماني الطباعة بحروف متحركة في منتصف القرن الخامس عشر، أزال العقبات التي كانت قائمة في سبيل انتشار العلم وتوسيع نطاق النهضة، وكان الإنجيل أول كتاب طبع في عام ١٤٥٥م يعد أكبر اختراع في العصور الحديثة.

كانت أعمال "فرانسيس بيكون" حرباً على وجهة النظر المسيحية، وقام باتخاذ الخطوات الرئيسية اللازمة لتجاوز "الحركة الإنسانية الإيطالية" في إشارته إلى المستقبل، وكانت الحركة الإنسانية الإيطالية حركة انتقال نحو الحياة العصرية، والبعد عن النظرة الضيقة لمفكري العصور الوسطى. لقد شغلت الجغرافيا جزءاً كبيراً من المعرفة الجديدة في أوائل العصور الحديثة في أوربا، وقد كان احتلال البرتغال لمدينة "سبتة" على الساحل الأفريقي عام ١٤١٥م بمثابة الحلقة الأولى في تلك السلسلة الطويلة من المغامرات البحرية المثيرة التي أدت إلى رحلة "فاسكو داجاما" حول قارة أفريقيا عام ١٩٤٢م، وتأسيس الإمبراطورية البرتغالية في الشرق، كما قادت إلى اكتشاف العالم الجديد على يد كولومبوس، وفي الإحتفالات البهيجة التي أقيمت في فينيسيا اتبع تقليد تصوير فينيسيا كممثلة للفضائل الدينية بالإسباني بالصور المشخصة لآلهة الرومان، وأيضاً بالصور التي تسخر من الأتراك بعد هزيمتهم شهدت فترة النهضة ارتقاء في الفنون الجميلة، وخاصة فني النحت والتصوير، ويرجع الفضل في ذلك إلى الإيطاليين، ومن رواد هذا الفن القرن السادس عشر "ميخائيل أنجلو" و "دوناتللو "ليوناردو دافنشى" .

الفصل الثاني
النهضة الإيطالية

تعد إيطاليا المهد الأول للنهضة في أوربا، حيث وصلت بها إلى حد الكمال والنضوج، ثم أخذت تنتشر منها إلى جهات أوربا المختلفة شيئاً فشيئاً، حتى عمت كل غربي أوربا، ففي الفترة ما بين عام ١٣٤٠م، وعام ١٥٤٠م قامت المدن الإيطالية نتاجاً من الفن والبحث والأدب لم يشهده العالم منذ أمجاد أثينا القديمة. ولعل أهم دليل على بدء النهضة في إيطاليا قبل غيرها من الدول الأوربية الأخرى هو تحرر المدن الإيطالية من سيطرة الإقطاع قبل غيرها من الدول الأخرى، وأصبحت عبارة عن دويلات صغيرة، وقد حكم هذه المدن حكام مطلقون، ففي ميلان كانت تحكم أسرة "فسكونتي وفي فلورنسا كانت السيطرة لأسرة "مديتشى" وهكذا، ودليل آخر هو أن النهضة وأن بدأت في إيطاليا، إلا أنها بدأت في القسم الشمالي منها، وهو الذي يشمل سهل لمبارديا والبلاد المطلة على البحر مثل (جنوة، البندقية، مقاطعة توسكانيا،...إلخ)، وبمعنى آخر القسم الذي أصبح منطقة كبرى للمدن أما القسم الجنوبي منها، بما في ذلك روما والأراضي المجاورة لها وفيها مملكة نابولي، والذي لم يتأثر كثيراً بحركة ظهور المدن، وظل يسوده نظام الإقطاع، فقد ظل أقل تطوراً من القسم الشمالي، إذ بقى محافظاً زراعياً، في حين كان القسم الشمالي حضرياً متطوراً .
وقد تمثلت مظاهر النهضة في إيطاليا في الآتي:

١- جمع المخطوطات "Mqnuscripts":

لم يكن الإهتمام بالدراسات اللاتينية والإغريقية سوى مظهر واحد من مظاهر الحركة الإنسانية، أما المظهر الثانى فيتمثل في جمع المخطوطات القديمة التي غصت بها مكتبات الأديرة والكاتدرائيات، وقد أسهم أمراء الأسرات الحاكمة في المدن الإيطالية في جمع هذه المخطوطات والكتب القديمة النادرة، وأفدوا العملاء لهذا الغرض في أوربا والشرق، كما شجع الباباوات والكاردينالات هذه الحركة، وأنفقوا أموالاً طائلة للبحث عن هذه المخطوطات في إيطاليا والإمارات الألمانية وغيرها من أقطار أوربا. وكان أمراء إيطاليا وأثرياؤها يتنافسون على جمع المخطوطات، حتى أصبح اقتناءها مظهراً سائداً من مظاهر النهضة في إيطاليا، ولذا كان من الطبيعي أن تنشأ حول المخطوطات

تجارة منتشرة، وكانت القسطنطينية بعد سقوطها مركز هذه التجارة حيث كان الإنسانيون يبحثون عنها بهمة لنصف قرن مضى، والواقع أن المخطوطات القديمة كانت المصدر الأول في حركة إحياء الدراسات القديمة، وكان "بترارك" يبحث بنفسه عن المخطوطات القديمة. وقد استطاع "فرانشيسكو فيليلفو" بعد أن درس اليونانية في القسطنطينية، أن يحصل على مكتبة ضخمة من هناك كانت تشمل شعراء اليونان البارزين، ومؤلفات الدراميين والكثير من الخطباء، وكل كتابات أرسطو، وفي مستهل القرن ١٥م جمعت في دير القديس ماركو مكتبة حوت ٨٠٠ مخطوط قديم اشتراها الأمير "كوزيمودي ميدتشي" وأنشئت في أواخر القرن مكتبة في الفاتيكان، وكان الإهتمام في البداية منصباً على المخطوطات اللاتينية، ثم انتقل إلى المخطوطات اليونانية، وقد اهتم البابا نقولا الخامس بمكتبة الفاتيكان حيث جمع لها مجموعات ضخمة من المخطوطات.

٢- إنشاء المكتبات العامة والخاصة:

كان من الطبيعي أن يترتب على جمع الخطوطات القديمة، الإهتمام بإنشاء المكتبات العامة والخاصة، ففي مستهل الخامس عشر الميلادى جمعت "جير سان ماركو" في فلورنسا مكتبة احتوت على ثمانمائة من المخطوطات القديمة التي اشتراها بماله الأمير التاجر "كوزيمو دي ميدتشى"، كما أنشأ في أواخر ذلك القرن مكتبة عظيمة في الفاتيكان ترجمت كتب "أرسطو وأفلاطون وبلوتارك" إلى اللغة اللاتينية، وجاء بعض الإغريق إلى فلورنسا ليعلموا اللغة والفلسفة في جامعاتها، وكان هؤلاء العلماء هم الذين مهدوا لزملائهم الذين رحلوا إلى أوربا بعد سقوط القسطنطينية. وقد أنشئت مكتبات عديدة جديدة في نابولي وبافيا وغيرها ففي أوربينو أنشأ أميرها مكتبة عظيمة أنفق عليها أموالاً طائلة وكانت تضم عدداً وافراً من المخطوطات اللاتينية والعبرية، وكتب الطب ومؤلفات الكُتَاب الإيطاليين في القرن الرابع عشر، بل لقد تنافس الأمراء والأثرياء والمدن في إنشاء المكتبات التي ضمت المخطوطات والكتب وبعض قطع الآثار وروائع الفن، وكان أشهرها مكتبة البندقية ومكتبة فلورنسا ومكتبة الفاتيكان. وقد روعي في إنشاء هذه المكتبات وضع الكتالوجات حتى يسهل الإطلاع على ما فيها، بل أن مكتبة أوربينو كانت تحتفظ بكتالوجات لمكتبات الفاتيكان وسان ماركو بفلورنسا وكتبة بافيا.

٣- الأكاديميات:

أما المظهر الرابع لحركة إحياء الدراسات الكلاسيكية، فيتمثل في قيام الأكاديميات أو مجمعات العلم، حتى أن النصف الثاني من القرن الخامس عشر يعتبر عصر الأكاديميات، وكانت هذه الأكاديميات عبارة عن مراكز أو حلقات يجتمع فيها عشرات الطلبة حول الأساتذة للإستماع والدراسة، وعن طريق الأكاديميات التي انتشرت في إيطاليا انتشرت الحركة الإنسانية، وأقدمها في عصر النهضة نشأ في نابولي على يد "ألفونسو الخامس" صاحب أراجونة الذي كان حاكماً على نابولي عام ١٤٤٢م، وفي فلورنسا نشأت الأكاديمية ألفلورنسية أو الأكاديمية الأفلاطونية، وقد اهتمت بالدراسات الفلسفية الإغريقية خاصة الأفلاطونية، وقد استمرت حتى أوائل القرن السادس عشر، كما نشأت أكاديمية الدومانو تزيوخ البندقية، والأكاديمية الرومانية في روما وغيرها.

٤- تقدم علم التاريخ:

كان الإهتمام بالتاريخ هو المظهر الثاني من مظاهر النهضة والإحياء في إيطاليا، فلأول مرة أخذت الدراسة التاريخية على أساس المادة الموثوقة وليس على أساس الرواية والسماع، كما أخذت الدراسة التاريخية تصطبغ بالصبغة الزمنية، وتنتقل من يد رجال الدين إلى العلمانيين، وكان من أبرز مؤرخي عصر التهضة "لورنزو فلا" الذي وُلِدَ ونشأ في روما، ثم صار قسيساً فكاتب سر ألفونسو الخامس صاحب أرجوانة، وقد قام في عام ١٤٠٠م "جين قسطنطين" الذي أثبت فيه بالدليل القاطع من واقع دراسة اللغة التي كانت تكتب بها الوثائق، أن الهبة التي يبدو من أسلوبها – في زمن الإمبراطور قسطنطين–، وإنما كانت مزورة افتعلت في روما في زمن متأخر نحو خمسة قرون عن التاريخ الوارد بها، وقد حوكم بسبب هذا الكتاب، بل كاد يفقد حياته، لولا أن كان البابا في ذلك الوقت هو نيقولا الخامس، وكان باحثاً وسياسياً فأعجب ببحث فاللا وعينه موظفاً في الحكومة البابوية[٣٨]. ومن أبرز مؤرخي النهضة "براتشيوليني" وفلافيو بلوندي الذي كتب واحداً وثلاثين كتاباً في تاريخ النصرانية ابتداء من سقوط الدولة النصرانية، ثم إينياس سلفير من بيكرولوميني الذي صار فيما بعد البابا بيوس الثاني ثم "جويتشارديني" الذي كتب "تاريخ إيطاليا" ونيكولو ميكافيللي

صاحب كتاب "تاريخ فلورنسا" والذي كتب في عام ١٥١٢م كتابه المشهور "الأمير" الذي يتضمن دراسة واسعة عن الإستبداد من الناحيتين النظرية والعملية.

٥-ظهور اللغات الحديثة:

يعتبر نمو اللغات الوطنية واعتداؤها التدريجي على اللغة اللاتينية التي كانت لغة الأدب والعلم، حلقة الاتصال بين عصر النهضة والعصور الحديثة، وهو بالتالي يعد المظهر الثالث من مظاهر النهضة؛ فمنذ عهد الدولة الرومانية القديمة، كانت هناك لغة لاتينية عامية إلى جانب الفصحى، ولم تكونا لغتين مستقلتين بل كانت من أصل واحد، وتأثرت لغة العامة بالألفاظ المحلية والإقليمية وزاد الإختلاف والفوارق بين اللهجات العامية واللغة الفصحى، حتى تطورت هذه اللهجات إلى لغة ثانية هي اللغة العامية التي أصبحت مستقلة عن اللغة الفصحى)، وقد دعت طائفة تطلق على نفسها اسم طائفة الإنسانيين إلى إحياء اللغات القديمة (اللاتينية واليونانية)، وأن اللغات الانجليزية والفرنسية والألمانية وغيرها لهجات تفاهم بين أفراد شعوبها، بل أصبحت لغات تأيف وكتابة أدت إلى ازدهار اللغات القومية وإذا اتخذنا إيطاليا مثلاً؛ فإن لهجة توسكانيا هي التي أصبحت أساس اللغة الإيطالية، ويرجع تفوق توسكانيا إلى أنها كانت بعيدة عن التأثر بلهجات الغزاة البرابرة بحكم موقع توسكانيا في إيطاليا، وظهور شعراء ممتازين توسكانيين قرضوا الشعر باللهجة العامية.

٦-تطور الفنون الجميلة:

كان من الطبيعي بعد أن خفت قبضة الكنيسة على الحياة الاجتماعية في أوربا، مع ظهور طبقة مادية النظرة إلى الحياة كالطبقة البرجوازية، أن ينعكس ذلك على الفنون، التي كانت في العصور الوسطى موجهة لخدمة الكنيسة والأغراض الدينية بوجه عام، إذ دبت فيها روح علمانية متحررة من تزمت العصور الوسطى، وتمثل ذلك بصفة خاصة في فن الرسم وفن النحت وفن العمارة. وبالنسبة لفن الرسم فيعتبر الفن الأول لعصر النهضة في إيطاليا، وقد اصطبغ بصبغة دنيوية سافرة، وتحرر من قيود وتزمت العصور الوسطى، وتمثل ذلك في إبراز أجزاء جسم الإنسان وتصوير جمال الوجه والطبيعة، وقد تنافست المدن الإيطالية في هذا القرن، وبرزت فيها اثنتان هما: فلورنسا والبندقية.

كان فن التصوير مقصوراً على موضوعات خاصة كالدينية أو الكنسية، وكانت مقيدة في أشكالها وأوضاعها وألوانها بشكل أدى إلى طمس شخصية الفنان، ولكن مع تطور النهضة تحرر الفنان وتمكن من رسم الطبيعة والتعبير عن مشاعره، وأفاد من دراسة جسم الإنسان والتشريح، ومن استخدام الألوان الزيتية وتحسينها، ولم يهمل الفنان الموضوعات الدينية، فجعل صور العذراء والقديسين تمثل رجلاً ونساءاً عاشوا في زمن الفنان. ولقد بدأ التصوير في إيطاليا في القرن الرابع عشر، وظهرت بعض مدارس للتصوير في فلورنسا وغيرها وبعض كبار المصورين، ومن أشهرهم "جيوتو" الذي كان مصوراً ومهندساً معمارياً ونحاتاً، وكان صديقاً لـ "دانتي"، ومن أشهر الصور التي رسمها صورة المسيح وقد فارق الحياة، ومريم العذراء تحمله وهى جاثية، وحوله بعض القديسات والملائكة، وقد ارتسمت علامات الحزن والمآسى على وجوه الجميع، وهو الذي مهد الطريق لظهور عظماء المصورين مثل: "ليوناردو دافنشي" و"مايكل أنجلو" "رفاييللو سانتزيو".

ويعتبر ليوناردو وأنجلو زعيما المدرسة الفلورنسية، ويتميزان بأن نشاطهما الفني لا يقتصر على الرسم، بل يتعداه إلى بعض الفنون الأخرى، أما ليوناردو فقد اشتمل نشاطه على التصوير والنحت والموسيقى والأدب والهندسة العسكرية والعلوم الطبيعية، وأن قامت شهرته على فن الرسم. ومن أشهر صور ليوناردو "الجيوكندا" المعروفة أيضاً باسم "الموناليزا" نسبة إلى صاحبتهما، وتعتبر الصورة معجزة فنية تمثل سيدة تجلس أمام شرفة رخامية واضعة يدها اليمنى على معصم يدها اليسرى، ومع أن السيدة لا تبدو على جانب كبير أو قليل من الجمال، كما أن ليوناردو ترك عينيهما دون هدب، إلا أن الإبتسامة الغامضة التي تكسو وجهها وترتسم على وجنتيها وشفتيها، ظلت موضع سحر وإعجاب الفنانين. ومن أشهر صوره أيضاً صورة "العاصفة" وصورة "ميدوسا" الفتاة الجميلة التي حول "بوسايدون" رب البحار شعرها إلى أفاعي، ثم صورة العشاء الأخير وتصور السيد المسيح جالساً على مائدة كبيرة بين حواريه الذين يتناولون معه الطعام للمرة الأخيرة، وهي مليئة بالإنفعالات التي تُرسم على الوجه والأجسام والحركات، لأنها تصور اللحظة التي أنهى فيها المسيح كلامه لحواريه عن خيانة يهوذا الاسخريوطي له.

أما مايكل أنجلو فقد برع أيضاً إلى جانب الرسم في النحت وهندسة البناء والشعر الإيطالي، وبلغ في ذلك مستوى رفيعاً، ومن أهم أعماله في فن الرسم "صورة يوم الحساب" وهي تمثل البشر رجلاً ونساءاً وهم يخرجون من القبور عراة، وقد سادهم الإضطراب والفزع لما ينتظرهم من العقاب، والمسيح قائم غاضباً من على عرشه لما ارتكبه شعبه من الخطايا. كذلك من أهم أعماله الفنية أيضاً صور السقف في كنيسة "سستين" بالفاتيكان، التي استغرق إنجازها ثماني سنوات، وهي ثلاث مجموعات تاريخية؛ تناول في المجموعة الأولى "خلق العالم" في ثلاث لوحات (الإله العظيم يفصل النور عن الظلام، والإله يخلق الكواكب، ثم الإله يبارك بمياها ونباتها)، وتناولت المجموعة الثانية خلق آدم والإغراء والخطيئة، أما المجموعة الثالثة فتناول فيها نوح النبى في ثلاث لوحات (تضحية نوح، الطوفان، نشرة نوح).

هذا فيما يتصل بمدرسة فلورنسا، أما ما يخص بمدرسة البندقية، فقد اختلفت بسبب ظروفها الاقتصادية والاجتماعية، فقد كانت تحتل مكانة عظيمة في التجارة، وبالتالي نمت فيها طبقة برجوازية على جانب كبير من الثراء، لذلك امتاز الرسم البندقي بحيوية في اللون، وبعرضه لنواحي الحياة الإرستقراطية. ويعتبر من أعظم رسامي النهضة الفنان "رفاييللو" الذي جسد بفنه العبقرية االإيطالية، ونال حظوة لدى البابا ليو العاشر، ومن أعماله "صلب المسيح"، و "تتويج العذراء"، و "التجلي"، و "مدرسة أثينا"؛ التي استوحاها من وصف دانتي لها في "الكوميديا الإلهية" وتمثل الفلاسفة والعلماء الأقدمين، وقد وقفوا في أوضاع مختلفة. أما النحت فقد ازدهر على يد طائفة من الفنانين العظام مثل؛ "لورنزو دي تشينو جيبرتي" الذي حفر الأبواب البرونزية بمعمودية كنيسة فلورنسا قبل مايكل أنجلو، ومن أهم روائعه تمثال لـ"يوحنا المعمدان" في كاتدرائية سيينا، وتمثالان لـ "داود" أحدهما من البرونز والآخر من المرمر، كذلك من أشهر تماثيله ونقوشه تلك التي تمثل الأطفال وقت نومهم أو لعبهم، وتلك التي نحتها لرؤوس وأجسام بعض معاصريه على طبيعتها.

ويعتبر مايكل أنجلو من تلاميذ دوناتللو، ولكن تميز بالإبتعاد قليلاً عن فن دوناتللو التقليدى، فقد احتفظ بما تميزت به مدرسة دوناتللو من واقعية يستمدها من الطبيعة، ولكن مزج بين الشكل الفردي الذي كان هدف هذه المدرسة والشكل المثالى

الذي يميز الطابع الإغريقي القديم؛ وقد عبر مايكل أنجلو بتماثيله العظيمة عن عصر جديد تسوده القوة والحرية، ومن أعماله تمثال "باخوس" و"داود" و"موسى" و"العذراء والطفل" والأسيران المقيدان. وعلى كل حال فقد كان يغلب على فن النحت بصفة عامة المظهر الوثني القديم ،نظراً لأن التماثيل الرائعة التي خلفها الرومان كانت لاتزال موجودة في إيطاليا ، فكانت هذه التماثيل مصدر إلهام لنحاتي عصر النهضة، مما ساعد على ازدهار فن النحت، وكان وراء حرص الفنانين على إبراز مفاتن الجسم بكل أعضائه دون التقيد بأخلاقيات أو غيرها فأخرجوا إتاجا فنياً مبدعاً .

أما بالنسبة لفن العمارة، فقد انعكس الإتجاه إلى إحياء الدراسات القديمة على نهضة هذا الفن القديم في أوائل العصور الوسطي متأثراً بطبيعة الحال بنماذج الفن القديم ، ثم برز بعد ذلك طراز جديد هو الطراز القوطي الذي تميز بكثرة الدعائم الطائرة والأقبية العالية، وانتشر في بناء الكنائس والكاتدرائيات الضخمة، وقد أدخل هذا الطراز القوطي في إيطاليا في أواخر القرن الثالث عشر بعد إدخال تعديلات عليه تجعله يتفق مع حالة الطقس في بلادهم، وفي الوقت نفسه فإن المباني قد غلب عليها طابع الدفاع، بسبب الخوف من غزوات البرابرة ، وتمثل ذلك في القلاع المحصنة.

عوامل جعلت من إيطاليا المهد الأول للنهضة

١-المدن الإيطالية:

كانت مدن إيطاليا "فلورنسا ووجنوة والبندقية" مهيأة بموقعها ومركزها لاستقبال العلوم والفنون، فإن هذه المدن نفضت عنها أعباء العهد الإقطاعي كما سبقت الإشارة، وأصبحت مستقلة، لا سيد عليها غير القانون، وساعد الكفاح المستمر فيها على أعمال الفكر، وكثرت الثروة فيها بسبب اتساع تجارتها ووفرة صناعاتها، وانصرف طلاب العلم والفن إلى دراسة العلوم والآداب والفنون القديمة ورأي الناس حولهم صوراً دقيقة الصنع، وأثاثاً فاخراً، وقصوراً شاهقة، فصرفوا المال لإشباع غاياتهم من الفن الجميل، وتخلص سكان هذه المدن من قيود العصور الوسطي. وقامت بهذه المدن حكومات مستنيرة قوية، وكانت أنظمة هذه الحكومات تشبه بوجه عام نظام الحكومات التي قامت أيام عظمة الحضارة الإغريقية القديمة، وكان من مميزات هذه الحكومات إشراك الشعب في سياستها، ومساندة أمرائها للفنون، فكان ذلك باعثاً للأدباء وأهل الفنون على النبوغ

والإبداع ، ثم أخذت كل مدينة تنافس غيرها في عمل واقتناء أنفس الكتب وإبداع الصور، وتشييد أفخر المباني والمعاهد والكنائس.

٢-مركز إيطاليا الجغرافي :

إن وقوع إيطاليا في مركز متوسط على ساحل البحر المتوسط في عصر كان فيه هذا البحر مركز تجارة العالم، اكسبها أهمية لا تقدر، وقد أصبحت حلقة الاتصال بين أوروبا، وبلاد شرق البحر المتوسط، والشرق الأقصى، فاتسعت تجارتها ونمت صناعاتها، فكثر ثراء مدنها، كالبندقية وجنوة وفلورنسا وميلان، والثراء يولد الرغبة في الحرية، ويمهد السبيل للإشتغال بدراسة الفنون والعلوم والآداب. ونعرف أن الحضارة الإسلامية كانت مزدهرة أثناء العصور الوسطي، وأنها أسهمت بنصيب وافر في ميادين العلوم والفكر والإنشاءات والطب والفلك وعلوم البحر، وكانت مراكز الحضارة الإسلامية موجودة في كل مكان، وكان أقربها إلى أوربا يتمثل في جامعات الأندلس في الغرب، وصقلية وتونس في الوسط، ومصر والشام في شرق البحر المتوسط، وكانت هذه المراكز المتقدمة للحضارة الإسلامية تُحيط بإيطاليا من كل اتجاه، كانت تعتبر معابراً ونقط اتصال علمي وحضاري، بين الشرق والغرب نحو قرنين من الزمان، وقف خلالها أهل أوربا على حضارة الرق، وجاء الكثير من طلبة العلم من الغرب إلى هذه المراكز يدرسون ويتعلمون ويقتبسون ويفكرون، الأمر الذي ساعد على ازدياد أهمية الموانى، علاوة على أهميتها العسكرية في الحروب الصليبية، وأهميتها الاقتصادية في التعامل في التجارة بين الشرق والغرب[٤٧]. وكانت إيطاليا بفضل موقعها قريبة من أقاليم الدولة البيزنطية، فسهل على طلاب العلم من الإيطاليين أن ينزحزا إلى جهات هذه الدولة، كما سهل على علماء الدولة البيزنطية أن يفدوا إلى المدن الإيطالية كأساتذة زائرين وينتشروا العلم فيها ويكونوا شبه مدارس علمية في هذه المدن.

٣-الحضارة الرومانية القديمة:

ولما كانت إيطاليا مهد الحضارة الرومانية القديمة، فقد ساعد ذلك على أن تكون أسبق الدول إلى الدخول في ميدان النهضة، فقد كانت ذات الكنوز الدفينة في العلوم والآداب والنقش والتصوير والآثار والمسكوكات فجعل الإيطاليين على اتصال وثيق بآداب الرومأن وفنونهم وقوانينهم، فتأثروا بذلك، وتطلعوا ليكونوا ورثة أجدادهم

الورمان، في إحياء مجدهم الذي أتت عليه الأيام. ولما كانت اللغة الإيطالية قريبة من اللغة اللاتينية فقد سهل عليهم تعلمها، وبذلك استطاعوا الإستفادة من مخلفات أجدادهم في الآداب والعلوم والفنون فساعدهم ذلك على ظهور ميدان التقدم والنهضة قبل غيرهم من الشعوب الأوربية، فقد كانت إلاثار الرومانية القديمة بمثابة نماذج للإيطاليين(٤٨).

٤- مقر البابوية:

كانت روما قِبلة العالم المسيحي الغربي، الأمر الذي كان يثير اعتزاز الإيطاليين بها، وكانت الكنيسة من القوي المضادة للتقدم والتطور، ولكن نزولاً إلى ميدان السياسة العلمانية والتوسع الإقليمي كإمارة ودولة، وصراعها مع الإمبراطورية، أدى بالتالي إلى ضعفها، وزاد من هذا الضعف انتشار الفساد فيها، الأمر الذي سهل مهاجمتها، ولقد أثرت الكنيسة من مواردها المالية من كل أوربا، وأخذ بعض البابوات المستنيرين ينفقون على نشر العلم وإنشاء المكتبات وجمع المخطوطات واقتناء الكتب وبناء الأكاديميات، وجمع القطع الفنية ن والعمل على تجميل مدينة روما، وأخذوا ينافسون أمراء إيطاليا في رعاية العلوم والفنون والآداب، وكان العلماء والفنانون يقصدونهم واشتهروا في التاريخ باسم بابوات النهضة، ومن أشهرهم نيقولا الخامس(٤٩)، الذي وضع أسس مكتبة الفاتيكان في منتصف القرن الخامس عشر البابا ليو العاشر (١٥١٣-١٥٢١)م، أخذ في البدء في إنشاء كنيسة القديس بطرس. ولما كان الإيطاليون أقرب الشعوب إلى مقر البابوية، أصبحوا أشد من غيرهم ألفة واختلاطاً برجال الكنيسة، وأكثرهم وقوفاً على نقائص رجال الدين وعيوبهم وأخطائهم، أوسعهم علماً بما دخل الدين من بدع وخرافات لا تمت إلى الدين بنسب، ولهذا لم يعودوا يخافون تهديد الكنيسة، ولا يخشون سلطة رجال الدين، كإخوأدانهم خارج إيطاليا، فكانوا لذلك أسبق الشعوب في تحطيم قيود العصور الوسطي وأغلال الكنيسة(٥٠).

أهم مراكز النهضة في إيطاليا:

عمت النهضة كل إيطاليا، ولكن فلورنسا وروما قد برزتا في هذا المضمار، فقد كانت فلورنسا تحت حكم " اَل مدتشي "، وكانوا أمراء ديمقراطيين، ذاع سيطهم في المقدرة الإدارية، وفي معاضدة العلوم والفنون، فبرع تحت رعايتهم "دوناتلو"، والذي أبدع في تمثيل حياة الناس وبخاصة الأطفال في تماثيل من المرمر والبرنز، وقد بلغ

"جيبرتي" "Ghiberti" حد السحر في الحفر والباز، ومن مظاهر النهضة في فلورنسا قيام مدارس على النمط الذي دعا إليه " روسو" فيما بعد، من بغض الترف وحب البساطة، والجمع بين البنين والبنات في مدرسة واحدة، بقصد تخريج أناس مثقفين بدنياً وروحياً لا مجرد فلاسفة.

ولما ظهر الفن نال تشجيع روما كذلك، وإستخدم للتعبيرعن الأفكار الدينية وإنشاء الكنائس الفخمة ولهذا نري البابا "يوليوس الثاني" يكلف "ميخائيل أنجلو" ونضع تصميم كنيسة تفوق كل ما سبقها في النسب والجمال، والتسلط على خيال الإنسان، فكانتكنيسة الرسول بطرس الجديدة مظهراً لعظمة الكنيسة العامة ووحدتها، ودالة على سلطة رئيسها، وقد جمع البابوات في روما عدداً من نوابغ الفنانين قل أن يجتمع مثله في صعيد واحد. ومن هؤلاء ميخائيل أنجلو صاحب الإبتكارات في النحت والتصوير والهندسة الحربية والمعمارية في عصر النهضة، وبلغ من حبه للجمال أن حرم على نفسه تصوير الوجوه، خشية أن يكلف بتصوير وجه قبيح، ومنهم أيضاً "روفائيل" وكان مهندساً معمارياً ومصوراً، من معاصري أنجلو، وكذلك "لورنز الفاخر" الذي ساند العلم وأجل العلماء وشجع الفنانين وأكمل إحياء اللغة الإيطالية الذي بدأه "دانتي"، وكانت طبيعة الأهالي في إيطاليا– منذ اقدم العصور– تحب الحياة والجمال والتمتع، وإذا كانت الكنيسة قد فرضت عليهم نوعاً معيناً من السلوك والأخلاق خلال العصور الوسطي، إلا أنها كانت مستعدة للعودة إلى طبيعتها المنطلقة مع أول تغير للظروف من الألمان والسويسريين، ولقد ساعدهم الرخاء الاقتصادي وتشجيع الأمراء، مع جمال الطبيعة، وشعورهم بمجد روما القديم وآثار الحضارية، على المشاركة في التذوق، وفي الخلق والإبداع.

الفصل الثالث

الاستعمار الأوروبي – الكشوف الجغرافية" وجهان لعملة واحدة"

شهد القرن الخامس عشر الكشوف البحرية الكبري التي قام بها الإسبان والبرتغال والتي كان من نتائجها أن أُزيح الستار عن سواحل القارات فتعرضت أراضي جديدة واكتشف طرقا ملاحية لم تكن معروفة من قبل لسكان حوض البحر المتوسط فاكتشف طريق رأس الرجاء الصالح، ووصل الإسبان إلى جزر الهند الغربية وإلى العالم الجديد، كما تمكن ماجلان من القيام برحلته البحرية المشهورة التي دار فيها حول، وليس هذا فحسب فقد أرجع المؤرخون أسباب انهيار البندقية الاقتصادي للكشوف الجغرافية ممثلة في اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح المؤدي إلى مراكز البهار في الهند والشرق الأقصي وذلك لوقوع البندقية في دائرة الصراع بين الإسبان والعثمانيين.

✶ **العوامل التي ادت إلي الكشوف الجغرافية:**

١-الحروب الصليبية:

كان من أثر الحملات الصليبية، أن اعتاد الأوربيون الأسفار وتحمل المشاق، واتسعت معلوماتهم عن الأرض، وما بها من أقطار مختلفة، وقد لعبت العوامل الدينية دوراً كبيراً في حركة الكشوف الجغرافية، كما لعبت دوراً كبيراً في تخطيط سياسة كل من البرتغال وإسبانيا أثناء حركة الكشوف، حيث تمتلكهم رغبته قوية في مطاردة المسلمين في غرب أفريقيا وتحويلهم إلى المسيحية، وتحويل أثيوبيا إلى المذهب الكاثوليكي وفصلها عن الكنيسة القبطية الأرثوذكسية في مصر. وفي القرن الثالث عشر أخذ بعض الرحالة من الأوربيين يقومون برحلات طويلة في جهات الشرق، وأهمهم الرحالة "ماركو بولو وهو من أهالي البندقية، قام برحلة مع أبيه وعمه إلى بلاد الصين، حيث قضي نحو من عشرين سنة، عاد بعدها إلى بلاده عام ١٢٩٥م حاملاً الكثير من الأحجار الكريمة، حتى سماه مواطنوه "ماركو صاحب الملايين"، حيث توجد ثروة لا تنفذ وعقدوا العزم على الحصول على جزء منها لأنفسهم.

٢ – العامل الاقتصادي:

كانت أوربا في حاجة شديدة إلى البهارات والتوابل التي كانت تستورد من الشرق والتي كانت تصل أوربا عن طريق الخليج العربي والبحر المتوسط، والبحر الأحمر ثم

دمشق والقاهرة، وإلى أوربا عن طريق المدن الإيطالية، وقد فكر الأوربيين في ايجاد طريق آخر يصلون من خلاله إلى الشرق وبالتالي إنهاء عملية الإحتكار هذه التجارة من قبل المماليك في مصر والبندقية، من المؤكد أن العوامل الاقتصادية قد لعبت دوراً مهما في دفع حركة الكشوف الجغرافية إلى الأمام. ومن المعروف أن الدافع الأساسي لهنري الملاح في جهوده الإستكشافية هو العامل الاقتصادي بجانب العامل الديني، فقد كان مؤمناً بامكان الطواف حول أفريقيا والوصول إلى الهند عن هذا الطريق، وبالتالي الحصول على الأرباح الطائلة التي تستأثر بها مدن إيطاليا البحرية لاحتكارها التجارة مع الشرق. وبتداخل العامل الاقتصادي مع التعصب الديني في دفع البرتغاليين والإسبان نحو السياسة التوسيعية التي اتبعوها في شمال أفريقيا منذ احتلال الإسبان لمدينة تطوران عام ١٤٠١م، والبرتغال لمدينة سبتة فى عام ١٤١٥م، ويظهر أثر العامل الاقتصادي بوضوح إذا ما عرفنا أن مراكش اقترنت دائماً في أذهان البرتغاليين بتشييد اقتصاد الإمبراطورية البرتغالية، إذا كان هدف القائمين بأعمال الكشف والاستعمار في ساحل أفريقيا الغربي هو أن يزودوا من مراكش بالقمح والخيل ليشتروا بها الذهب من الرؤوساء الأفريقيين الذين يتعاملون مع المحطات البرتغالية ثم يستخدمون هذا الذهب لشراء التوابل من الشرق الأقصي.

✶ **حركة الكشوف البرتغالية**

اتجه التوسع البرتغالى بنوع خاص صوب أفريقيا، فأصبحت أنجولا مستعمرة حقيقية، وفي موزمبيق بذلوا المجهود من أجل التوغل في داخل البلاد بحثاً عن مناجم الذهب، وفي المغرب كانت القوات البرتغالية أقل نجاحاً[٨]، وفي الحبشة حاربت القوة البرتغالية مسلحة بأحداث ماعرف في ذلك الوقت من أسلحة غيرت ميزان القوي، ولكن في إحدى الحملات الكبري التي شنها الصوماليون على العدو منيت القوات المتحالفة بهزيمة نكراء، ولقي قائد البحرية البرتغالية مصرعه على يد الصوماليين في عام ١٤٣٢م[٩].

كانت البرتغال أول دولة أوربية بدأت حركة الكشوف الجغرافية، وقد حظيت فكرة الكشف هذه بتأييد ورعاية الأمير البرتغالى المعروف "هنري الملاح" (١٣٩٤-١٤٦٠)م، وكان هنري ملماً بالجغرافيا والرياضيات التي عرفت أنذاك، كما كان مسيحياً

متحمساً لنشر المسيحية بين سكان القارة الأفريقية، وقد قاد هنري حركة الكشوف الجغرافية البرتغالية[١٠]، كما كان رئيساً لهيئة اليسوعيين "الجزويت" وبالتالي كان يهمه العمل على كسب أراضي وميادين جديدة للمسيحية، وقد أمضي نحو أربعين عاماً في إعداد الحملات الإستكشافية وإرسالها إلى شواطئ أفريقيا الغربية، حتى تم كشف بعض الجزر المهمة في المحيط الأطلسي مثل جزيرة "مادیرا" فى عام ١٤٢٠م، وجزر كاناري وجزر أزور فى عام ١٤٣١م، هذا زيادة على بعض المراكز على شاطئ أفريقيا مثل "الرأس الأبيض" عام ١٤٤١م، و"الرأس الأخضر" عام ١٤٤٦م، وبذلك حقق هنري غرضه في الوصول إلى بلاد غانا[١١]، وعلى وجه العموم فإن طبيعة الاستعمار التجارية البرتغالية أنعكست على قصر اهتماماته على الأشرطة الساحلية مثل (ساحل غانا وساحل الذهب وساحل العاج وساحل الزنج وساحل مالأبار.....الخ)[١٢].

وبدأت تجارة رابحة بين بلاد غانا وبين البرتغال، إذا بدأ التجار والملاحون يقتنصون العبيد من تلك الجهات وينقلونهم إلى أسواق أوربا، وحنوا من هذه التجارة ربحاً وفيراً أغري الكثير من التجار بالمغامرة والقيام برحلات متوالية إلى جهات أفريقيا الغربية، ساعدت على التوسع في حركة الكشف، وكانت موضع تشجيع الأمير هنري حتى مات عام ١٤٦٠م[١٣]، وقد أثرت وفاة الأمير هنري الملاح في حركة الكشف الجغرافي، ولكنها لم تتوقف هذه الحركة بعد أن أثبتت التجارب للبرتغاليين أن أفريقيا تهيئ لهم مورداً غنياً بالرقيق في وقت وجد البرتغاليون في تجارة الرقيق بالذات مصدراً هاماً للثروة، حتى أن هنري الملاح يعتبر مؤسس هذه التجارة في أوربا. ومن خلال الفترة من (١٤٧٠-١٤٨٢)م تم اكتشاف الجزء المتبقي من ساحل غانا، كما أن البرتغاليين في عام ١٤٧٥م وصلوا إلى رأس كاثرين وفي عام ١٤٨٢م استطاع " ديجو كام أن يحمل النفوذ البرتغالى إلى مصب نهر الكنغو فوصل إلى "رأس سانت ماري"

وفي عام ١٤٨٧م كانت رحلة " بارثولوميو دياز"التي كان الغرض منها الوصول للهند وايجاد مملكة القس بريسترجون التي قيل أنها تبعد قليلاً عن الساحل الغربي لأفريقيا[١٥] كما كان يهدف للوصول إلى بلاد الطرف الجنوبي لقارة أفريقيا، وقد نجح في مهمته، ثم عاد إلى بلاده يحمل أكاليل النصر، ونظراً لما قاساه من هول الزوابع عند طرف القارة، أُطلق عليه "رأس الزوابع" وذلك بسبب العواصف الشديدة التي

صادفها حولها، دياز أن ساحل القارة ينحرف في اتجاه الشمال الشرقي فعاد أدراجه إلى لشبونة، ولكن ملك البرتغال عندما أيقن أنه حقيقة الطرف الجنوبي للقارة وأن هذا الكشف يشير إلى الوصول إلى الهند، سماه "رأس الرجاء الصالح"(١٦).

عند هذا الحد وقفت جهود البرتغاليين لمدة عشر سنوات، حدث خلالها ذلك الكشف الإسباني؛ قد كشفوا طريقاً إلى الهند أقصر وأسهل من طريق جنوب أفريقيا، ولكن لما عرف أن طريق كولمب ليس قصيراً، تحرك ملك البرتغال "عمانويل الأول" (١٤٩٥ –١٥٢١)م، أو السعيد وأمر في ١٤٩٧م باستئناف الحركة الكشفية، فأرسل الرحالة الكبير "فاسكو دي جاما إلى ممبسة وغيرها من ثغور شاطئ أفريقيا الشرقي، التي كانت تسكنها جماعات من تجار العرب، الذين أخذوا ينقمون من الأوربيين لتدخلهم في تلك الجهات لاحتكارهم تجارتها وتجارة الهند والشرق الأقصي، ولذلك رفضوا أن يرشدوه إلى الطريق الموصل إلى الهند، خشية أن يهتدي الأوربيون إلى طريق الهند، وينقلون تجارتها بحراً فينافسوا العرب.

غير أن فاسكوا وجد بغيته في " ملندي اذ قبل بحار عربي هو "أحمد شهاب الدين بن ماجد" أن يهديه إلى مدينة "كاليكوت" على الشاطئ الغربي للهند في ١٤ من مايو ١٤٩٨م بعد ٢٢ يوماً من مغادرته ماليندي، ولم يحسن سلطانها الملقب "زامرين" (أي سيد البحار) استقباله في أول الأمر، خاصة وأن تجارب العرب افهموا " زامرين" أن البرتغاليين ليسوا إلا لصوص بحر، ولكنه عاد وقربه إليه، وعقد معه معاهدة تجارية، عاد بعدها إلى "لشبونة" محملاً بالمتاجر الهندية والشرقية، وكان "دي جاما" بعمله هذا، أول من فتح باب الاستعمار في الشرق، فقد هون لملكهم عمانويل الأول أمر العرب وأظهر له إمكان التغلب عليهم وأوضح له أن وسائل دفاعهم ضعيفة وأنه يمكن تأسيس دولة برتغالية عظيمة في بلاد الشرق، وخرج "دي جاما" مرة ثانية إلى الهند ١٥٠٢م وأخذ يحارب الزامرين حتى هزم جيوشه في موقعة فاصلة قتل فيها الزامرين، مما أوجد في نفوس الأهالي البغض للبرتغاليين، وصمم البرتغاليون على القضاء على العرب والمسلمين في جميع البحار وتكوين دولة برتغالية قوية تسيطر على تجارة الشرق، بالاستيلاء على شاطئ أفريقيا الشرقي، والاستيلاء على هرمز عام ١٥١٠م وعدن ١٥١٣م مفتاحي الخليج العربي والبحر الأحمر، وقد تم لهم ذلك .

وكان العرب يحتفظون باحتكار التجارة في المحيط الهندي ينافسهم في ذلك البنادقة، ولكن الفتوحات العثمانية في القرنين الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين حددت المحطات والمراكز والمستوطنات التي أقامها البنادقة، والتي كانت تدر لهم أرباحاً مهولة، فقد كان تجارها يسيطرون على تجارة البهار، وتأثر البندقية بهذا التوسع العثماني[١٨]، ولم يكن هدف البرتغاليين إلا أن يحطموا هذه المنافسة المزدوجة، ويضمنوا لأنفسهم احتكار تجارة الهند، وينتهزوا الفرصة على سواحل أفريقيا ومهاجمة المنشأت العربية في المحيط الهندي وقاموا بتنفيذ ذلك بحماس ووحشية، فأخذوا في إحراق سفن العرب، وفي هدم المدن والمراكز الإسلامية وطرد التجار، وادعوا أنها كانت حربا صليبية ضد المسلمين، وتحول المحيط الهندي إلى بحر برتغالى.

✶ **حركة الكشوف الإسبانية**

إذا كان اكتشاف أمريكا الشمالية قد ارتبط باسم كولومبوس فإن معرفة أمريكا اللاتينية التصق باسم الرحالة الفلورنسى "أمريجو فيسبوتشي" والذي لعب دوراً كبيراً في اكتشاف العالم الجديد، وعليه فقد أطلق اسم أمريكا على هذا العالم الجديد نسبة إليه، إذ أنه كان قد اصطحبه كولومبوس في إحدى رحلاته عام ١٤٩٩م، والذي كان من أوائل من وصل إلى القارة الأمريكية، وكان أول من نادى بأن الأرض الجديدة لم تكن آسيا فأصر "لوران دي مدسيس" على اطلاق اسمه على العالم الجديد، رغم أن الأوربيون ظلوا لمدة طويلة يسمون العالم الجديد باسم الهند.

ويعتبر كولومبوس رائد حركة الكشوف الإسبانية، والذي كان من إيطاليا من جنوة، درس الجغرافيا والرياضيات والفلك[٢٧]، بل وكان شاعراً ومسيحياً واقعياً في نفس الوقت؛ كان شاعراً لأنه تأثر بالكتابات والروايات المنتشرة في عصره، ومسيحياً لأنه كان مستعد للقيام بحملة صليبية جديدة، وأما واقعياً لأنه اعتقد في أن الأرض كروية، وأنه يمكنه أن يجد في الغرب، ما قام أجداده بالبحث عنه الشرق[٢٨].

وكانت الفكرة السائدة لدي الكثيرين في ذلك الوقت، أن الأرض منبسطة وليست كروية كما كان يعتقد، ولهذا أخذ هؤلاء ينبهونه على تهوره ويضحكون منه لجنونه، لكنه لم يعبأ بهم، وقد طلع لسامعيه بفكرة جديدة جريئة من الوصول إلى شرق آسيا وبلاد الهند وبالسير غرباً عبر المحيط الأطلنطي، لا بالسير شرقاً أو جنوباً ، لم يعبأ

بالخرافات السائدة آنذاك عن هذا المحيط وما فيه من أجنة وشياطين ونيران، وكان هذا العمل يحتاج إلى المال والرجال، وليس لديه من ذلك شئ، فعرض مشروعة على ملوك أوربا وأمرائها الذين رفضوا تمويل مثل هذا المشروع، فأرسل أخاه لعرض المشروع على هنري السابع عام ١٤٨٥م ملك انجلترا فتردد، فعرض المشروع على "فريديناند وإيزابيلا" ملكي إسبانيا فقبلا مساعدته رغم نصائح رجال الدين وكبار رجال الدولة برفض مشروعه وعقدا معه معاهدة وأنعما عليه برتبة أدميرال أعظم على كافة البحار والجزر والقارات التي يكتشفها، على أن تؤول هذه الممتلكات لأولاده من بعده[٢٩].

وجهز كولمبس ثلاث سفن عليها تسعون بحاراًوثلاثون مسافراً بينهم طبيب وجراح ومترجم وموثق، وأقلع بها من "بالوس" جنوب جزائر كناريا، ثم إلى عرض البحر "المحيط" دون أن يعلم أنه بدأ حركة للاستعمار في تاريخ العالم، واستمرت الرحلة نحو ٧٠يوماً ، حاول فيها مساعده أن يحاول اتجاه السير قليلاً إلى الجنوب، بدلاً من مواصلة السير صوب الغرب، ولولا هذا التغيير لوصل كولمبس إلى فلوريدا، ولأصبحت الولايات المتحدة مستعمرة إسبانية، ولكن وصل إلى إحدى جزر البهاما في شمال كوبا، وعندما نزل كولمبس إلى الشاطئ ركع وقبل الأرض وحمد الله، ثم أشهر سيفه ورفع علم قشتالة، وأمر الموثق بتحرير وثيقة للاستيلاء على هذه الأرض باسم فرديناند وإيزابيلا في عام ١٤٩٢م.

أما الأهالي فقد خافوا من رؤية السفن والأشرعة والرجال الإسبانيين، ثم أخذوا في الإقتراب منهم لمحاولة التعرف عليهم، فمنحهم كولمبس بعض الخرز والأجراس الصغيرة التي كان قد أحضرها معه، وكان لون الأهالي داكناً ، وأطلق الإسبانيون عليهم اسم الهنود وبقي هذا الإسم مستعملاً حتى الآن، وواصل كولمبس حملته من جزيرة إلى أخرىباحثاً عن الذهب والتوابل والخان الأعظم الذي كان يحمل له خطاب توصية من ملك إسبانيا وكان الأهالي يدلونه على أن الذهب يوجد عند القبائل المجاورة لهم، وبدلاً من التوابل لم يجد سوي القطن، إلا أنه لاحظ نباتات وشجيرات كثيرة، يمكن استخدامها في الصباغة وفي الصيدلة والطب في أوربا، ثم وصل هايتي وسماها هيسبانيولا وبني فيها قلعة وترك فيها تسعة وثلاثيين بحاراً كانوا أول المعمرين من أوربا في العالم الجديد.

عاد كولمبس إلى إسبانيا ليعلن في البلاد وأمام كبار رجال المملكة اكتشافه الجديد، ثم قام كولمبس برحلته الثانية في ١٤٩٣م وكان هذه المرة أحسن تجهيزاً وأكثر عدداً، فتألفت حملته من سبع عشرة سفينة عليها ١٥٠٠ رجلاً، فتوجهوا إلى جزر الأنتيل أولاً ثم توجه إلى هايتي ليكتشف أن السكان قد قضوا على الإسبان الذين أبقاهم في المستعمرة في المرة السابقة فأقام مستعمرة أخرى جديدةبدلاً منها(٣٠).

قام كولمبس بعد ذلك برحلتين إلى تلك الجهات، كشف في الثانية منها عام ١٤٩٨م جزيرة "ترينداد"، وأبصر شاطئ أمريكا الجنوبية، ولكن أعداءه وشوا به، وأعادوه إلى إسبانيا مكبلاً بالأغلال ذليلاً، ولم ينقذه من هذا الذل وتلك المعاملة القاسية إلا الملكة " إيزابيلا" التي كانت تعطف عليه، وبموتها بعد قليل أهمل أمره وقام برحلته الأخيرة سنة ١٥٠٢م، ووصل فيها إلى شواطئ أمريكا الوسطي بالقرب من بنما، ثم عاد إلى إسبانيا منزوياً متألماً لنكران جميله وجحود فضله، ومات سنة ١٥٠٦م، وهو لا يعلم أنه كشف عالماً جديداً، بل كان على اعتقاده أنه وصل إلى شرق آسيا، ولذلك لم يطلق اسمه على القارة الجديدة (٣١).

وبعد إبعاد كولمبس عن أعمال الفتح والاستعمار زاد عدد المكتشفين والباحثين عن المجد والثروة في البلاد، ومن أبرزهم فسبوتشي، وكان دوره في اكتشاف أمريكا هو في الحقيقة أقل من دور سلفه كولمبس، حتى وفاة هذا الأخير كان من المعتقد أن الأرض المكتشفة حديثاً ليست قسماً من البر الأسيوي، وقد نشرت في أوربا عدة رسائل من فسبوتشي يثبت فيها نظريته، وهذا ما دفع الناس لإطلاق اسم أمريكا على القارة الجديدة، وبعد وفاته بسنة واحدة أي فى عام ١٥١٣م آتي الرحالة الإسباني بالبو بدليل جديد على صحة نظرية فسبوتشي إذا أنه وصل في اكتشافاته داخل الأرض الجديدة إلى المحيط الأطلنطي؛ فأثبت أن الأرض الجديدة أمامها بر وورائها بحر فجاء اكتشافه تصديقا لنظرية سلفه(٣٢).

✶ **رحلة ماجلان "Magellan":**

كان ماجلان من أصل برتغالى، شارك في بعض الرحلات الكشفية البرتغالية، وكانت رحلته الشهيرة حول العالم هي التي جلبت له الشهرة، وهي قام بها لحساب الإسبان بعد أن عارضه ملك البرتغال في تنفيذ فكرته القائلة بإمكانية الوصول إلى

الشرق حيث توابل والخيرات عن طريق الإلتفاف حول أفريقيا، وهو طريق الإتجاه غرباً عبر المحيط الأطلسي ثم الإلتفاف حول أمريكا الجنوبية، وحينما عرض ماجلان فكرته هذه على ملك إسبانيا رحب حيث أنها ستحقق له هدفه في الوصول إلى منطقة التوابل دون حدوث سوء تفاهم بينه وبين البرتغال إذا سلك نفس طريقهم إلى الشرق، وتحمس ماجلان وزميله الذي كان يمثل العقل المفكر لماجلان وهو "روي دي فالييروا" ولم يكن حماسهما لتنفيذ فكرتهما فحسب بل للرد على إهانة البلاط البرتغالى لكليهما وأعراضه عن أفكارهما، وجهز لهما الملك شارل الأول خمس سفن بالرجال والسلاح والعتاد، وأقلعت السفن الخمس بقيادتهما في أغسطس ١٥١٩م. بعد وصول ماجلان إلى سواحل أمريكا الجنوبية تعرض لمحاولة اغتيال من قبل قادة السفن الذين كانوا يحقدون عليه، ولكنه نجا منها وقتل اثنين منهم وترك الآخرين على الساحل، ثم سار جنوباً بمحاذاة الساحل الشرقي لأمريكا الجنوبية حتى وصل إلى نهايتها الجنوبية، ووجد مضيقاً عرف فيما بعد بـ "مضيق ماجلان"، فعبره إلى المحيط الهادى وقد سماه بالهادى لخلوه من الزوابع التي تكثر في المحيط الأطلسي، ثم واصل سيره بالمحيط نحو من ثلاثة أشهر لاقي فيها كثير من المتاعب، وفي مارس ١٥٢١م وصل إلى مجموعة الجزر التي عرفت فيما بعد باسم الفلبين نسبة إلى فيليب ابن الإمبراطور، وبعد أن نجحت في ضم بعضها إلى إسبانيا لقي مصرعه نتيجة تدخله في المشاكل الداخلية لهذه الجزر. وسارت الرحلة بعده في طريق عودتها لإسبانيا حيث عادت في سبتمبر ١٥٢٢م، وقد نقص عدد رجالها بشكل كبير، وعانت المجموعة الباقية من الجوع والمرض وسوء الأحوال الجوية، وتعد رحلة ماجلان من أهم الرحلات التي سجلها التاريخ خاصة وأنها اكدت نتيجة هامة لم تؤكد كافة الرحلات السابقة لها وهي "كروية الأرض"، وحقيقة وجود القارتين الأمريكيتين الجديديتين، والتعرف على المحيط الهادى، وساعد ذلك على تشجيع الحكومة لمواصلة هذه الرحلات.

✶ **حركة الكشوف الانجليزية والفرنسية**

كان من نتائج هذه الكشوف التي ذكرناها، أن قلت أهمية البحر المتوسط وبالتالي أهمية مصر والبندقية وغيرهما، وأصبح المحيط الأطلنطي مركزاً للتجارة بين أوربا وأمريكا وصارت البلاد الواقعة عليه في وسط العالم التجاري، بعد أن كانت على

حافته القصوي وأحست انجلترا وفرنسا وهولندا أنها لاتقل في الامتياز عن البرتغال وإسبانيا، فسعت إلى نيل نصيب من تلك الغنائم. فأرسل الملك هنري السابع ملك انجلترا ومؤسس أسرة التيودور سنة ١٤٩٦م " جون كابوت" للوصول إلى الهند من طريق الشمال الغربي فكشف "لبرادور ثم كشف أكبر أبنائه جزيرة "نيو فوند لاند" وتقع على قرب شاطئ فلوريدا واستعمرت انجلترا بعد ذلك الجهات المعروفة الآن باسم الولايات المتحدة الأمريكية، وفي السنة التالية قام كابوت برحلة ثانية اكتشف فيها الشاطئ الشرقي لأمريكا الشمالية وقد نتج عن ذلك تمهيد الطريق لاستعمار انجلترا لجزء كبير من العالم الجديد(٤٦)، كما تمكن الانجليز أيضاً من التقدم من خليج هدسن إلى داخل القارة فوصلوا إلى جبال روكي والمحيط المتجمد الشمالي. أما بالنسبة لفرجينيا؛ فقد أرسل "سير والتر رالى" بتصريح خاص، أما "داس" و"بارلو" فنزلا بجزيرة رونوق عام ١٥٨٤م، وأطلقا على الإقليم اسم "فرجينيا"، وقد أرسلت سفن تحمل المؤن عام ١٥٨٦م ولكنها وجدت المستعمرة مهجورة، إذ كان "دريك" قد عاد بالمستعمرين إلى انجلترا، وأرسلت طائفة أخرى من المستعمرين بقيادة الحاكم جون هوايت، وعند عودته عام ١٥٩١م لم يجد هوايت سوي اطلال المستعمرة وخرائبها، وشهدت الفترة من عام ١٦٠٢م إلى ١٦٠٤م تنظيم عدد من الرحلات إلى أمريكا كان الأحوالها تلك التي قام بها جورج وايموث عام ١٦٠٤م، وقد توجه وايموث لرؤية ساحل نيو انجلاند وتضمن تقريره المرضي مايثير الرغبة في تأسيس مزيد من المستعمرات .

أما بالنسبة لفرنسا فقد دخلت ميدان الكشوف الجغرافية متأخرة بعض الوقت عن البرتغال وإسبانيا وانجلترا، حيث وصل جماعة من صائدي الأسماك من نورماندیا وبريتاني إلى سواحل نيو فوندلاند في حوالي عام ١٥٠٠م، وهناك أخبار تفتقر إلى اثبات عن محأولات لارتياد خليج سانت لورانس في عامي ١٥١٨م، ويحتمل أن يكون جيوفاني دي فيراتزاني الذي أرسله فرنسيس الأول ملك فرنسا قد كشف الساحل الأمريكي من "كيب فير" حتى نيو فوندلاند. أرسل فرنسوا الأول ملك فرنسا "جاك كارتيه" قصد الذهاب إلى الهند بالطريق الشمالي الغربي فكشف مصب نهر سنت لورانس سنة ١٥٣٤م، وتلا ذلك استعمار الفرنسيين كندا وحوض نهر مسيسي، مما أدى إلى الإصطدام مع الانجليز سنة ١٧٥٤م، عموماً أن حركة الكشوف الفرنسية في

العالم الجديد قد أدت إلى تنافس استعماري في أمريكا الشمالية مع الانجليز من أجل السيطرة والسيادة في العالم الجديد(٥٠). وحاول ماركيزدي لاروس سنة ١٥٩٨م أن يؤسس مستعمرة في جزيرة سابل، وتم انقاذ الإحياء منهم بعد انقضاء خمس سنوات، وبعد أن منح "بنتجرافيه" و"شوقان"، و "دي مونت" في عام ١٦٠٠م حق احتكار تجارة الفراء، قاموا بمحاولة فاشلة أخرى للاستعمار وكان هدفهم في هذه المرة "تادوساك" عند "سانت لورانس السفلي"، وارتاد "بونتجرافيه" بصحبة "صمويل دي شمبلين" علاوة على ذلك الساحل الأكيدي، وفي السنوات الثلاث التالية، نظم "دي مونت" و "شمبلين" مكاناً للاستيطان في مدينة "سانت كروا"، ولكنهما انتقلا بعد فترة إلى "بورت رويال"، ثم تابع "شمبلين" رحلته على ساحل "نيو انجلاند" حتى "رأس كود" وعاد إلى فرنسا عام ١٦٠٧م.

★ نتائج الكشوف الجغرافية

١-كان البحر المتوسط طريق التجارة في العصور الوسطي ومركز النشاط االسياسي، وبعد هذه الكشوف انتقل ذلك المركز إلى المحيط الأطلنطي الذي أصبح طريق التجارة العالمية في العصر الحديث وانتقل مستقبل أوربا التجاري من مدن البحر المتوسط كالبندقية وجنوة إلى مدن الغرب والشمال إلى البرتغال وإسبانيا، ثم إلى هولندا وانجلترا التي كانت تقع على الطرق الغربي للدنيا القديمة، وأصبحت في قلب الدنيا بعد الكشوف الجديدة عرفت هذه الحركة الاقتصادية في التاريخ باسم "الثورة التجارية" "The Commercial Revolution"

٢- تكونت إمبراطورية إسبانية وأخرى برتغالية وفتح باب الاستعمار أمام الدول الأخرى التي لم يلبث أن دخلت الميدان لتأخذ بنصيب من الأملاك الجديدة ودعا هذا التنافس في البحار حتى أصبحت الأساطيل البحرية من الأحوال عوامل التغلب والانتصار، كذلك سادت بين الدول نظرية استغلال المستعمرات لصالح مما أدى إلى تذمر السكان وثورتهم في النهاية طلباً لدفع نير الاستعمار الذي كان فاتحة لسيل من الهجرة من أوربا إلى ذلك الإصقاع.

٣- عمل الإسبان والبرتغاليون على نشر الدين المسحي والمذهب الكاثوليكي بين أهالي المسكيك وأمريكا الجنوبية، حيث وجدوا في ذلك أكبر تعويض للكنيسة الكاثوليكية عن

نفوذها الذي ضاع في كثير من جهات أوربا، على أثر انتشار البروتستانتية في كثير من جهاتها بعد ظهور حركة الإصلاح الديني.

٤- ازدهرت كمية المعادن الثمينة ولاسيما الذهب والفضة واتخذت طريقها إلى أوربا فحل النقد محل المبادلة في البيع والشراء وانخفضت قيمة العملة وارتفعت الأجور وأثمان السلع وتحسنت الحالة الاقتصادية في أوربا نتيجة لازدياد النشاط التجاري وإنشاء الصناعات الجديدة وزيادة رؤوس الأموال.

٥- أخذت المحصولات الجديدة ترد إلى أوربا كالذرة والبطاطس والكاكاو والكينا والتبغ، وأصبحت عاملاً مهما يلعب دوره في الحياة الاقتصادية، كما اضحت من الضروريات بعد أن كانت من الكماليات.

٦- زادت أهمية علم الجغرافية، واتسع ميدان البحوث الجغرافية وتغيرت أفكار أهالي أوربا عن الأرض وحجمها وشكلها، ومن فيها وما فيها، كما لفتت هذه الكشوف الأنظار إلى ضرورة تحسين بناء سفن، ووسائل إرشاد الملاحين حتى يقبلوا على الأسفار والتجوال في البحار، وهكذا أقبل الناس على البحث العلمي والتفكير الحر دون الاعتماد على الآراء القديمة التي كانت سائدة أو التقيد بأفكار العصور الوسطي.

٧- كذلك اتسع ميدان علم التاريخ، فبعد أن كان مقصوراً في العصور الوسطي على عالم ضيق الأرجاء وهو المعروف في ذلك الوقت أصبح المجال أمامه واسعاً باتساع رقعة الراضي المعروفة على سطح لكرة الأرضية نتيجة للكشوف الجغرافية.

٨- قاسي سكان البلاد الأَصليين كثيراً من المستعمرين فكان هذا الاتصال كارثة عظمي عليهم وخاصة في أمريكا الشمالية، حيث كان يعيش الهنود الحمر، حيث قضت على الكثير منهم الحروب، والأوبئة ومن بقي منهم عاش في معزل عن المستعمرين، وأخذ عددهم في التضاؤل حتى لم يبق منهم الآن إلا عدد قليل في غرب الولايات المتحدة وكندا غير أن الحالة كانت أخف وطأة في أمريكا الجنوبية، إذ بعد هدوء الزوبعة الأولي زوبعة الفتح والتملك، وأخذ السكان الأصليون يختلطون بالإسبان والبرتغال وتعلموا لغتهم واعتنقوا دينهم، ومن خلال الإمتزاج نشأ الجيل الحاضر بعكس ما حدث في أمريكا الشمالية.

٩- كما ترتب على حركة الكشوف الجغرفية أن تحولت الثروة من طبقة ملاك الأرض إلى طبقة جديدة وهي طبقة التجار، وسيكون لانتعاش الطبقة البرجوازية التجارية دور مهم فيتطور نظم الحكم في العصر الحديث، وسياسياً قد نتج عن حركة الكشوف نشأة الاستعمار وازدياد تنافس الدول الأوربية على السيطرة في العالم الجديد وآسيا وأفريقيا.

مما سبق تتضح الروح الصليبية التي سادت تلك الاكتشافات، بل كانت الدافع الأساسي لها، ويتضح ذلك من مشروعات " البوكرك" وأقواله (وهو الذي خلف فاسكو دي جاما) فقد كان يقول : أنه يريد انجاز مشروعين من مشروعاته قبل وفاته وهما:

١-تحويل مياه النيل إلى البحر ليحرم مصر من ري أراضيها لأن مصر كانت في ذلك الوقت أهم دولة إسلامية من حيث موقعها وعدد سكانها وامتلاكها مساحة واسعة من الأرض في بلاد الشام وبلاد الحجاز.

٢-تهديم المدينة المنورة ، ونبش روضة سيدنا محمد - صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم-، وأخذ كنوزه - شُلت أيديهم وأفكارهم الشيطانية- حيث كان يتصور أن الروضة ملِ ئة باللاَلئ والمجوهرات شأن الفاتيكان، وسرقة رفات الرسول - صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم- بحث يجعلها رهينة حين يتخلي المسلمون عن الأماكن المقدسة في فلسطين.

كما يتضح أن دوافع الكشوف البرتغالية لم تكن للمعرفة فمن سار وراء المعرفة كان يمتاز بالصفات الإنسانية والخلق السامي النبيل، وهذا ما لم نلمسه أبداً من خلال ما عرفناه عن تلك الرحلات التي قاموا بها، بل السعي الحميم وراء كسب المستعمرات والسيطرة على خيرات البلاد، رغم ترحيب أهالي هذه البلاد بهم، ولكنهم كانوا خونة لا يحترمون من كان يستقبلهم، فليس لهم عهوداً ولا مواثيق.

الفصل الرابع

الإصلاح الديني في أوروبا

حركة الإصلاح الديني هي أول الثورات الكبري التي غيرت شكل العالم الحديث، وهذه الحركة مزقت الوحدة الدينية في أوربا، كما أنها أدت إلى ظهور مذاهب جديدة أثرت في السياسة الأوربية والدولية، وأدت إلى حروب أهلية ودولية، ولاشك أن الروح المحافظة التي اتسمت بها سياسة الكنيسة المسيحية كانت من الأحوال دوافع حركة الإصلاح الديني في أوربا. وتعد حركة الإصلاح الديني أول مثل تاريخي للدعاية الناجحة بين جموع الشعب باستعمال الكلمة المطبوعة، إذ ظهرت النشرات العامة في أعداد تجاوزات عشرات الألوف في عشرينات وثلاثينات القرن السادس عشر.

✶ **العوامل التي ساعدت على قيام حركة الإصلاح الديني :**

فساد الكنيسة:

كانت الكنيسة تهتم بظواهر الدين دون لبه، فكان الناس يعتنون باقتناء مخلفات القديسين والرسل والحج إلى مدافن القديسين، وتعذيب أجسادهم وبتلاوة الأدعية اللاتينية المغلوطة التي لايفقهون لها معني، ويحرصون على طاعة عمياء، بينما كان أثر هؤلاء يعيشون عيشة البذخ والترف والفساد، فكان البابوات يتحايلون على اصطياد الأموال بكل الوسائل فأصبحت الوظائف الدينية تباع بالمال دون النظر إلى مؤهلات الشخص المشتري لها وتهافت رجال الدين على الحياة الدنيا، وجمع الثروة لهم بوسائل مختلفة فضلاً عن استحواذهم على المناصب الهامة في الدولة وكان البابا وحاشيته يتنعمون في روما تنعماً آثار الشكوك في أحقية خلافاتهم لرسل المسيحية الأول، فلما جاءت النهضة تشجعت الناس على حرية النقد ومضي العهد الذي كان فيه القسيس مطاعاً من غير مناقشة(٧). ناهيك عما سبق؛ أنظر إلى "ليو العاشر" وبلاطه، فقد كان ليو العاشر من عائلة إيطالية عريقة، وصل لمنصب البابا عن طريقها في سن الثامنة والثلاثين، وقد تربي في ثراء فاحش، ولم يستطع تغيير نمط حياته بعد أن أصبح رئيساً للكنيسة، فكانت هوايته المحببة "الصيد" وهو محرم على رجال الكنيسة، كما يمتلك ضيعة خاصة وقصراً منيفاً وعدة حيوانات متوحشة بينها فيل أبيض، كمت كانت حاشيته الشخصية تضم ٦٨٣ شخصاً، وكانت لديه فرقة موسيقية خاصة ومسرح

خاص، باختصار كانت عيشته أقرب لعيشة الملك منها إلى عيشة البابا أن لم تتفوق عليها، وللإبقاء على هذا المستوي من المعيشة اقترض البابا ليو من البنوك بفائدة تصل إلى ٤٠% فقد كان ريع خاص بيوت الدعارة وغيرها لايكفي إنفاقه الضخم، لذا اخترع مناصب جديدة للبيع ليتسني له سداد جزء من مصروفاته. فـ"فسكستوس الرابع" مثلاَ كان لديه ٦٥٠ منصباً للبيع أما "ليو العاشر" فأوصلها إلى ٢١٥٠، وكان يبيعها بالمزاد!! وبالطبع كان هم شاغلي هذه المناصب هو إعادة النفوذ التي أنفقوها على شراء المنصب – إن لم يكن أكثر – وكان ذلك يتم عن طريق النهب وسوء استغلال المنصب والرشوة، مما أدى إلى سلسلة لاتنتهي من الفساد، ورغم سعة يد "ليو" في بيع المناصب، فقد اتهمه بعض الكرادلة بأنه لم يحفظ وعده لهم بمناصب وعدها إياهم أثناء تنصيبه وكان أكثرهم حقداً عليه هو "ألفونسو بتروتشي" الذي قرر مع أربعة كرادلة أخرين قتل البابا بالسم بالاتفاق مع طبيب يدعي إجراء عملية جراحية له، وعندما اكتشفت هذه المؤامرة تم شنق الطبيب وبتروتشي، أما الكردالة الأربعة المتواطئون معه فتم العفو عنهم مقابل مبالغ باهظة جداَ .

وتكشفت في النظام القضائي سلطة الكنيسة في صورة آخرى في أوربا ما قبل الإصلاح الديني، فعبر القرون سنت الكنيسة الكاثوليكية بروما مجموعة قانونية كبري أسمتها بالقانون الكنسي، وفرض هذا القانون على محاكم أوربا، وبلغ ذروته في محاكم الاستئناف البابوية في روما ذاتها، واختصت محاكم الكنيسة بالنظر في المشكلات الزوجية باعتبار الزواج من المقدسات في نظر الكنيسة، بل تعرضت لكثير من المشكلات وأقحم رجال الدين أنفسهم فيها مثل توقيع عقود القروض بإلاكراه في داخل الكنيسة، وكان الأكليروس يملك أعظم نصيب من مساحات الأراضي في أوربا، وباستطاعة قسيس الأبرشية التحكم في الأرض، ومن حق الكنيسة والأديرة فرض إرادتها على قطاعيات كبيرة لدعم أعمال طوائفهم.

لم يكن مارتن لوثر الوحيد الذي وجه نقداً للكنيسة، ففي القرن الثالث شبه الكاردينال "بونا فينتورا" مدينة روما بالعاهرة، وقال أنها كالعاهرة تسكر الملوك والشعوب بخمرها، وأضاف أن روما تفسد الرؤوس الكبري للكنيسة، وهؤلاء يفسدون صغار الكنيسة، وهؤلاء بدورهم يفسدون الشعب، ولا يجب أن ننسي دانتي الذي جعل في كل

درجة من درجات جهنم فئة من رجال الكنيسة ومساؤتهم، وسأل "البابا هادريان الرابع جون" من سالزوبوري عما يقوله الناس عن حقيقة الكنيسة ومساوئهم، فأجابه هذا بصراحة: "أنهم يقولون أنها أقرب لزوجة الأب منها للأم وأن البابا لا يطاق".

وكانت الكنيسة أعطت القدوة السيئة للناس، وأن الناس عندما رأوها بهذا القدر من الفساد كان رأيهم: ولم لأنكون نحن كذلك أيضاً "، كما قرر ميكافللي قاعدة أنه " كلما كان الشعب أكثر قرباً من الكنيسة الرومانية قل دينه وتدينه"، وكتبت الأميرة كاتارينا للبابا جريجوري الحادي عشر "أنني لا أجهد نفسي في البحث عن مقر البلاط البابوي فرائحته النتنة تصلني أينما كنت". وكان بروما أكبر عدد من الأبناء غير الشرعيين، وبلغ خطر رجال الكنيسة أن النساء كن يأخذون خناجر معهن حين يذهبن للاعتراف، وكتب إيراسموس في القرن السادس عشر حديثاً خيالياً من "البابا بوليوس" الذي يحاول عبور بوابة الجنة من خلال "القديس بطرس" الذي لا يتعرف عليه كخليفته بسبب خوذة الحرب التي يرتديها فيبدلها يوليوس بتاج البابوية الذي لا يتعرف عليه بطرس أيضاً وأخيراً يظهر له بوليوس مفاتيحه دلالة أن له مكاناً بالجنة، وبعد أن يفحصها، بطرس يهز رأسه أسفاً قائلاً أنها لا تفتح أياً من أبواب الجنة. وعلق "الكاردينال اليسوعي بيلارمين" على أحوال البابوية بأنها كادت تقضي على المسيحية، وكان مفتاح فساد البابوية الرئيسي هو السلطة، فعندما استشري فساد الكنيسة تم عقد مؤتمر ترنت ١٥٤٥م لإصلاح الكنيسة ولكن كان الأوان قد فات، فبدلاً من أن يحل هذا المؤتمر خلافات الكنيسة، أظهر مدي الإشقاق فيها، واعتبر لذلك مبرزاً لعيوب البابوية في ذلك الحين. والغريب في ذلك الوقت أن لوثر أثر عدم ترك الكنيسة حتى اهتدي إلى فكرة أن مسيحية منقسمة هي بلا شك أفضل من مسيحية يرأسها بابا يعمل ضد تعاليمها، وأن يسترشد بالإنجيل رأساً أفضل من أن يقوده بابا فاسد الذمة، وحتى اليوم يختلف المسيحيون حول جدوي الخطوة التي اتخذها لوثر، وبذلك كان حكم لوثر ودانتي واحداً : "أن مشكلة الكنيسة تكمن في حب باباواتها للسلطلة.

روح الآنتقاد:

ظهرت هذه الروح على أثر حركة إحياء العلوم، وتناولت كل الأنظمة التي اعتادها الإنسان، وفي مقدمتها الأنظمة الدينية، فسلط المفكرون على نظام الكنيسة نور

العقل والمنطق والحكمة، فزاغ الناس في الجنوب ونبذوا الدين ظاهرياً، أما في الشمال فإن الناس لم يكونوا أهل عواطف وشعور، بل هم على الأكثر أهل رزانة وتعقل وتدين، فانكبوا على كتب الفلسفة، وعلى دراسة كتب الديانة الأولي، بلغتها الأصلية العبرية واليونانية واللاتينية، ولما لم يكن لأهل الشمال مدينة قديمة كأهل الجنوب، ولما كان كل ما أخذوه من المدينة جاء عن طريق الكنيسة دفعتهم النهضة إلى الإهتمام بمصدر مدينتهم وهو الكنيسة، فنقبوا عن الأصول الدينية وكتب القديسين الأوائل، وترجموا الإنجيل من اللاتينية إلى الألمانية، ولما وقفوا على حقائق دينهم، وقرنوا ذلك بما وصلت إليه الكنيسة من الانحطاط، ثارت حميمتهم يبغون إصلاحها وظهرت رغبة في خلق نوع آخر من المسيحية أبسط وأكثر روحانية، وقد ساهم نمو الشعور القومي في هذه الفترة في دفع الصراع ضد الكنيسة كمؤسسة عالمية إلى الأمام، وهذا يعني أن حركة الإصلاح الديني قد تزامنت مع مد القومية الصاعدة، عموماً أن الحواجز القديمة قد انهارت وعمت أوربا روح من التنوير والفكر التقدمي الذي كان متوهجاً تحت رماد المعرفة التقليدية[١٢]. وكانت الكنيسة تطلب إلى اتباع تعاليمها دون مناقشة، الأمر الذي أمات فيهم روح البحث والإبتكار، وأعمي إنسان العصور الوسطي من رؤية جمال العالم، فقد كان الجمال في نظره رجساً من عمل الشيطان، ولكن فقد صاحب نمو البرجوازية عملية إحياء العلوم العظيمة من فلك وميكانيكيا وطبيعة وتشرح وغير ذلك من العلوم التي كانت في العصر الإقطاعي الخادم المطيع للكنيسة، لذا خرجت البرجوازية للنضال ضد دعاوى الكنيسة وضد الإقطاع. أوجدت روح النقد جماعة لا ترضي عن الحال التي وصلت إليها الكنيسة، وأدرات الرجوع إلى الحياة المسيحية الخالصة، مسيحية القرون الأولي، أي العودة إلى حياة البساطة عندما كانت الكنيسة تعل بالدين والعقيدة، دون أن تدنسها الأطماع الدنيوية واعتماد الكتاب المقدس وحده كمصدر أساسي للعقيدة بعد أن رأت هذه الجماعة ما وصل إليه الكنيسة من تردي[١٤].

تشجيع الأمراء:

ما ساعد على نجاح حركة الإصلاح الديني، رغبته الأمراء في التخلص من تدخل الكنيسة والبابا، فقد كان لهما الحق في تعيين الرؤساء الدينيين، والتدخل مباشرة في الأحوال الشخصية، وجباية الأعشار من الممالك المختلفة[١٥] وكانت أراضي

الكنيسة في جميع أنحاء أوربا معفاة من دفع الضرائب، وكانت إيرادتها ترسل إلى البابوية طرفاً فيها، إلى هذا الجانب أو ذاك، على الملوك والأمراء خاصة من دخلت البابوية في محالفات سياسية ضدهم إلى محاولة السيطرة على هذه الأراضي والسيطرة على إيراداتها، خاصة وأن اتساع هذه الممتلكات العقارية التابعة للبابوية وجودتها وثرائها، كان يسيل لعاب الملوك والأمراء الأوربيين، وكانت حياة البابوات قد تحولت إلى حياة أمراء، وأصبح للبعض منهم أبناء غير شرعيين، وأصبح لآخرين محظيات، وبشكل يضيف من هيبة الكرسي البابوي. وقد كانت وطأة تدخل الكنيسة أشد ما يكون في ألمانيا، لعدم وجود حكومة مركزية قوية تقاوم النفوذ الأجنبى، كما كان الشأن في انجلترا وفرنسا، فلا عجب إذا دفع أمراء ألمانيا بأنفسهم في تيار الإصلاح ومعاضدة لوثر، حتى يستكملوا استقلالهم، ويمد سلطانهم على رجال الدين، وعلى كافة الأراضي الداخلة في نطاق حكمهم بالإضافة إلى سيطرتهم على الأموال العامة.

صكوك الغفران:

أما السبب المباشر الذي ستعد حركة الإصلاح الديني فيرجع إلى بيع الكنيسة صكوك، والغفران كما عرفه "توماس أكويناس"–وهو من كبار مفكري الكنيسة في العصور الوسطي–، يقوم أساساً على قواعد ثلاث وهى: الندم والإعتراف والتفكير وهو الذي يكون بالصلاة والصوم والزكاة معني ذلك أن الغفران لا يتم إلا إذا مر بالمراحل الثلاثة السابقة، وكان الغفران عبارة عن صك من الورق، يبذل فيه الوعد للمذنب – لقاء قدر من المال– بانقاص المدة التي سوف يمكثها في "المطهر"، وكانت العقيدة قد أصابها الكثير من الجمود ولم يحاول البابوات تنقيتها من الشوائب، ورفع المستوي الفكري والديني لرجل الكنيسة، واحتاج البابوات إلى مزيد من الثروات، للمحافظة على بلاطهم وفخامته، وكذلك لبناء الكنائس الجديدة، ومنها كنيسة القديس بولس في روما، فأخذوا في اصدار صكوك الغفران، وكان توزيع هذه الصكوك عن طريق المصارف في جميع أنحاء أوربا أمراً مثيراً للنقد، كما كان توزيعها على الأهالي باسم غفران كل الذنوب، وحتى أكبر الكبائر يثير النفوس المؤمنة، ويحتم ضرورة الإصلاح.

ناهيك عن ذلك فإن البابوات صاروا يستعيضون عن التكفير (وهو الصلاة والصوم والزكاة) بعمل آخر، كالإشتراك في الحروب الصليبية، أو الحج إلى روما عند

أول كل مائة سنة جديدة، فيمنح البابا الغفران الكامل للمحارب أو الحاج إلى روما، دون حاجة إلى استيفاء الركنين الأولين للغفران، وهما الندم والإعتراف، ثم صار الغفران يمنح إلى كل فرد يجهز محارباً من الصليبيين، ثم أخذت صكوك الغفران تصدر لأغراض أخرى متنوعة، كإنشاء الطرق وإقامة الجسور. وأصل صكوك الغفران أن المذنب إذا ندم على خطيته وتاب منها اعترف بذنبه، وغفره له القسيس، ثم مات لم يحل بينه وبين دخول الجنة إلا البقاء في "المطهر" ريثما يزول ما بقي عالقا به من أدران الذنب، وقد جرت الكنيسة على أن عذاب التطهير يمكن تخفيفه بالحج إلى كنائس معينة في روما والصلاة فيها وتوسعت فاستعاضت عن الحج بشراء صكوك الغفران، ولم تفهم العامة أن الصكوك مقصورة على تخفيف عذاب المذنبين، فكان كل يشتري هذه الصكوك بحسب مقدرته، وكانت أحياناً تعطي مجاناً للفقراء وأقبل الأفراد على شراء صكوك الغفران كل حسب قدرته المالية، ووجدت البابوية في عملية بيع صكوك الغفران عملية مربحة، ومورداً ضخماً، فتوسعت في عمليات توزيعها، ثم أخذ الناس يشترون هذه الصكوك، لتخفيف عذاب موتاهم، ولغفران ماتقدم من ذنوبهم وما تأخر، دون ندم وتوبة واعتراف، وشجعتهم الكنيسة على ذلك لما يعود عليها من الأرباح الطائلة، خصوصاً وأن البابا "ليو العاشر" كان قبيل ظهور "لوثر" في حاجة إلى المال لإتمام بناء كنيسة الرسول بطرس الشهيرة بروما، فكثر انتقاء المفكرين لتصرفات الكنيسة وبدأ طلب الإصلاح.

كانت ألمانيا من أكثر البلاد معاناة من مساوئ الكنيسة، فعلى سبيل المثال كانت أملاك الكنيسة كبيرة في جميع البلاد المسيحية، لكن في ألمانيا وصلت أملاك الكنيسة إلى نصف الممتلكات الألمانية جميعاً، وكانت الشرارة البادئة لمشاكل ألمانيا هي رغبة الأمير ألبرت في الاحتفاظ بكنيستي ماجدة بورج وهالبرج اشتاد– اللتين كان يرأسهما بالفعل – بجانب أطماعه الجديدة في كنيسة ماينس(وكانت كنيسة ألمانية رئيسية) وهو ما كان يخالف قوانين الكنيسة، وكان ألبرت على استعداد بدفع ثمن هذا المنصب، وكان "البابا ليو" في حاجة للمال لتجديد كنيسة القديس بطرس، ولأن ألبرت لم يكن يملك السيولة الكافية لدفع المقابل نقداً فإن "البابا ليو" سمح له بقرض كبير بسعر فائدة عال فوق العادة، وكانت المشكلة هي كيف يرد الأمير ألبرت هذا الدين؟،

لقد سمح "البابا ليون" للأمير ببيع صكوك الغفران لمدة ثماني سنوات، بحيث يعود نصف عائدها للبنوك والنصف الآخر للبابا لأًصلاح كنيسة القديس بطرس، وتم تعيين القس تتسل في مهمة التسويق لتلك الصكوك، وكان ممكًنا لتتسل أن يستمر في هذه المهمة لولا ظهور مارتن لوثر الذي لم يعجبه هذه الأحوال.

ظهور بعض المصلحين الدينيين؛

مارتن لوثر "Martn Luther":

ولد مارتن لوثر في عام ١٤٨٣م بإحدى قرى إمارة سكسونيا التابعة لألمانيا من أبوين فقيرين، ولكنه أتم تعليمه الجامعي، ثم دخل ديراً تابعاً لطائفة القديس أوغسطين سنة ١٥٠٥م، وأتيحت له في سنة ١٥١١م فرصة زيارة روما، ولكنه صدم لما راَه فيها من حياة التبذل وانهيار القيم الأخلاقية، وابتعاد حياة رجال الدين عن تعاليم المسيحية وشغل يعد عودته لبلاده منصب أستاذ اللاهوت في جامعة وتنبرج سنة ١٥١٢م، ونجح في التدريس والوعظ. صُدِم مارتن لوثر حين جاء أحد الرهبان إلى المدينة فى عام ١٥١٧م ليبيع صكوك الغفران وكان جاهلاً ، وأدعي أنها كافية لتخليص من يشتريها من كل ما ارتكب من اَثام وخطايا، وحتى أكبر الكبائر، ولما كان الغفران لا يتم إلا بناء على توبة واعتراف وتكفير، بالإشتراك في الحروب الصليبية وفي الحج إلى روما وزيارة قبور القديسين، ثم نسي بعض رجال الكنيسة التوبة والإعتراف، وأصبح التكفير يعني شراء صكوك الغفران وكان الغفران منحة إلهية، ونسي البابوات ذلك وأصبحوا يضمنونه لمن يشتري الصكوك، فثارت نفس مارتن لوثر، وانتهز فرصة اجتماع أهالي "وتنبرج" بمناسبة عيد الشهداء، وبمناسبة تدشين "كنيسة الأمير ألبرت" وعلق على بابها احتجاجاً على بيع صكوك الغفران يشتمل على خمسة وتسعين فقرة، هاجم فيها الكنيسة الكاثوليكية، ونظرتها إلى الغفران، وهاجم فيه سلطان الكنيسة وتعاليمها، واصر على ضرورة اتخاذ الكتاب المقدس وحده دستور لتفسير أي موضوع يختلف عليه في العقيدة، أي أن لوثر هاجم الغفران بقواعده الثلاثة التي أشرنا إليها، ثم أخذ يبسط عقيدته في التبرير بالإيمان، وهي أن الغفران مربوط فقط برحمة الله. وتتلخص الحجج التي تضمنها احتجاجاته عام ١٥١٧ في الآتي: (أن الغفران لايعدو لأن يكون الاعتاق من العقوبات الكنيسة وليس الاعتاق مما فرضه الله. أن صك الغفران لايمكن

أن يمحو ذنباً، لأن البابا لا يستطيع ذلك. أن صك الغفران لايمكن أن يخلص الإنسان من العقوبة، وإنما الله وحده الذي يحتفظ بهذا الحق بين يديه. أن صك الغفران لا يمكن أن يفعل شيئاً للروح في "المطهر" حيث أنه لا يسري إلا على ما توقعه الكنيسة من عقوبة، وهي عقوبة متعلقة بالحياء، وتسقط بالموت، وكل ما يستطيع أن يفعله البابا للروح في المطهر هو الصلاة فقط.أن طريق المغفرة والصفح من الله، هو التوبة الصادقة وحدها).

لم يمض أسبوعان على هذا الحادث حتى كانت قد ذاعت أنباء هذه الحجج وترجمت من اللاتينية إلى الألمانية، ولم يمض شهران حتى كانت أوربا بأسرها تناقش هذه الحجج التي وضعها الراهب السكسوني، على أن لوثر مضي خطوة أخرى، ففي مناقشة مع "يوحنا تتزل" ومع غيره من علماء اللاهوت واقدرهم" يوحنا ايك أستاذ اللاهوت بجامعة "أنجولشتات فقد لوثر نظام الكنيسة وسلطتها العليا، بل وتعاليمها كما وجه في سنة ١٥١٩م الدعوة إلى الأمراء وإلى الفرسان في ألمانيا لتزعم الإصلاح على الأسس الآتية:-(خضوع رجال الدين للسلطة المدنية. ليس من حق البابا وحده أن يحتكر تفسير الكتاب المقدس. ضرورة انقاص عدد الأديرة. عدم الحج إلى روما. ضرورة زواج القسس. الطلاق أمر شرعي (أباحة الطلاق بين المسيحين).

أدت هذه المناظرة إلى إعلان لوثر أن صكوك الغفران والبابوية كلها بدع مستحدثة، ولم تكن معروفة أيام الرسل الأولين، فلما علم البابا بذلك، لم يسعه إلا اصدار قرار البابا علناً ، فطلب البابا إلى الإمبراطور شارل الخامس تنفيذ قرار الحرمان ضد لوثر، فدعاه شارل إلى الحضور أمام المجمع الألماني، وطلب إليه أن يرجع عن زيغه، فأبي إلا أن يقتنعوه بحجج من الكتاب المقدس، فحكم عليه بالطرد خارج القانون، واهدار دمه، وحرمت قراءة كتاباته، فحكم عليه بالطرد خارج القانون واهدار دمه، وحرمت قراءة كتاباته، ولكن سلطة المجمع كانت ضيقة، وكان كل أمير حراً في تنفيذ قرارات المجمع وإهمالها، ومن أجل هذا كان المهم رأي سكسونيا، الذي يعد لوثر من رعاياه. بينما كان لوثر مهدداً بالقبض عليه في أية لحظة، حمله أصحابه إلى أحد حصون سكسونيا، في حماية أميرها، وفي مختبأ به عامين، وترجم في اثنائها الإنجيل من الإغريقية إلى اللغة الألمانية، فكان ذلك أول كتاب قيم طبع بهذه اللغة، ففتح لها

عهدا من جيداً، ومن ذلك الوقت سهل على الشعب أن يطلع على الكتابات الدينية بنفسه، وكثر أنصار لوثر فأن كل طبقة كانت تري مصلحتها في الإنضمام إليه، فكان الفلاحون يريدون التخلص من بقية قيود الإقطاع، والفرسان يريدون توسيع نفوذهم، والأمراء يرغبون في الاستيلاء على أملاك الكنيسة، ومهاجمة الأراضي التابعة لها سنة ١٥٢٣م، واستولوا على أراضيها وقسموا بعضها على صغار الفلاحين ولأخيراً فإن "جامعة وتنبرج" منحت مارتن لوثر منبراً يشرح فيه فكرة عقيدته، وبشكل ساعد على انتشار هذا الإتجاه الجديد(٢٩). لم يلبث لوثر أن كتب البابا رسالة بعنوان "فيما يمس الحرية المسيحية" قال له فيها "أنك لا تستطيع أن تنكر أن ما يسمى بهيئة الكهنوت الرومانية هي أفسد من بابل وسدوم، ولقد أظهرت احتقاري حقاً وانتابني الغضب لأن الشعب المسيحي يخدع ستار اسمك واسم الكنيسة المسيحية، لهذا قاومت وسأظل أقاوم ما وُجِدَ في عرق ينبض بروح الإيمان.

ولقد عُرِفَ أنصار المذهب الجديد بـ "البروتستانت" "Protestants" أي المحتجين أو المعترضين، فانقسمت أوربا إلى معسكرين أحدهما يذود عن الكاثوليكية، والآخر يدعو إلى البروتستانتية التي سرت في جميع أجزاء أوربا الشمالية سريان النار في الهشيم، فعفا المذهب القديم منها، واعتنق الكثير من البروتستانتية وبدأ عهد الصراع والحروب اللاتينية في أوربا وواصلت مؤلفات مارتن لوثر الناضجة في نظريات الكنيسة التشديد على اعتماد الكنيسة على كلمات الأسفار المقدسة، والقول بأن تعريف الكنيسة مستمد من هذا المفهوم والمعني؛ أي أن موضع الكنيسة الحقة لا ينبغي تحديده على أي نحو في مدينة بالذات، لأن الكنيسة الحقة بمقدورها أن توجد حيثما تتردد كلمة الكتاب المقدس بصدق وتتغذي بها الكنيسة. ولقد ارتبط بحركة مارتن لوثر ثلاث حركات أخرى، مرتبطة بالفكر والعقيدة وبالسلطة وبالمصلحة، حتى المادية، وكانت كالآتي:-

١-حركة المطالبون بإعادة التعميد:

ظهر هذه الحركة في "ترفيكاوسكسونيا" سنة ١٥٢١م على يد جماعة متطرفة من أنصار مارتن لوثر، على رأسهم "توماس مونزر رأت أن تعميد الأطفال (تغطسيهم ثلاث مرات في الماء على اسم الثالوث المقدس: الأب والابن والروح القدس) من أجل

صلاحهم، لا يتفق مع تعاليم الإنجيل، حيث يجب أن تتوافر في المعمودية أركان الحياة الدينية الصحيحة من توبة وندم وإيمان، وهو ما لا يتوافر في الأطفال، ومن ثم فإن سر المعمودية لا يسمح إلا للبالغين الراشدين الذين اعتنقوا المسيحية فقط، على أنه عندما تطرف هؤلاء في دعوتهم، وقعت إضطرابات وإعتداءت جعلت لوثر يشعر بأن دعوة الإصلاح الديني في خطر، فخرج من مخبئه ليدعو المتطرفين لإلتزام الهدوء والحكمة.

٢- حركة الفرسان "Knights":

كان الفرسان قد فقدوا الكثير من امتيازاتهم، فوجدوا في حركة لوثر فرصة لاسترداد نفوذهم وتوسيع ممتلكاتهم، فهاجموا الكنائس وحطموا ما فيها من تماثيل، واستولوا على أملاكها وارضيها ولكن الأمراء قاموا بضربهم، والقضاء على حركتهم، حتى يبقوا هذه الممتلكات في أيدي الكنيسة إن كان الأمراء من الكاثوليك، أو للإستيلاء هم بأنفسه مولأنفسهم عليها إن كانوا من أنصار لوثر، وأدى ذلك إلى ضعف الفرسان وتزايد قوة الأمراء على أن لوثر امتنع عن تأييدهم، كما تحالف مع الأمراء ضدهم، وفي نفس الوقت لم تجتذب حركتهم تأييد الفلاحين الذين كرهوا منهم الإرهاق الذي الحقوا بهم، وعلى هذا فحين قامت هذه الحركة في سوابيا وفرانكونيا بقيادة "فرانزوفون سيكينجن وصديقه "اَلريك فون هتن" وأخذوا في مهاجمة رجال الكنيسة رؤساء الأساقفة لانتزاع أراضي الكنيسة، وواجهم الأمراء بالقوة المسلحة، وقبل "فون سيكنجن"، وهرب "فون هتن" إلى سويسرا سنة ١٥٢٣م حيث مات بها فقيراً .

٣- ثورة الفلاحين "Peasants War"

كانت أعنف الحركات، وانتشرت في جميع أنحاء ألمانيا، فقد قامت في التيرول وادستريا وفرانكونيا وسوابيا، وهي عبارة عن سلسلة من الثورات التي قام بها الفلاحون فيما بين سنتي ١٥٢٤م و١٥٢٥م، وكان قد سبقها ثورات أخرى قبل ظهور الحركة اللوثرية ولقد ربط الفلاحون بين الاتجاه الفكري والعقائدي لحركة لوثر، وبين ظروفهم السياسية والاجتماعية والاقتصادية، ومع حركة إعادة التعميد، فقاموا بثورات موجهة ضد السلطة للتحرر وللمعيشة في إخاء يقوم على أساس المساواة، وكان الفلاحون يعيشون في ضنك، فأصدر الفلاحون بياناً يحافظون على امتيازاتهم ويستغل الفلاحين، ثم أصدروا بياناً آخرافى عام ١٥٢٥م لإلغاء رقيق الأرض، وتحديد إيجار الأراضي،

وتحديد الأعباء التي يؤدونها للسيد الإقطاعي، وحق كل جماعة في اختيار وتعيين القسس في الكنائس، والإشراف على التعليم، وقصر ضريبة العشور على الحبوب فقط، وتقرير حق صيد الأسماك في الأنهار والقنوات التي يعملون في فلاحتها، وحق صيد الحيوانات في الغابات، كمت طلب الفلاحون بأن تنظر مطالبهم في ضوء الكتاب المقدس، مطالبين بإبراز الدليل من الإنجيل على أنهم أرقاء ، وقالوا "لن نكون بعد اليوم عبيدا؛ لأن المسيح جعلنا احراراً ".

ولم تلبث هذه الحركة أن اتخذت طابعاً شيوعياً على يد "توماس مونزر" حاكم "تزفياكو" وزعيم الآنابابتيين والذي نصب نفسه زعيماً للفلاحين منذ أقام في مدينة مولهاوسن بألمانيا مجتمعا شيوعياً يقوم على إلغاء الملكية الفردية، والمساواة المطلقة بين الأفراد وشيوعة الملك، ودعا إلى إقامة مجتمع مسيحي جديد على أساس المساواة المطلقة وشيوعية الملكية، وهو ما يقتضي التخلص من الأمراء ورجال الدين على بكرة أبيهم. ولقد وقف لوثر ضد هذه الحركات الثلاث؛ فوصف الفلاحون بأنهم مخربون وسافكي دماء، وطلب إلى الأمراء ضرب حركتهم بكل عنف، وكان لوثر يرغب بذلك في أن تكون حركة الإصلاح دينية مجردة، دون أي ارتباط أو تعرض للظروف الاجتماعية والاقتصادية، ولكنه أسلم زمام الأمر بهذه الطريق في ألمانيا للأمراء وبشكل يدعم سلطتهم في إمارتهم، ويزيد مكاسبهم على حساب السلطة والممتلكات العقارية للكنيسة، وظلت ألمانيا منقسمة على نفسها إلى دول وإمارات، بعضها مع البابا وبخاصة في الجنوب، وبعضها مع المذهب الجديد مذهب لوثر وخاصة في الشمال.

- **أولريخ زونجل "Ulich Zwingli"**

سويسري الأصل قاد أول دعوة للإصلاح الديني خارج ألمانيا، وبدأها في زيورخ ١٥١٨م، دون أن يتأثر بتعاليم لوثر في ذلك الوقت؛ فقد هاجم صكوك الغفران، كما هاجم استخدام البابا لرجال سويسرا في حروبه، ودعا إلى زواج القسس، والاعتماد على الإنجيل دون تعاليم الكنيسة، وخالف لوثر في تفسير العقائد، وفيما يجب أن يكون عليه نظام الحكم في الكنيسة، وذهب إلى أن القربان حفلة تذكارية لا غير، ورأي أن يعهد بإدارة الكنيسة إلى يد السطات التي تتولي شئون الدولة، كما فعل لوثر، ولكنه رأي أن هذه السلطات هي السلطات الجمهورية الثورية، ولذا فإنه كان يسود الكنيسة

السويسرية النظام التام رغم خضوعها للسلطة الزمنية وعرض زونجل سبعة وستين بنداً يدافع عنها وتلخص عقيدته، ولهذا فأن زونجل اعتبر الكنيسة مؤسسة ديمقراطية لكل المسيحين الذين يشتركون بواسطة هيئة معينة منهم في الفصل في كل المسائل المتعلقة بالكنيسة والتعيين في الوظائف الكنسية وغيرها، على حين اعتبر لوثر أن أمير البلاد هو دائماً الرئيس الأعلى للكنيسة، وقد قتل زونجل في الحرب التي دارت بين الكاثوليك والبروتستانت في ١١ أكتوبر ١٥٣١م وقد أثر ذلك على الحركة اللوثرية، التي لم تنتشر في سويسرا، ولكن الصلح عقد بينهما في نفس السنة التي حدثت فيها المعركة والتي قتل فيها زونجل "معركة بابل" على أساس تعهد المقاطعات البروتستانتية بترك المقطعات الكاثوليكية تعيش في سلام، وحق المقاطعات البروتستانتية في الاحتفاظ بمذهبها الجديد(٤٤)، وأصبح من حق الولايات حرية اختيار المذهب الذي تتبعه(٤٥).

✶ **جون كلفن "Jean Calvin":**

انتقلت حركة الإصلاح الديني إلى فرنسا على يد "كلفن" الذي ولد في فرنسا ودرس القانون بها، وفي عام ١٥٣٤م خرج عن مذهب الكنيسة واتبع مذهب لوثر، واضطر إلى مغادرة فرنسا، لأن ملكها فرانسوا الأول أخذ يضطهد البروتستانت، وبعد قليل أقام في جنيف بسويسرا، ومنها أخذ اسمه وشهرته ينتشران في كل أوربا، وسُمِّيَ اتباعه في فرنسا "الهيجونوت". كان نظام كنيسة كلفن يقضي بادماج السلطة الدينية في السلطة المدنية، وإشراك غير القساوسة معهم في إدارة شئون الكنيسة، وتخويل الشعب حق اختيار القائمين بها فكان هذا النظام ديمقراطياً من هذه الوجهه فأصبحت جنيف كعبة يؤمها طلاب الإصلاح والمضطهدون من الممالك المختلفة، لاسيما فرنسا واسكتلندا وإنجلترا والأراضي المنخفضة وألمانيا، فلما عاد هؤلاء إلى بلادهم عملوا على نشر مذهب كلفن، ونجحوا في ذلك على الرغم من أنصار الكاثوليكية الذين استماتوا في القضاء على المذهب الجديد، ولكنهم لم يفلحوا(٤٦)، وقد أدى ذلك إلى انقسام أوربا إلى قسمين "بروتستانت وكاثوليك" كانت سبباً في حدوث كثير من الاضطهادات والحروب والثورات في كثير من دول أوربا(٤٧).

ولقد اتفق مذهب كلفن مع اللوثريين في ضرورة الاعتماد على الكتاب المقدس وحده، ولكنه اختلف مع اللوثريين في ضرورة إجبار الآخرين على اعتناق مذهبه، كما

أن كلفن اختلف مع زونجل في مسألة اتحاد الدولة والكنيسة، ورأي أن الكنيسة محتاجة إلى إدارة خاصة بها، تختلف عن الإدارة العثمانية للدولة، ولها ميدان روحي، ولا يجوز لأحد الطرفين أن يتدخل في ميدان الآخر، وكان كلفن يفضل الحكومة الإرستقراطية، ويري ضرورة طاعنة المسيحين لها، مادامت تحافظ على تعاليم الله، وقد نجح كلفن في أن يجعل من جنيف مركزا لمذهب الإصلاح، وزاد اشعاع جنيف بإنشاء جامعتها سنة ١٥٥٩م، وأصبحت هذه المدينة مركز تعليم وتكوين الرعاة البروتستانت أو الهيجونوت، مما أثر في تاريخ الإصلاح الديني وتاريخ أوربا في العصر الحديث.

وفي إنجلترا بدأ هنري الثامن حكمه لها سنة ١٥٠٩م وكان عمره ٢٨ سنة، وتزوج "كاترين الإرجوانية" –ابنة فرديناند وإيزابيلا–، وكان مسيحياً كاثوليكياً ، أعطاه البابا سنة ١٥٢١م لقب حامي العقيدة، نتيجة لكتابته بحثاً رد فيه على لوثر، وكذلك ساند البابا، وكان الإنجليزي العادى لا يحي رجال الدين ويحقد على ما يتمتع به رجال الدين من امتيازات وأملاك، وكان الإنجليزي غير راضي عن كثرة الضرائب الباهظة وغير موافق على الحرب مع الأراضي المنخفضة. لما كانت "كاترين" قد أنجبت الأميرة "ماري تيوور" لهنري الثامن ولم تنجب له ولداً ، ولذلك فإنه كان يرغب في التزوج من "آن بولين" منذ عام ١٥٢٧م والتي كان قد أغرم بها، وكان البابا ضعيفاً، وتسيطر عليه إسبانيا، ولما لم يستطع هنري الحصول من كنيسة روما على طلاق كاترين والزواج من آن، دعا البرلمان سنة ١٥٢٩م لمساندته في نضاله ضد الكرسي البابوي، وجعلهم يصدرون القوانين الخاصة باستقلال الكنيسة الإنجليزية عن روما، وعمل على تجريد رجال الدين من ممتلكاتهم حيث كانوا يأتمرون بأوامر الدينا، وتوزيع أراضيهم على الملاك والنبلاء، الذين أصبحوا أكثر الطبقات إستفادة من الإصلاح البروتستانتي في إنجلترا، وفي سنة ١٥٣٤م صدر قانون السيادة وهو الذي جعل الملك هو الرئيس الأعلى للكنيسة وظلت مسألة العقيدة والطقوس الدينية في حاجة إلى حل، ولكي يكن الفقه الديني للكنيسة إنجليزياً لا ألمانياً وضع سنة ١٥٣٦م أول مجموعة للطقوس الدينية لكنيسة إنجلترا.

الفصل الخامس

الإصلاح الديني الّضاد

لم يكن الإصلاح الديني في الواقع شيئاً جديداً بالنسبة للكنيسة الكاثوليكية، فهي قد عرفت أثناء القرون الوسطي دعوات كثيرة مماثلة انتهى بعضها باستحداث أًصلاحات داخل الكنيسة تمت بمبادرات داخلية، ولكن الظاهرة الجديدة في الإصلاح الديني الذي حدث في بداية العصور الوسطى تكمن في أنه تم من خارج الكنيسة وبدون موافقتها وأدى إلى نتائج أهمها إنقسام أوربا الغربية دينياً "كاثوليكية وبروتسانتية"، وبذلك تحطمت الوحدة الروحية للمسيحية التي أثرت عليها الثورة البروتستانتية تأثيراً حاسماً . لم يكن الهدف من هذا الإصلاح هو إدخال تغيرات أساسية في العقيدة الكاثوليكية، وإنما المراد به تطهير الكنيسة، مما شابها من الفساد في نظامها وسلوك رجالها وقد بدأت هذه الحركة من داخل الكنيسة حوالي منتصف القرن السادس عشر حين اعتلي "بولس" كرسي البابوية (١٥٥٥-١٥٥٩)م، فرأي ضرورة البدء في التحسن ونبذ طريقة البابوات الذين سبقوه حتى يمكن انتزاع قوة البروتستانتية التي داهم خطرها الكنيسة من الداخل والخارج وكانت أولي وسائله في ذلك لتعزيز الكنيسة الكاثوليكية محاكم التفتيش.

١-محاكم التفتيش "Inquisition" :

اعتمدت الكنيسة الكاثوليكية على محاكم التفتيش وذلك من أجل تعقب الخارجين على المذهب الكاثوليكي والتنكيل بهم إرهاباً لهم ولغيرهم ولإجبارهم على البقاء داخل حظيرة الكاثوليكية، وكان هذا النوع من المحاكم الدينية موجوداً منذ العصور الوسطي واستخدمتها الكنيسة ضد حركات الهرطقة، وأي فكر قد يظهر ولكنها ظهرت بشكل جديد وبسلطات واسعة حين طالبت إسبانيا إلى البابا في ١٤٧٧م إنشائها في بلادها لمحاكمة المسلمين واليهود هناك وفي ١٤٩٧م خرجت محكمة التفتيش الإسبانية من سيطرة روما المباشرة وأصبحت تحت سيطرة ملوك إسبانيا الكاثوليك وأثبتت فعاليتها في الإرهاب حتى أن كنيسة روما فكرت في إنشاء محكمة مماثلة في مدينة روما، وهكذا أصدر"البابا بول الثالث" ١٥٤٢م مرسوماً بإنشاء محكمة مقدسة للكنيسة العالمية منه ستة كرادلة ثم زيد عدد اعضائها إلى اثني عشر وأشرفت على إرسال المفتشين الكاثوليك إلى كل مكان.

كان يتعين فهم محاكم التفتيش البابوية من وجهه النظر الوسيطة المعاصرة التي لم تعرف أي حرية للتعبير أو الفكر في المسائل التي تمس جوهر الإيمان، ومن ثم فإن أي انحراف عن الإيمان كما حدده البابا، لم يعتبر فقط ضد السلطان القائم الذي رغم تفرده باحتكار جميع المسائل المتصلة بالأسس الدينية للمجتمع، ولم تقتصر البابوية اهتمامها على التعبير عن مثل هذه المزاعم الإحتكارية في إنشاء محاكم التفتيش، بل عملت البابوية على التدخل والسيطرة على منجزات أعظم عقول فلسفية ولاهوتيه في أوربا. وبالتالي فإن ظهور محاكم التفتيش التي تعتبر الوسائل السلبية التي لجأت إليها الكنيسة الكاثوليكية في روما في تنفيذ الحركة الإصلاحية وقد استخدمت هذه المحاكم لوقف انتشار البروتستانتية خاصة في إيطإليا وإسبانيا ومارست أعمالها بقسوة وسارت تصدر الأحكام الجماعية باحراق المتهمين أحياًء، إضافة إلى التعذيب والسجن ومصادرة الممتلكات، فقد انتزع فرديناند وإيزابيلا من النبلاء الإسبانين حقوقهم ومن المدن الإسبانية استقلالها، واقتصرت حقوق المجالس الشعبية "الكورينز" على تحديد أسباب الشكاوي، ومن دون الخوض في تفاصيلها أو العمل على إزالتها، والجدير بالذكر أن إيزابيلا هي التي وأوفدت كولمبس، وأنجبت أربع بنات، هن "ماري وإليزابيث وجون وكاترين" وابن توفي صغيراً، وكانت لشدة تدينها ترتدي أسفل ملابسها الملكية ملابس خشنة من الصوف وتقوم بزيارة الأديرة والكنائس وأعادت بناء الكثير منها.

كانت إيزابيلا تعاقب الرهبان الخارجين على تعاليم الدين بقسوة وتجبرهم على التعبد والصلاة، والبعد عن مباهج الحياة، كما كانت تصطحب بناتها وتُلبِسهن الملابس الخشنة السوداء التي كانت تغطي أجسادهن الصغيرة من الرأس إلى أصابع أقدامهن، ولقد لقنتهن مبادئ القراءة والكتابة اللاتينية وطرق العزف والرقص على التامبورين والجيتار وغيرهما، وقد تزوجت إليزابيث من ملك البرتغال وعندما توفيت عوضاه عنها بماري وقد أدى هذا الزواج إلى تحالف البرتغال مع إسبانيا ضد المسلمين واليهود فاضطهدوا وطردوا من البرتغال على ماسبق أن اضطهدو وطردوا من إسبانيا. وقد استطاعت محاكم التفتيش أن توقف توسع البروتستانتية في إيطاليا وإسبانيا وأثارت الرعب في نفوس بروتستانت ألمانيا وشمال أوروبا مما جعلهم أشد مقاومة لعودة الكاثوليكية أما في الأراضي فثاروا عليه وظلوا يحاربونه حتى ظفروا بإلاستقلال.

٢-اليسوعيون (الجزويت) Jasuis:

يعتبر "اجناتيوس ليولا" هو مؤسس جماعة اليسوعيين الذي سيكون لها دوراً كبيراً في المحافظة على الكاثوليكية وتدعيمها وجمع حوله عدد من الزملاء وقرروا جميعاً أن "يحاربوا من أجل المسيح" كان ليولا من أًصل إسباني ومن النبلاء وعاش في بلاط فرديناند وإيزابيلا ثم التحق بجيش شارك الخامس، وحارب ضد قوات فرانسوا الأول، وأصابه جرح أجبره على أن يترك حياة الجندية فاتجه إلى الدين، ودرس حياة الفرنسيين، ودرس اللاهوت حتى حصل على درجة الدكتوراه من باريس عام ١٥٣٤م وكونوا رابطة بينهم، وعزموا على السفر والمعيشة في بيت المقدس لنشر الدين المسيحي في بلاد الشرق الإسلامي، وأنشأوا حزباً باسم "حزب المسيح" جعل قوامه النظام والطاعة والغيرة على المبدأ والدفاع على البابوية وسلطتها، وكانت الوسائل التي اعتمد عليها تخلص في الدعوة بالكفاية والخطابة والتعليم وليست المعتقدات الدينية الكاثوليكية المقررة،وقد نجح الجزويت في عملهم نجاحاً كبيراً وساعدوا على رد تيار البروتستانتية في كثير البلاد غير أن تجردهم من أي فكرة وطنية وانصرافهم إلى غرض ديني هو خدمة الكنيسة والبابوية وضعهم موضع الشك إزاء الحوكومات الكاثوليكية فتعصروا لنقمتها وسخطها، وانتشر اليسوعيون ودعائهم في ألمانيا والنمسا وإسبانيا وفرنسا، وفي كل مكان في أوربا وساهم اليسوعيون في خدمة الكاثوليكية وأصبحوا شبه تنظيم عسكري. ويرجع الفضل إلى اليسوعيين في إصابة المذاهب البروتستانتيتة بكنيسة في فرنسا وألمانيا وفي هز مركز البروتستانت لفترة من الزمن في انجلترا واسكتلندا، وكذلك في استئصال البروتستانتية من إيطاليا وإسبانيا، أما بولندا فقد نجحوا نجاحاًفائقاً وعلى حساب المذهب الأرثوذكسي ودعموا هناك المذهب الكاثوليكي، حتى أصبحت بولندا إقليمياً كاثوليكياً بين ألمانيا البروتستانتية في الغرب، وروسيا الأرثوذكسية في الشرق ولم تقتصر جهودهم على أوربا فحسب، لقد عملوا على نشر الكاثوليكية فيما وراء البحار وفي العالم الجديد والشرق الأقصي.

٣- مجلس ترنت "Trent":

وهو مجلس كنسي اجتمع بأمر الإمبراطور لإيجاد قاعدة التفاهم والوفاق مع اللوثرين، وظل المجلس ينعقد تارة ويتأجل أخرى، حتى بلغت جلساته خمس وعشرين

جلسة كان آخرها في ديسمبر ١٥٦٣م، ولقد انقسمت قراراته التي أصدرها أثناء الفترة (١٥٤٥-١٥٦٣)م إلى قسمين؛ أحدهما: متعلق بنظام الكنيسة؛ حيث تقرر استعمال اللغة اللاتينية في الصلاة، وحرم زواج القساوسة، ومنع أن يجتمع عدد من الأسقفيات في يد شخص واحد، وحدد سن من يشغل منصب الأسقف بما لا يقل عن ثلاثين سنة، كذلك حرم تداول الكتب البروتستانتية في الممالك الكاثوليكية، وفتح المدارس لتعليم رجال لدين واجباتهم وتثقيفهم ورفع مستواهم الديني والخلقي والفكري، أما القسم الثاني فهو متعلق بالعقائد؛ حيث تقرر أن تكون الترجمة اللاتينية للكتاب المقدس هي الترجمة الوحيدة المعتمدة، وأن تبقي أسرار الكنيسة سبعة لا سرين كما أوردها البروتستانت، وأن المرجع في القضايا الإيمان والعقيدة ليس الكتاب المقدس وحده، وإنما لكتاب المقدس والتقاليد الكنيسة واجتهادات الكنيسة، أملاً في أن تؤدي هذه الرسائل إلى تدعيم مركز الكاثوليكية وشحذ سلاحها للصراع القائم بينها وبين المذاهب الأخرى، وبذلك حدد المجلس في قرارته موقف الكنيسة بوضوح من القضايا المطروحة. وقد كان انعقاد مجمع ترنت في ألمانيا للحد من انتشار المذاهب البروتستانتية في كل مكان، ولتطهير الكنيسة بما لحقها من مفاسد في نظمها وسلوك رجالها، والحرص على عدم إضعاف سلطة الكنيسة أو المساس بشخص البابا هو نائب المسيح، وخليفة القديس بطرس الرسول[٦٥]، وقد وجه الدعوة لانعقاد مجمع ترنت البابا بول الثالث في نوفمبر ١٥٤٢م، وتأجيل أكثر من مرة بسبب عدم حضور الكرادلة الإيطاليين نتيجة للحرب التي كانت قائمة بين فرانسوا الأول ملك فرنسا، والإمبراطور شارل الخامس وظل هذا المجتمع في دورة انعقاد مستمرة، وعلى عهود البابوات جيل الثالث وبول الرابع وبيو الرابع، ولكن بالرغم من أن المجتمع حدد التعاليم الكاثوليكية ومصادرها ووضع نظاما للكنيسة يقلل من أخطائها إلا أنه لم ينقص من اختصاصات البابا وسلطاته، ولم يحسم النزاع القائم بين البروتستانت والكاثوليك، وقضي على كل محاولة للتقريب أو المصالحة بينهما.

٤-صلح أوجزبرج ٢٥ سبتمبر ١٥٥٥م "The Religious Peace Of Augsburg" :

انعقد المجلس الإمبراطوري في مدينة أوجزبرج لتقرير الصلح مع الأمراء البروتستانت، وهو ماعرف باسم "صلح أوجزبرج"، والذي قرر فرض مذهب ديني واحد على جميع المقاطعات الألمانية، وعدم إستخدام العنف ضد الولايات الكاثوليكية، وأن

من حق كل فرد يعتنق مذهباً مخالفاً لمذهب الولاية التي يقطنها أن يهاجر إلى ولاية أخرى تدين بالمذهب الذي يعتنقه، وله الحق في أن يأخذ معه أمواله، ويحق له أن يبيبع أمتعته قبل رحيله وألا يضار في شرفه، وأحكام هذا الصلح تسري على الكاثوليك واللوثرين، كما قرر الصلح أن أملاك الكنيسة الكائنة في المقاطعات التي تحولت إلى اللوثريين قبل ١٥٥٢م تبقي كما هي، وأما أملاك الكنيسة التي أخذت منها بعد هذا التاريخ، فتعود إليها وأعطي للأساقفة حق اختيار المذهب الديني الذي يرغبون في اعتناقه، بشرط أن كل أسقف يعتنق المذهب البروتستانتي عليه أن يترك أسقفية ويفقد وظائفه الدينية، تصبح ممتلكاته تابعة لروما، والواقع أن صلح أوجزبرج كان محاولة لوضع حد للمشكلة التي واجهت ألمانيا في مطلع العصر الحديث، ولكن هذه المحاولة لم يقدر لها أن تعيش طويلاً ، حيث نشبت المعارك الدينية واشتركت فيها كل من ألمانيا والدنمارك والسويد وإنجلترا بطريق غير مباشر وهي الحروب التي عرفت بحرب الثلاثين عاماً (١٦١٨-١٦٤٨)م والتي انتهت بصلح وستفاليا، كما مارست الكنيسة الكاثوليكية الإرهاب كأداة لمراقبة المطبوعات التي لا تنسجم مع أفكارها، وكانت مؤلفات ميكافللي ولوثر وزونجل وكلفن من بين هذه المطبوعات الممنوعة، وهكذا تحولت حركة الإصلاح الكاثوليكي إلى حركة مناهضة لحركة النهضة.

الفصل السادس

حرب الثلاثين عاماً (١٦١٨ -١٦٤٨)م

عاشت أوروبا أزمة خطيرة ابتداء من عام ١٦١٨م، امتدت لمدة ثلاثين عاماً، حيث كانت حرباً طاحنةً شاركت فيها كل من دول أوربا الوسطي الغربية ودول شمال أوربا، وبدأت هذه الحرب في ألمانيا لأسباب دينية، في شكل ثورة قام بها البروتستانت في بوهيما ضد الإمبراطور الكاثوليكي، وكانت في الواقع ضد أطماع الأسرة الحاكمة النمساوية لتحويل الإمبراطورية الألمانية إلى دول مركزية وراثية[١]، وكانت هذه الحرب الأهلية في انجلترا (١٦٤٣-١٦٤٩)م، وبحرب ألفروبد (١٦٤٨-١٦٥٥)م وهي عصبة النبلاء الإقطاعيين ضد الملوك في فرنسا[٢].

وعند نهاية القرن السادس عشر الميلادى وبداية القرن السابع عشر الميلادى نجد أن مجموعة من الأمم المسلحة، قد ظهرت إلى عالم الوجود وسارت في المائة عام التالية في طريق تغيير جديد نتيجة لعاملين:-

١- زيادة أجور الصناع والعمال وصغار الطبقة المتوسطة، حتى وصل مستواها إلى مستوي الأسعار المرتفعة في نهاية القرن السابع عشر.

٢- زيادة عدد الدول التي أصبحت تشارك فعلياً في تشكيل حوادث وتاريخ أوربا في القرن السابع عشر (فرنسا، انجلترا، هولندا، الدنمارك، السويد، روسيا)[٣].

✶ أسباب الحرب

١- أن الكنيسة الكاثوليكية قد استطاعت أن تعزز مركزها من جديد، فقد ظهرت حركة اليسوعيين "الجزويت" من أجل استعادة ما كان للكنيسة الكاثوليكية من مركز رفيع، وقد استطاعت هذه الحركة أن تجذب إليها ثانية الكثير من الأنصار الذين تحولوا إلى المذهب البروتستانتي، وتعتبر حركة اليسوعيين من وجه النظر البروتستانتية حركة خطيرة استهدفت القضاء على المذهب الجديد الذي ناضل من أجله مارتن لوثر ورفاقه.

٢- لم يكن صلح أوجزبرج الذي عقد بين الكاثوليك والبروتستانت عام ١٥٥٥م إلا هدنة مؤقتة ريثما يستعد الطرفان من جديد لاستئناف النضال، ويرجع ذلك إلى أن هذا الصلح لم يكن مقبولاً من الطرفين، وإنما كان صلحاً اعتمد على حاجة الطرفين آنذاك إلى فترة من الهدوء والراحة لتنظيم أمورهم ومواصلة صراعهم الديني[٤].

٣- نشبت الحرب نتيجة لأسباب تتعلق بالأسرة الحاكمة في النمسا، نتيجة لأوضاع هذه الأسرة ولطبيعة وطموحات أحد كبار أعضائها وهو فرديناند الثاني، وكانت لهذه الأسرة علاوة على تاج الإمبراطورية إمارة وراثية كان شارل الخامس قد أعطاها لأخيه فرديناند الأول في ١٥٥٦م، علاوة على ممالك بوهيميا والمجر التي كانت له، وكانت الشعوب التي تسكن هذه الممتلكات غير متجانسة، وتتحدث أكثر من لغة، وكان تقسيم الممتلكات بين أبناء فرديناند الأول من ناحية، وانتشار المذهب البروتستانتي في كل النمسا، وزيادة أعدادهم في الدايت، وسيطرتهم على جامعة المذهب الكلفني في المجر، يهدد أسس حكم هذه المجموعة الخاصة لسلطة الهابسبورج، وكان اعتناق مذاهب دينية مختلفة يعبر عن الرغبة في التميز، وظهور القوميات المحلية الجديدة(٥).

٤- لم يفسح صلح أوجزبرج الديني المجال للكلفنية التي كانت قد بدأت تنتشر في أوربا عامة - وفي ألمانيا بخاصة - نتيجة لنشاط دعاتها، ولذا فإن أتباع الكلفنية قاموا يعارضون الحكومات، ويجاهدون ضد مساعي الكنائس، مقدمين أنفسهم للتضحية من غير خوف، خاصة وأن الكلفنية صارت معرضة للأخطار التي تهددها في وجودها نفسها، حيث أنها كانت في حاجة إلى سند قانوني تستند إليه لاستمرار وجودها لأن صلح أوجزبرج لم يعترف بالكلفنية كمذهب جديد.

٥- عندما ازداد انتشار البروتستانتية في شمال ألمانيا وجنوبها اضطرت الكنيسة والأمراء الكاثوليك إلى العمل بجد ونشاط في حركة الإصلاح الكاثوليكية، وقدم فيليب الثاني ملك إسبانيا واليسوعيين، خدمات كبيرة للكنيسة، وأخذت الحكومات الكاثوليكية في ألمانيا تضطهد البروتستانت، وعاد عدد كبير من الأمراء إلى اعتناق المذهب الكاثوليكي، فخاف البروتستانت عاقبة ذلك الأمر، فكونوا في ١٦٠٨م الإتحاد البروتستانتي للدفاع عن مصالحهم المشتركة، فأسس الكاثوليك في العام التالى له "الحلف المقدس" لمواجهة هذا الإتحاد، وبذلك أنقسمت ألمانيا إلى معسكرين؛ كانا على استعداد للاشتباك في حرب عند أول فرصة، وكان الكاثوليك بزعامة "مكسمليان دوق بافريا" أكثر قوةً وتنظيماً، في الوقت الذي كان فيه البروتستانت بسبب انقسامهم بين لوثرين وكلفنيين مترددين، ووصل الخلاف بينهم في الكثير من الحالات إلى درجة

العداء السافر، ولم يؤيدوا "فردريك الخامس" كونت البلاتين وكان كلفانيا وكان في نفس الوقت رئيساً للاتحاد البروتستانتي تأييدا كاملا(٦).

٦-كانت العلاقات الودية الفرنسية الإسبانية سبباً في أن تسهل عام ١٦١٣م تسوية الخصومة التي نشأت في سهل نهر "بو" بشأن وراثة "ماتوا" فعند وفاة الدوق الحاكم، والذي كان من "أسرة جونزاج" ادعي "شارل إيمانويل" صاحب سافوا ضرورة وضع يده على "مونفيرات" وعلى أساس أنها منطقة نفوذ أسروي، عليها أن ترجع إلى ابنته أرملة المتوفي، واحتل عسكرياً جزءاً منها، وذلك في الوقت الذي إلتجأ فيه الوارث الشرعي إلى فرنسا الصديقة، وكان تفاهم حكومتي باريس ومدريد سبباً كافياً لإجبار صاحب سافوا على التخلي عن هذه الأماكن والعودة إلى بلاده(٧).

٧- بالرغم من حرب الثلاثين عاماً قد اتخذت شكل الصراع الديني، وأن الدين كان أشد العوامل أثرا في الصراع، فإن الدين لم يكن العامل الوحيد في أذهان رجال الكنيسة، فالأسباب الاقتصادية والسياسية كانت ذات أثر مهم في قيام هذه الحروب، ومثال ذلك أن فرنسا كانت كاثوليكية، ومع ذلك فقد شاركت في الحرب إلى جانب الدول البروتستانتية، أما مطامع السويد الاقتصادية فقد كانت واضحة في هذه الحرب، حيث أن هدفها يكمن في السيطرة السياسية والتجارية على الساحل الجنوبي لبحر البلطيق إضافة إلى السيطرة جلية في هذه الحرب، حيث أنها كانت تهدف إلى الاستيلاء على بعض الأراضي الألمانية، إضافة إلى التعصب المذهبي(٨).

ومما زاد الكفاح الألماني تعقيداً اشتباك شعوب غير ألمانيا منوعة فيه وهي البوهيميون والسويديون (الذين كانت لهم ملكية بروتستانتية جديدة نشأت تحت جوستافوس فاز كنتيجة مباشرة للإصلاح الديني) وأخيراً تدخلت الملكية الفرنسية وقد أنتصرت نهائيا على نبلائها، فعضدت البروتستانت، وإن كانت كاثوليكية رامية بذلك إلى غاية واضحة هي الحلول محل آل هابسبورج في رياسة الإمبراطورية(٩)، وقد مرت هذه الحرب بأربع مراحل.

✶ **مراحل حرب الثلاثين عاماً**

أولاً: المرحلة البوهيمية البلاتينية (١٦١٨-١٦٢٣)م: وهذه المرحلة ثار فيها سكان بوهيميا من أجل الاستقلال الديني والسياسي على أسرة الهابسبورج، وذلك لعدم

وفائها بما وعدت من إصلاحات وقد فشل البوهيميون في بداية الحرب نظراً لعدم دخول اللوثرين الحرب ولعدم استعدادهم، وقد حلت أول هزيمة بهم في نوفمبر ١٦٢٠م، وذلك في موقعة التل الأبيض، وهكذا عادت بوهيميا من جديد إلى الكاثوليكية، وأصبحت الولايات البروتستانتية الأخرى في خطر، وفي الوقت عينه زادت مساحة الولايات الكاثوليكية على حساب الولايات الألمانية البروتستانتية، وقد ترتب على ذلك انضمام "كريستان الرابع" ملك الدنمارك اللوثري المتعصب إلى جانب البروتستانت(١٠).

ثانياً: المرحلة الثانية "الدنمارك (١٦٢٥ -١٦٢٩): برزت في أعقاب الحرب البوهيمية حقيقتان؛ أن الإسبان أخذوا يقيمون التحصينات في منطقة الراين ويقومون مراكزهم ضد الفرنسيين والهولنديين، وأن أسرة الهابسبورج استعادت سيطرتها على بوهيميا وحشت قوتها على أعدائها، وقد انتخب فردنلد ملكاً على بوهيميا، وصادر نحو نصف ممتلكات النبلاء وأراضيهم، ومنحها للكنائس الكاثوليكية واالأديرة وللمغامرين الذين وقفوا بجانبه في الحرب ضد بوهيميا، وبدأت كتلة بوهيما من جديد، كما انضم اللوثرين وسكسونيا إلى جانب الإمبراطور، مما أدى إلى انتكاسة البروتستانت، واحلال الإتحاد البروتستانتي عام ١٦٢١م، وانتقلت قيادة الشئون البروتستانتية إلى يد ملك الدنمارك "كرديسيتان الرابع" الذي كان لوثرياً متديناً . ولم يكن حظ "كريستان الرابع" بأحسن من حظ فردريك الخامس، فلقد هاجمه جيشان؛ الأول بقيادة "مكسمليان" أمير بافار، والثاني هو الجيش الذي كان المغامر والنشتاين قد أنشأه من أجل الإمبراطور، وتم تكوين هذا الجيش دون أن يكلف الإمبراطور شيئاً، اذ أنه كان جيشاً يعيش على الأسلاب، وبلغت قوته ٢٢ألف مقاتل، ودخل الحرب فى عام ١٦٢٥م ضد جيش ملك الدنمارك، وانهزم ملك الدنمارك الذي كانت قواته قد توغلت في ألمانيا أمام الجيش الأول ثم الجيش الثاني عام ١٦٢٦م، ورأي أن ممتلكاته ومملكته قد أصبحت مهددة بالغزو، فاضطر إلى عقد "صلح لوبيك" الذي تعهد فيه بعدم العودة للتدخل في شئون ألمانيا. وقد استمرت المرحلة الثانية من الحرب من سنة ١٦٢٥م إلى سنة ١٦٢٩م، وبدأت بدخول الدنمارك في النزاع إلى جانب البروتستانت، وفيها انتصر الكاثوليك مرة ثانية على البروتستانت في "موقعة لوثر" أغسطس ١٦٢٦م، وقد أدى ذلك إلى التهديد الفرنسي والانجليزي والهولندي بالتدخل في الحرب من أجل نصرة البروتستانتية،

وبالتالي أدى هذا التحول في سياسة هذه الدول إلى حصول ملك على صلح مشرف عُقِد في ١٦٢٩م، وبمقتضاه استردت الدنمارك ما فقدته من أرض في الحرب ومقابل ذلك تعهدت بعدم التدخل في الشئون الألمانية(١٣).

ثالثاً: مرحلة دخول السويد الحرب:كان جوستاف أدولف ملك السويد المعروف بتمسكه بالبروتستانتية من أقدر القواد الأوربيين في القرن السابع عشر،وحاكماً قديراً تمكن من جمع الشعب السويدي تحت لوائه، وتكوين جيش بأحدث الأسلحة مدرب على أيدي خبراء من العسكريين الهولنديين(١٤)، وكانت السويد تهدف إلى السيطرة على بحر البلطيق من أجل تحسين اقتصادها فهي دولة صغيرة ومواردها محدودة، وكان أدولف يخشي سيطرة الكاثوليك التامة على ألمانيا من جديد، وبالتالي ربما عبور بحر البلطيق والاستيلاء على السويد ذاتها، ولهذا السبب أسرع إلى غزو ألمانيا قبل أن تقوم الأخيرة بغزو السويد، وفي البداية انتصرت السويد وسيطرت على بافاريا وميونخ، إلا أن جوستاف قد مات في إحدى المعارك في عام ١٦٣٢م، وقد أثر ذلك على السويد مما أدى إلى انتصار الكاثوليك على البروتستانت في عام ١٦٣٤م، وبذلك أنقذت الكاثوليكية الألمانية من هيمنة بروتستانتية دائمة، وهنا جاء الدور الفرنسي حيث أعلنت فرنسا الحرب على إسبانيا حليفة الإمبراطور في عام ١٦٣٥م(١٥).

رابعا: مرحلة دخول فرنسا الحرب: والتي امتدت إلى كل غرب أوربا وعقد ريشيليو سلسلة من المحالفات مع الوصي على عرش السويد ومع الأقاليم المتحدة ومع بعض أمراء البروتستانت في ألمانيا ومع السويسريين وبعض أمراء إيطاليا والأحوالهم دوق سافوا، ودفعت فرنسا معونات سنوية لكل حليف من هؤلاء الحلفاء، وحاربت فرنسا النمسا وإسبانيا في ١٦٣٥م، ومنذ ذلك الوقت لم تعد المسألة مجرد حرية ألمانيا بل تحولت إلى صراع بين الأسرة الحاكمة في فرنسا والأسرة الحاكمة في النمسا، وحارب الفرنسيون من أجل الحصول على طاعتهم التي كانت تحكمها إسبانيا والنمسا وقد امتدت الحرب ثلاثة عشر عاماً (١٦٣٥-١٦٤٨)م، ودارت في حدود جبال البرانس وفرانش كونتيه وحدود فرنسا مع الأراضي المنخفضة والإلزاس وألمانيا. كانت الحرب قد تحولت إلى حرب دولية فوق أرض ألمانيا، وساد الشعب الألماني استياء وطني تجاه الغزو الأجنبى حتى أخذت آثاره تظهر بوضوح، وأخذت الولايات الألمانية تطالب

بالصلح، وبإيجاد تسوية دينية نهائية وبإصلاح الإمبراطورية الرومانية المقدسة، وقد أنهي أمر المفاوضات بصلح وستفاليا ١٦٤٨م، والذي يعد من المعاهدات الأوربية المهمة التي لم تغير معالمها إلا الثورة الفرنسية[١٧]، وبالرغم من هزيمة القوات الفرنسية والسويدية المتحالفة في المعارك الأولي إلا أن الفرنسيين سرعان ما استعادوا نشاطهم الحربي واستولوا على الإلزاس وبعض مناطق الراين الأعلى في ١٦٣٩م، ولها رأي الإمبراطور الثالث ضرورة التفاوض بخصوص عقد صلح بين الأطراف المتنازعة. أما عن مصالح هولندا وانجلترا وفرنسا، فعندما كان من الصعب عن الهولنديين أن يتوقعوا مجئ مدد إليهم من الخارج قبل عام ١٦٣٥م، كانت فرنسا تتهرب، وكانت تخضع للتأثيرات التي تأتي إليها من وراء الجبال، وكانت انجلترا البروتستانتية قد أصابها الملل تحت حكم جيمس الأول السلمي، وكان تقارب عام ١٦٠٤م مع إسبانيا مصحوباً ببرود تجاه الأقاليم المتحدة، وجاءت إحدى الخصومات التي سوف تمتد لعدة سنوات، وجعلتهم يواجهون بعضهم بشأن حقوق الصيد، وكان الصيادون الهولنديون يذهبون للصيد منذ وقت بعيد عند السواحل الشرقية لانجلترا، وكانت المعاهدات تضمن لهم هذا الحق، وفي بداية القرن السابع عشر طالب الصيادون الانجليز بالتخلص من هذه المسافة، خاصة وأن المملكة كانت قد تحولت كلها إلى مذهب الإصلاح الديني من هذه المنافسة، وأصبح سكانها لايتبعون نظام طعام يوم الجمعة بنفس الصرامة، كما كان عليه الحال في الماضي، الأمر الذي أدى إلى نشأة صعوبات في بيع السمك وصدر مرسوم ملكي في عام ١٦٠٩م بمنع كل الأجانب من الحضور للصيد عند السواحل الانجليزية بدون تصريح، واضطروا أمام احتجاجات الهولنديين إلى تأجيل تطبيق هذا المرسوم، ثم بدأوا في المناقشة التي امتدت لمدة سنوات. على أي حال تعهد الهولنديون بدفع مبلغ كبير كانوا سيحصلون عليه من فرضهم ضريبة على كل سفنهم التي تعمل في الصيد، ولكن هذا لم يحل المشكلة خاصة وأن الصيادين رفضوا دفع الضريبة.

✶ **معاهدات وستفاليا وصلح البرانس:**

تعتبر وستفاليا ذات أهمية خاصة في التاريخ الأوربي الحديث فهي أول المعاهدات التي نظمت شئون أوروبا إلى حد ما، وأول معاهدة اتخذت الطابع الدولي؛

فقد وضعت معاهدة وستفاليا حداً للحروب، وأدت إلى نهاية عصر الإصلاح الديني، أما المنازعات الدولية التي وقعت بعد صلح ستفاليا فقد اتخذت صبغة سياسية قومية؛ وهي المنازعات التي حدثت بين السويد وبولندا ثم حروب لويس الرابع عشر التوسعية[٢٠]، وكانت وساطات الصلح معروضة بين الأطراف المتحاربة وخاصة من البابا والبندقية منذ ١٦٣٦م، ولكنها لم تؤد لنتيجة وانعقد المؤتمر في ١٦٤٤م، واشتمل على ممثلين لفرنسا والسويد وامبراطور النمسا وملوك الدنمارك وإسبانيا، والأقاليم المتحدة والأمراء الألمان علاوة على ممثلي البابوية والبندقية.

وقدم الفرنسيون مطالبهم باللغة الفرنسية، بعد أن كانت اللغة اللاتينية هي لغة التخاطب بين السفراء والممثلين والدبلوماسيين حتى ذلك الوقت، وهكذا أصبحت اللغة الفرنسية هي لغة الدبلوماسية وتم التوقيع على المعاهدات في ١٦٤٨م، ولقد سوت المعاهدة المسائل الدينية والسياسية الألمانية وكذلك السلام الأوربي، كما اعترفت المعاهدة بوجود الكلفنية إلى جانب اللوثرية[٢١]، وفيما يتعلق بالأقاليم التي أخذتها الممالك المنتصرة (السويد وفرنسا): أخذت السويد نصف بومرانيا وبريمن وفردون على مصب الألب والويزر وبذلك أحرزت السيطرة التي كان يريدها جوستاف أدولف على بحر البلطيق، وكذلك أعطتها حق الجلوس في مجلس الدايت الألماني، مما يسمح لها بالتدخل قانونياً في الشئون الألمانية. أخذت فرنسا مقاطعة الإزاس النمساوية ماعدا ستراسبورج الحرة وامتلاك فرنسا لتول ومتز وفردان

ومن ناحية أخرى كان تأثير صلح وستفاليا كبيراً على إسبانيا فهذه الدولة أخذت تمر بأزمات اقتصادية وسياسية، أما إيطاليا فقد أثرت الحروب الدينية على مركزها وصارت منذ هذا الوقت دولة مجزأة اقتصادياً وسياسياً، وجاء صلح البرانس لكي يوضح انتصار الأسرة الحاكمة في فرنسا على أسرة هابسبورج الإسبانية بعد أن كانت معاهدات وستفاليا قد نصرتها من قبل على أسرة هابسبورج النمساوية[٢٤]، وأصبح في حوزة أمير ألماني هو "براندنبرج سليل" آل هوهتزلرن قدر عظيم من الأراضي جعل بين يديه أعظم قوة ألمانية تلي قوة الإمبراطور، وهي قوة سرعان مما أصبحت في عام ١٧٠١م مملكة بروسيا. وكما أن "معاهدات وستفاليا" تمثل نقطة تحول كبيرة في تاريخ ألمانيا، فإنه يمكن اعتبار معاهدة البرانس على أنها تمثل تاريخاً مهماً بالنسبة لإسبانيا، هذا علاوة

على أنها تعتبر دلالة واضحة في التاريخ العام لأوربا من وجهة النظر السياسية والعسكرية، فلقد انتهت فترة التفوق الإسباني، أما قوة ال هابسبورج مدريد، ورغم أنها كانت لاتزال كبيرة، فقد أصبح من الصعب وضعها في نفس مستوي قوة فرنسا(٢٦).

أكد صلح وستفاليا شروط صلح أوجزبرج ١٥٥٥م، واعترف بمذهب كلفن، ومنح أصحاب هذا المذهب نفس الحقوق التي كانت للوثريين، ولم ينص على شئ بشأن إعلان التسامح الديني بالنسبة للأفراد، وإنما ترك المبدأ الذي يعطي لكل أمير الحق في اقرار المذهب الموافق لمنطقته، وهذا يعني أن حكام الإمارات أو الولايات هم المنوطين باختيار المذهب وليس الحكوميين – أما فيما يختص بأملاك الكنيسة فقد حدد أول يناير ١٦٢٤م حداً فاصلاً؛ بمعني أن الحقوق التي كانت للوثرين في ذلك الوقت تبقي معهم، وكذلك الأراضي التي كانت للكاثوليك تبقي في حوزتهم، ومع أن هذا الصلح حل المشكلة الدينية بصورة جذرية، إلا أنه اعترف بانقسام ألمانيا إلى جنوب كاثوليكي وشمال بروتستانتي، كما أعطي الصلح للأمراء الألمان حق عقد المعاهدات مع الدول الأجنبية، وحق التمثيل الخارجي وتكوين الجيوش، وبذلك أصبحت الإمارات من وجهة النظر القانونية في حكم المستقلة، الأمر الذي ترتب عليه أن صار تفكك أوصال ألمانيا كاملاً(٢٧).كان المفاوضون الإسبان قد أنسحبوا من المؤتمر، بعد أن قرروا أن الهولنديون سيوقعون على المعاهدات، واعترفت هذه المعاهدات بالاستقلال التام للأقاليم المتحدة، وجاء الصلح في هولندا لكي يعطي لـ "فيليب الرابع" حرية التصرف في قواته التي كانت بدون تسوية، خاصة وأن فرنسا شهدت حرب الفروند، الأمر الذي شجع إسبانيا على أن تستمر في الحروب ضدها ولقد استمرت الحرب بين إسبانيا وفرنسا لمدة اثنتي عشر سنة أخرى، تحالفت فيها إسبانيا منذ عام ١٦٥١م مع "دوق كونديه" الثائر. في عام ١٦٥٨م عقد مزران تحالفاً مع الانجليز، وتنازل لهم عن ميناء "دنكرك" والتي كانت في أيدي الإسبان، وأرسل كرومويل جيشاً من ستة آلاف جندي، تعاون مع الجيش الفرنسي، وسمح له بالانتصار على الإسبان وحلفائهم الفرنسيين الثائرين قرب دنكرك التي استولوا عليها وسلمت للانجليز، وشعر ملك إسبانيا بأنه قد فقد جيشه، فوافق على التفاوض، وعقد صلح المعروف باسم "صلح البرانس" مع فرنسا في ٧ نوفمبر ١٦٥٩م، وحصلت فرنسا على روسيليون في الجنوب،

وارتوا في الشمال، مع بعض المواقع في الفلاندرز وفي إقليم لوكسمبورج، كما نصت المعاهدة على زواج لويس الرابع عشر من ماريا تريزا – الابنة الكبري لفليب الرابع–، وظلت هذه المسألة لمدة خمسين عاماً أساساً لسياسة لويس الرابع عشر الخارجية ولسياسة لويس الرابع عشر الخارجية وللسياسة والدبلوماسية والحروب. وجاء صلح البرانس لكي يوضح انتصار الأسرة الحاكمة في فرنسا، على أسرة هابسبورج الإسبانية، بعد أن كانت معاهدات وستفاليا قد نصرتها من قبل على أسرة هامسبورج النمسوية، وزادت ثلاثة مقاطعات هي إلالزاس وارثوا وروسيليون من مساحة فرنسا، التي أصبحت في عام ١٦٤٩م هي القوة المسيطرة في غرب أوربا وقد ترتب على طول أمد هذه الحرب، وعدم جريانها على امتداد جبهة محددة، لتتأثرها في كل أرجاء إمبراطورية قوامها الرقاع: فمن بروتستانت في مكان وكاثوليك في مكان آخر – أن تحولت إلى حرب من أقسي الحروب وأشدها تدميراً ، حرب لم تشهد أوربا لها مثيلا منذ أيام الغارات الهمجية، مع فارق حداثة التسليح والتكتيك والتدريب، وكانت الحرب في مثل تلك الظروف موكولة تملماً إلى جنود مدربين محترفين، تفاقمت فيها محنة البلاد المالية، أدت إلى قيام قواد كلا الجانبين بنهب المدن والقري، رغبة في المؤن والتعويض عن متآخرات جنودهم، ومن ثم أخذ جندهم يتحولون إلى النهب والسلب على حساب البلاد، وأوجدت حرب الثلاثين سنة تقاليد من النهب والسلب، بوضعهما عملية قانونية في الحرب، ومن انتهاك الحرمات بوصفه امتيازا للجندي، وهي تقاليد لوثت سمعة ألمانيا حتى الحرب العظمي ١٩١٤م، واعترفت معاهدة وستفاليا أيضاً بحقيقتين مقررتين وهما : الإنفصال عن الإمبراطورية والإستقلال التام لكل من هولندا وسويسرا. وهكذا نري أن هذه الحرب أنهت الحروب الدينية العامة، وبدأت فكرة التسامح الديني، وخرجت فرنسا منها متفوقة براً وبحراً في أوربا، ومهدت بذلك الطريق لحروب لويس الرابع عشر، وكذلك وصلت السويد بمعاهدة وستفاليا إلى أقصي ما وصلت إليه من العظمة والرقي، وأن بدأ تدهورها بعد ذلك سريعاً بسبب ظهور قوة في الشرق، ودوقيه برندنبرج شمال ألمانيا.

الفصل السابع

فرنسا والملكية المطلقة "عصر التفوق الفرنسي"

يعتبر هنري الرابع (١٥٨٩-١٦١٠)م أول ملك من ملوك أسرة البوربون بدأ عمله بتعطيل مجلس الأمة الذي كان مسرح الخلاف والشقاق، وتحدي البرلمانات واجراءاتها في نظمه وأحكامه، وعمل على تنظيم المالية والشئون الاقتصادية، وإنشاء جيش استردت به فرنسا مكانتها بين الدول، وارتفعت فرنسا بفضل سياسته فوق دول وملوك أوربا، ورأي أن خير طريق لحسم النزاع القائم في فرنسا ارتداه عن المذهب البروتستانتي وتحوله إلى الكاثوليكية؛ فاكتسب حب الشعب الفرنسي، واعتلي عرش فرنسا ١٥٩٤م، كما أصدر مرسوم نانت لحسم المشاكل الدينية في فرنسا ١٥٩٨م، وبمقتضي هذا المرسوم صار للبروتستانت :-

١-حرية العبادة في أي بلد عدا باريس وأقاليم خاصة.

٢-تساوي البروتستانت والكاثوليك أمام القانون وتكوين محاكم خاصة لمقاضاة الهيجونوت مكونة من الكاثوليك والهيجونوت، منح الهيجونوت بعض بلدان يكون لهم تحصينهاً أهمها "لاروشل، سمومير، مونبليه" وذلك ضماناً لحريتهم وتأميناً لهم، وبذلك أصبح الهيجونوت طائفة متنقلة داخل الدولة الفرنسية فصار لهم جيش وحصون يلوذون بها، وكان ذلك يتعارض مع آراء الوزراء العظام كما كان سبباً في تجدد الحرب الدينية أيام ريشيلو.

عندما قويت فرنسا داخلياً وضع الملك هنري مشروعا لمناوأة أسرة هابسبورج في أوربا، وأعد لذلك جيشاً قوياً وبدأ تنفيذ مشروعه، ولكنه قُتِلَ فى عام ١٦١٠م، وأصبح ابنه "لويس الثالث عشر" (١٦١٠-١٦٤٣)م صاحب العرش، وكان يبلغ من العمر تسع سنوات، ولذا وضع تحت وصاية والدته ماري دي مدسيس التي واجهت الموقف بكل حزم، خاصة وأن زوجها كان يطلعها قبل وفاته على شئون الدولة، واستعانت بوزير إيطإلى ليسهل تيسير الأمور، فوقف ضده أبناء عم الملك الصغير وبخاصة دوق كونديه، ومع ذلك عملت الوصية على تدعيم السلطة المطلقة للمجالس على العرش، وحين اجتمع مجلس طبقات الأمة في باريس ١٦١٤م، ظهر الانقسام فيه بين نواب النبلاء ونواب الطبقة الثالثة حول مسألة اعطاء ألقاب النبل لعدد من رجال

الطبقة الثالثة، وحين تقدم أعضاء المجلس ببعض الإلتماسات، تقرر وقف اجتماعات مجلس طبقات الأمة، بشكل يجعل الملك يحكم بسلطة مطلقة، وسيظل مجلس طبقات معطلاً بدون اجتماع حتى نشوب الثورة الفرنسية(٢).

عملت ماري على ربط الأسرة المالكة في فرنسا بالأسرة المالكة في إسبانيا رغم ماكان بين الأسرتين من عداء، ورغم معارضة الرأي العام الفرنسي، وفي ١٦١٢م تم الاتفاق على زواج "لويس الثالث عشر" بـ آن النمساوية بنت فيليب الثاني ملك إسبانيا، وفي ١٦٢٤م تولي لويس زمام الأمور وأتم زواجه، ولكن الأمور لم تتحسن بتقليده أمور الحكم، وبقي التنازع على السلطة فيما بين الأشراف، فتشجع الهيوجونوت وحاولوا ١٦٢٠م تكوين جمهورية خاصة بهم في جنوب فرنسا، وعمل لويس على القضاء عليهم وعقد صلح منبليه ١٦٢٢م*؛ حيث حرم على الهيجونوت الاجتماعات السياسية، ولم يتعرض لحقوقهم الدينية، وقصر حصونهم على مدينتي "لاروشل، منتوبان.

في عام ١٦٢٤م "ريشيلو" منصب وزير الملك، وبتولي ريشيلو زمام الأمور حدث تغير تام وبدأت فرنسا صفحة جديدة من صفحات تاريخها، فقد عمل ريشيلو ذلك النبيل الفرنسي على تحقيق هدفين هما : **الأول:** اتحاد الأمة وزيادة نفوذ الملك داخل البلاد، وتوطيد سلطانه بالقضاء على كل منافسيه من الأشراف والهيجونوت والمجالس الوطنية على السواء، بوضع نظرية متكاملة في الحكم والإدارة، ووضع خط عام للسياسة الفرنسية لا يقوم على العقوبة والإرتجال. **الثاني:** العمل على تفوق فرنسا في أوروبا، وذلك بقهر الهابسبورج في ألمانيا وإسبانيا، وجعل الملكية مطلقة في الداخل ومهيمنة في الخارج. ونتيجة لسياسته صارت فرنسا ذات وحدة وطنية، وأصبح ملكها ذا مركز متفوق في أوربا، كما اهتم بالاقتصاد حيث رأي أن قوة فرنسا الاقتصادية مكملة لقوتها السياسية والعسكرية، وضمن اطار الحرية الاقتصادية مما جعله أحد رواد "المذهب المركنتيلي" في أوربا، فشجع على الاشتغال بالعمل التجاري كما طور أسطول فرنسا التجاري .

✶ **لويس الرابع عشر**

كان حسن حظ فرنسا أن خلف ريشيلو بعد موت مزران الذي أوصي هو بأن يخلفه في منصبه، وكان مساعداً له في آخر أيامه، فكان مزران نعم الخلف؛ لأنه

واصل السياسة التي رسمها ريشيلو إلى أن بلغ ماكان يأمله فقد تولي لويس الرابع عشر الحكم (١٦٤٣-١٧١٥)م وهو دون الخامسة فصارت أمه "آن النمساوية" وصية عليه، وساعدها مزران على جمع السلطة في يدها فأعطته ثقتها وتأييدها.

وكان مزران إيطالى الجنسية، وحصل على الجنسية الفرنسية عام ١٦٣٩م، بعد أن كان من رجال البابا، وكان يختلف عن ريشيليو في كل شئ؛ فبينما كان ريشليو جندياً ويسير وراءه حرس كبير وله حاشية ملكية، كان مزران بسيطاً متواضعاً ، يحادث الجميع ويجالسهم ولم يكن له من الحياة العسكرية أي شئ، ولكنه كان عبقرياً في دبلوماسيته وبدرجة تفوق ريشيليو، أما من ناحية الإدارة فكان لا يصل إلى مستوي ريشيليو ولويس الثالث عشر، وكانت الأوضاع صعبة بالنسبة له، فالكبراء يحاولون استعادة سلطتهم بعد أن كان ريشيليو قد احكم قبضته عليهم، وحاولت التخلص من مزران حتى عن طريق الاغتيال، وكان الفلاحون – وهم الغالبية العظمي للشعب – يعيشون في ظروف قاسية نتيجة للضرائب، وحاول مزران أن يصلح المالية، كما حاول فرض ضرائب جديدة، وستكون هذه الضرائب أساس وقوف كل من برلمان باريس ومجموعة من الأمراء ضد مزران وسياسته.

ولما قام الأشراف بالحرب الأهلية المعروفة بحرب الفورند (١٦٤٨-١٦٥٢)م، والتي بدأت بانشقاق في البرلمان، ثم الأشراف رغبة منهم في استعادة امتيازاتهم الأولي، وتمكن مزران بمساعدة توزن من التغلب على الأشراف ١٦٥١م، ودخل لويس الرابع عشر باريس ١٦٥٣م،وقضي نهائياً على حركة الفورند، وحاول مزران خلال السنوات الأخيرة من حكمه للوصول إلى صلح مع إسبانيا، وتم له ذلك في عام ١٦٥٩م، وبانتهاء الحركة تفوق الملك وتنافس الأشراف في خدمته، والإذعان لأوامره، وفي ١٦٦١م مات مزران، فلم يتخذ الملك رئيساً للوزراء بديلا عنه، واحتفظ بهذا المنصب لنفسه، وظل آخر أيامه الحاكم المطلق في فرنسا، وإن كانت سياسته قد نفرت منه سكان من فرنسا، وبخاصة أهل باريس وقد أوصي وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة الملك الشاب بأن يحكم فرنسا حكماً مباشراً دون أن يتخذ له وزيراً أول وأصبح ملكاً مطلقاً [٥].

كان لويس الرابع عشر قد اكتسب خبرة فاعلية بالحكم، عندما أعلن عن نيته حكم البلاد بغير حاجة إلى رئيس الوزراء في اليوم الذي تلا وفاة مزران، وكان الملك

الفتي قد ترأس لأول مرة المجلس الأعلى للدولة ١٦٤٩م، وعندما كان في الحادية عشر من عمره وكان أول قرار سياسي أصدرره عندما مارس سلطاته هو القبض على الكاردينال "دي ريتز " في ١٦٥٢م، وبين (١٦٥٣–١٦٥٥)م، كان مزران ولويس يلتقيان لمدة ساعة يومياً على الأقل لتصريف أمور الدولة، وخشي أنصار الفروند من استغلال مزران لمركزه كمشرف على تعليم الملك الفتي فليلقنه السياسة في صورة ضارة، والحق أن لويس قد طبق المبادئ التي صاغها مزران، وهو على فراش الموت والتي أملاها لويس على أحد سكرتارية في باريس ١٦٦١م، ومن ثم يعد لويس الرابع عشر تلميذاً لمزران في السياسة، ونصح مزران لويس باحترام سيادة المجلس السيادية.

واهتم لويس الرابع عشر بشئون الإدارة والسياسة الداخلية، وكان أغلب موظفيه من أعضاء الطبقة الوسطي الذين كانوا يساندون سلطة الملك المطلقة، وقد كانت الفترة الأولي من حكمه فترة اصلاح على يد وزرائه وخاصة وزير المالية "كولبير" الذي ساهم في تحويل الاقتصاد والفرنسي من اقتصاد اقطاعي زراعي إلى اقتصاد رأسمالى، وذلك من خلال تشجيعه للتجارة والصناعة، ومن ناحية أخرى آمن لويس الرابع عشر بأن الوحدة السياسية لفرنسا لا يمكن أن تتحقق بدون قيام الوحدة الدينية، ولهذا كان يأمل عودة البروتستانت إلى الكنيسة الكاثوليكية إذا استخدم ضدهم العنف وأبعدهم عن مناصب الدولة العليا، وهكذا أمام الحاح رجال الدين الكاثوليك تتابعت حملات الاضطهاد ضد البروتستانت والمذاهب الدينية الأخرى في فرنسا وهاجرت أعداد كبيرة منهم عبر الحدود.

وفي كندا كمستعمرة فرنسية في ذلك الوقت رفض الفرنسيين هناك قبول المهاجرين من غير الكاثوليك، حتى ولو كانوا فرنسيين، مما حدا بالهيجونوت المهاجرين من فرنسا إلى الإستقرار في المستعمرات الانجليزية، ومن ناحية ثانية فإن الفرنسيين طبقوا في ملكية الأراضي بكندا النظام الإقطاعي؛ فخصصوا النبلاء بالملكيات الكبيرة، وفرضوا على الفرنسيين في كندا نفس الحقوق التي كانت مفروضة عليهم في فرنسا، وهذا ما جعلهم يتحولون إلى التجارة بدل العمل الزراعي، وهو ما أدى إلى عدم زيادة السكان في المستعمرات البريطانية في منتصف القرن الثامن عشر؛ حيث أنه بلغ مليوناً ونصف مليون مقابل ثمانية آلاف للفرنسيين، وبالرغم من أن بعض

الأقاليم في فرنسا قد قاومت سياسة الإضطهاد بشدة إلا أن فرنسا كادت تصبح كاثوليكية كلية، وهكذا كانت إستبدادية لويس الرابع عشر الدينية.

وفي مجال السياسة الخارجية والحروب اشترك "لويس الرابع عشر" في عدة حروب منها الوراثة في بالأراضي المنخفضة" (١٦٦٧ –١٦٦٨)م وحروبه مع هولندا (١٦٧٢–١٦٧٩)م وحرب البلاتين (١٦٨٨–١٦٩٧)م وحرب الوراثة الإسبانية (١٧٠٢–١٧١٣)م، ففي ١٦٦٧م وجد لويس الرابع عشر فرصة للتوسع في الشمال – الأراضي المنخفضة الإسبانية (بلجيكا)– وقد لاحت هذه الفرصة حينما مات ملك إسبانيا فيليب الرابع (١٦٢١–١٦٦٢)م الذي تزوج لويس ابنته بعد أن تنازل عن حقه في وراثة عرش إسبانيا، إلا أنه بعد موت فيليب الرابع ادعي لويس حق زوجته الإسبانية في وراثة الأراضي المنخفضة، وهكذا أرسل قواته إلى تلك البلاد حيث استولت على عدة من المدن الحدودية بدون مقاومة تذكر، وقد أدى هذا التوسع إلى تحالف كل من انجلترا والسويد وهولندا لوقف التوسع الفرنسي– وتم في النهاية توقيع الصلح في ١٦٦٨ الذي نص على احتفاظ فرنسا بالمناطق التي احتلتها على حدود الأراضي المنخفضة ويعرف هذا الصلح بـ"صلح اكس لا شابيل" وعن الدولة العثمانية وموقف لويس الرابع عشر منها فلقد شرح "ليبنز" وزير فرنسا في عهد لويس الرابع عشر في عام ١٦٧١م فكرة تعاون ملك فرنسا مع امبراطور روسيا لمحاربة الدولة العثمانية، وكانت له من وراء ذلك أهدافه الصليبية؛ وهي السماح لفرنسا بالحصول على مصر، وزعم أن حروبه هذه بأنها حروب دينية، وضرورة نصرة الصليب على الهلال، إلا أن هذه المحاربة لكي ينشغل لويس الرابع عشر بعيداً عن الحدود الغربية للأقاليم الألمانية.

وفي ربيع ١٦٧٢م شرع لويس الرابع عشر في حروبه مع هولندا، بعد أن نجح في عقد معاهدة سرية مع انجلترا، ووفق في كسب السويد إلى جانبه، وقد نجحت القوات الفرنسية في الاستيلاء على بعض الولايات والمدن الهولندية، وفي نفس الوقت شعرت أوربا بالخطر الكامن في الأطماع الفرنسية، وتخلت انجلترا عن اتفاقها مع فرنسا، وأعلنت الدنمارك وألمانيا وإسبانيا الحرب عليهم، ولذلك لم يبق في جانب فرنسا إلا السويد، وهكذا وجدت فرنسا نفسها في عزلة لا تحد عليها، وهكذا قرر لويس الرابع عشر إنهاء الحرب وعقد معاهدة عام ١٦٧٨م؛ احتفظت هولندا بمقتضاه بكل أراضيها.

ولم يكتف لويس الرابع عشر بهذه الحروب بل دخل في حرب أخرى ضد الإمبراطور؛ وهي الحرب التي تعرف بـ "حرب البلاتين" التي أعلنت في عام ١٦٨٨م، وبعد تسعة أعوام من الحرب عقدت معاهدة عام ١٦٩٨م؛ والتي انهت الحرب، وتنازلت فرنسا بموجبها عن كل البلاد التي استولت عليها منذ عام ١٦٧٨م، وقد كان لويس الرابع عشر مضطراً لتوقيع هذه المعاهدة خاصة بعد أن لاحت في الأفق مشكلة أخرى وهي مشكلة الوراثة الإسبانية(١١)، وبمقتضي هذه المعاهدات التي تعرف بـ "معاهدة نمويجن" خرجت هولندا من الحرب دون أن تفقد شبرا من أرضها، وتنازلت إسبانيا لفرنسا عن "فرانشي كنتيه وعدة معاقل على الحدود، ونزل الإمبراطور عن فريبرج وأخذ بدلاً منها "فلسيبرج"، وبسطت فرنسا سيادتها الإسمية على "الإلزاس واللوريين".

بعد الحرب أصبح لويس الرابع عشر أقوي ملك في أوربا، وهنا أراد لويس أن تصبح فرنسا متحدة دينيا كما أنها اتحدت سياسياً ، ولهذا لم يشأ أن تبقي طائفة في فرنسا تدين بمذهب يخالف مذهب الملك؛ فألغي مرسوم نانت ١٦٨٥م، وبذلك صودرت الديانة البروتستانتية في فرنسا، وفقد الهيجونوت حرية العبادة والمساواة أمام القانون، فهاجر عدد كبير منهم يقدر بخمسين ألف أسرة، معهم ثروتهم وصناعتهم، ولجأ إلى هولندا وانجلترا وروسيا وأمريكا، فكانت خسارة كبيرة تفقدها هذه الطائفة النشيطة.

سخط العالم البروتستانتي على سياسة لويس ضد الهيجونوت، فتكون "حلف أوجزبرج" عام ١٦٨٨م؛ بين الإمبراطور وإسبانيا والسويد وأمراء ألمانيا الشمالية وهولندا، لمقاومة فرنسا وإجبارها على العودة إلى التقييد بمعاهدات وستفاليا ونمويجين، والتخلي عن كل ما استولت عليه من مكاسب إقليمية خلافاً لأحكام هذه المعاهدات، وكانت انجلترا عضواً في هذا الحلف، لأن "وليام أورانج" حاكم هولندا دعي في نفس العام ليكون مع زوجته ماريا ملكاً على انجلترا، وفي سبتمبر أعلن لويس الحرب على الإمبراطور، فأعلن أعضاء الحلف الحرب على فرنسا، وفي العام التالي أصبحت الحرب عامة، وشعر لويس بثقل أعبائها، وبعد مواصلة الحرب مدة ثمانية أعوام، ضاق الفريقان بالحرب وبدأت مفاوضات الصلح حيث "معاهدة رزويك" أكتوبر ١٦٩٧م على أن: تتخلي فرنسا عن كل البلاد التي استولت عليها منذ "معاهدة نمويجن" ما عدا إستراسبورج، وأن تترك لهولندا تحصين الحصون الواقعة على الحدود الفرنسية لتحفظ

حدود بلادها. أن ينصب "كلمنت" دوق بافاريا على كلونيا، وأن يعترف لويس بحق وليام عرش انجلترا. وقد كانت معاهدة روزيك ضربة شديدة وجهت لفرنسا وحطمت الكثير من أمالها، وإن كانت هذه المعاهدة وصفت بأنها صلح اللاغالب واللامغلوب؛ نظراً لما أبداه الجميع إزاء المفاوضات من المرونة والواقعية.

حرب الوراثة الإسبانية

كانت الإمبراطورية الإسبانية تثير مطامع الدول الأوربية؛ فهي كانت تضم صقلية ونابولي وسردينيا وميلانو وجزر البليار وبلجيكا، إضافة إلى إسبانيا ذاتها وممتلكاتها الأخرى التي تشمل الفلبين وجزر الكناري وكوبا والمكسيك وبنما وفلوريدا وأمريكا الجنوبية – باستثناء البرازيل وجويانا–، ومن ناحية أخرى كانت مشكلة العرش الإسباني من أخطر المشاكل التي واجهت لويس الرابع عشر، وتتمحور هذه المشكلة أساساً حول مصير الإمبراطورية الإسبانية بعد موت الملك شارل الثاني عام ١٧٠٠م، خاصة وأنه لم ينجب ولداً يخلفه في وراثة العرش الإسباني، وقد تشبعت المطالبة بعرش إسبانيا من الناحية القانونية إلى ثلاثة فروع:

الأول: إدعى الوراثة "أمير بافاريا" بصفته إبن أخ ملك إسبانيا.

الثاني: إدعى الوراثة "الإمبراطور ليوبولد الأول" لكونه حفيداً لفيليب الثالث ومتزوجاً بالابنة الثانية لفيليب الثاني.

الثالث: إدعى الوراثة أيضاً لويس الرابع عشر الذي كان متزوجاً من ماري إبنة "فيليب الرابع" وأخت شارل الثاني(١٣).

والواقع أنه كان في وسع وريثين أن يتقدما لتسليم هذا الإرث؛ لويس الرابع عشر وليوبولد، فكان كل منهما إبناً لاميره إسبانية، ومتزوجاً من أميرة إسبانية، فكانا أبناء خاله وكل منهما قد تزوج اخت زوجة الآخر، ولكن كل من "آن النمساوية" و"ماريا تريزا" والدة زوجة "لويس الرابع عشر" كانت أكبر من والدة زوجة "ليوبولد"، ولذلك فإن حقوق لويس الرابع عشر تسبق حقوق ليوبولد، حقيقة أن "ماريا تريزا" كانت قد تنازلت عند زواجها من لويس الرابع عشر عام ١٦٥٩م عن حقوقها في الميراث الإسباني، ولكن هذا التنازل كان باطلاً، ومن ناحية أخرى كان هذه التنازل نظير دفع فيليب الرابع مبلغ ٥٠٠ ألف جنيه – لم يقم فيليب بدفعه–، وكان لويس لا يفكر في أخذ هذا الإرث

لنفسه، بل كان يرغب في أخذ الأقاليم الفرنسية الموجودة فيه، ويأخذ من إيطاليا الإقليم التي تمكنه أن يبادل بها اللورين وسافوا، حتى يتم وحده فرنسا وكان مستعداً للتخلي عن الباقي وعن إسبانيا وأمريكا لامبراطور الميانيا ليوبولد.

وفي عام ١٦٦٧م بدأ لويس في احتلال جزء من الميراث، وهو الفلاندرز وذلك كحق لزوجته "ماريا تريزا" وكونها وحيده لواليدها، وبحجب بقية الابناء، وتوغل نحو ٦٠ ألف مقاتل في الفلاندرز، واحتلوا الأحوال المواقع الموجودة فيها، وتوقف لويس وطلب إلى الملكة الوالدة الإسبانية الوصية على "شارل الثاني" أن تعترف بالأمر الواقع، ونتيجة لترددها أرسل لويس جيشاً آخراً في ١٦٦٨م، احتل "فرانس كونتيه" في مدة إسبوعين، وأثار هذا الغزو السريع قلق كل انجلترا وهولندا، إذ أن فرنسا أصبحت جارة لهما، وقامت هاتان الدولتان بتكوين "تحالف لاهاي" مع السويد ضد فرنسا عام ١٦٦٨[١٤].

ولما كان مبدأ التوازن الدولي يقضي بعدم السماح لأية دولة بزيادة ممتلكاتها في أوروبا، زيادة من شأنها احراج مركز الدول الأخرى؛ فلم تكن الدول الأوربية لتقبل اتساع أملاك لويس ولا الإمبراطور، وكان لويس يعرف ذلك ولهذا عمل على تقسيم الوراثة الإسبانية؛ بحيث يصبح أمير بافاريا ملكاً على إسبانيا، ولكن شارل الثاني ترك وصية عند وفاته تقضي بأن يكون "فيليب انجو" حفيد لويس الرابع عشر الوارث الوحيد للمتلكات الإسبانية، هنا لم يلتزم لويس باتفاقه مع وليام، وأرسل حفيده ضد المحالفة الكبري "انجلترا وهولندا والإمبراطور وبروسيا"، وكانت أهم ميادن الحرب في بافاريا والأراضي المنخفضة، وكسب الحلفاء مواقع عظيمة، وهزم فيها لويس الرابع عشر، ولما طالت الحرب ملتها انجلترا وغيرها من الدول، فعقدت "معاهدة أوترخت" في عام ١٧١٣م، ومن أهم شروطها:

١- يكون "فيليب الخامس" دوق أنجو ملكاً على إسبانيا والمستعمرات الأمريكية، بشرط ألا تضم هذه المملكة إلى فرنسا في يوم من الأيام.
٢- يستولي الإمبراطور شارل على الأراضي المنخفضة وميلانو ونابلي وسردينيا.
٣- يكون لهولندا الحق في تحصين مدن خاصة في الجهة الغربية من الأراضي المنخفضة حماية لبلادها من فرنسا.

٤- أخذت انجلترا بعض مستعمرات فرنسا في أمريكا مثل "نيو فوندلاند وخليج هدسن"؛ ذات المؤثرات الاقتصادية والتنافس على المستعمرات والصراع في البحار، كما أخذت "جزيرة منورفة" وجبل طارق.

ورفض الإمبراطور الموافقة على شروط معاهدة أوترخت في البداية، لكنه اضطر في عام ١٧١٤م إلى الخضوع بمقتضي "صلح راستاد" "Rastad"، وهكذا فإن فرنسا لم تسد أوروبا، كما كان يرغب لويس الرابع عشر[١٥].

المهم في الأمر أن "أسرة الهابسبورج"قد انتهت بموت شارل الثاني وحلت بدلاً منها على العرش الإسباني "أسرة البوربون" الفرنسية، ففرنسا لم تحصل من هذه الحرب إلا على تعيين فيليب الخامس حفيد لويس الرابع عشر ملكاً على إسبانيا، والخلاصة أن لويس الرابع عشر قد حقق لفرنسا المجد والهيبة بسبب توسعاته العسكرية وبناء للدولة القومية في المجالين الخارجي والداخلي، ويعتبر الوفاق الانجليزي الفرنسي الذي ساد في النصف الأول من عهده من بين العوامل التي أدت إلى تفوق لويس الرابع عشر وبالتالي فرنسا[١٦]، وقدكان الأساس في ذلك يرجع الفضل فيه إلى كل من "ريشيليو ومزران" في بداية تولية حكم فرنسا؛ حيث مهدا له الطريق خاصة بالنسبة للأنجازات الاقتصادية التي احتلت الصدارة في سياستهما.

الفصل الثامن

تاريخ انجلترا الحديث

انجلترا والمذهب الأنجيليكاني

وجدت في انجلترا حركتين للإصلاح الديني؛ الأولي: أنجليكانية بتوجيه من هنري الثامن وإليزابيث، والثانية: برسبتارية أو بيورتانية، متأثرة بتجربة اسكتلندا وبالإتجاه الكلفني، وكانت الكاثوليكية لاتزال موجودة، علاوةعلى اتجاه رابع هو اتجاه المستقلين، والذين كانوا يرغبون في الوصول إلى إصلاح أعمق.

ورغم هذه الضوعية السياسية والحالة الدينية، فإن ملوك "أسرة ستيورات" قد عملوا، طوال القرن السابع عشر على القضاء على "حقوق الشعب"، وحكم البلاد بدون برلمان، وفرض وجمع الضرائب كما يحلوا لهم، وتوجيه السياسة الخارجية حسب مايرون، كما صمموا على نشر المذهب الإنجليكاني، والاحتفاظ بسلطة رجال الدين الذين كانوا يعينوهم، وبشكل يجعلهم يحتفظون بسلطة دينية على رعاياهم وبكونهم ناباوات، بالفعل في نفس الوقت الذي كانوا فيه ملوكاً.

وقام البابا بتمويل انقلاب في شمال انجلترا ضد الملكة إليزابيث، وعندما فشل الإنقلاب إقلب البابا ضد الملكة شخصياً ، واتهمها – كسلفه – باغتصاب عرش انجلترا من رأس الكنيسة الذي هو الحاكم الشرعي الوحيد للبلاد، ثم كانت محاولة البابا اقصاء إليزابيث عن الحكم، وكانت تللك المحاولة أكبر محاولاته جرأة وأكبرها خسارة، وذلك عندما أعلن البابا عدم أحقية إليزابيث للعرش، وبالتبعية عدم شرعية أي عهد أو قسم تم حلفه لها، وأوقع بذلك الكاثوليك الانجليز في مأزق بين ولائهم للكنيسة وولائهم للدولة.

كانت إليزابيث حتى ذلك الحين لم تضطهدهم، إنما كان عليهم فقد دفع جزية عدم اتباعهم للمذهب الانجليكاني، وزاد ضغط البابا عليهم بإعلانه أن الولاء المزدوج مرفوض تملماً ، وهكذا تحولت دعوة الحب المسيحية التي كان هدفها توحيد شعوب الأرض إلى أداء للتفرقة بين أبناء الشعب الواحد؛ لصراع الإنسان بين ولائه لوطنه وولائه لكنيسته، وعندما أحس البابا باستمرار الصراع داخل الانجليز الكاثوليك دون حل نهائي اعفاهم من واجب اسقاط الملكة، ولكنه أخذ عليهم تعهداً بمساندة الغزاة الكاثوليك

في حالة غزو انجلترا ضد الدولة البروتستانتية، ولذلك اعتبر الإنجليز الكاثوليك لفترة طويلة بمثابة إنجليز غير حقيقيين(١٨).

وحين توفيت إليزابيث آخر ملوك أسرة تيودور في عام ١٦٠٣م، انتقل التاج إلى "جيمس السادس" ابن "ماري ستيورات" – ابنة عم إليزابيث التي كانت قد أعدمتها، وكان ملكاً على اسكتلندا، وأصبح ملكاً على انجلترا باسم "جيمس الأول"، وأصبح أول ملوك أسرته، فانتهت بذلك أسرة التيودور، وبدأت فترة حكم أسرة ستيورات، وهكذا أصبح تاجي انجلترا واسكتلندا على رأس ملك واحد، وإن كانت كل دولة منهما قد احتفظت بكيانها وشخصيتها، وكان له من العمر ٣٧ سنة، وكان يؤمن بأن الملوك يحصلون على سلطانهم من الله – والذي لا يعطى لغيرهم – بشكل يجعلها سلطة مطلقة، ورغم كونه إبناً لكاثوليكي، إلا أنه تربي تربية برسبتارية أو بيوريتانية ثم أصبح متشدداً للمذهب الانجليكاني، ومعادياً لكل من الكاثوليك والبيوريتان.

قضي في أولي سنوات حكمه، على ستة آلاف من الكاثوليك، وكان ذلك سبباً في "مؤامرة البارود" التي وضع المتأمرون فيها براميل بارود كاملة في البرلمان، لنسف الملك مع كل من يوجد هناك وذلك في عام ١٦٠٥م، حيقيقة أن أمر هذه المؤامرة قد كشف، ولكن جيمس الأول ظل مكروهاً طوال حياته، ومن ناحية أخرى ظل الكاثوليك موضوعين خارج القانون في انجلترا لمدة قرنين حتى سنة ١٨٢٩م، بل ومحرومين من تولي المناصب، ورغم أن اضطاده للبيوريتان كان أقل من اضطهاده للكاثوليك، إلا أنه اضطهدهم رغم تربيته على أيديهم، وهذا بطردهم من المملكة، ولقد هاجر الكثير منهم في عهده عبر المحيط الأطلسي، حيث أنشأوا مستعمرات عديدة على الساحل الشرقي لأمريكا الشمالية، وهكذا نتج عن هذا الإضطهاد الديني ازدياد القوة الخارجية لانجلترا، التي ستشارك مستعمراتها الأولي عبر المحيط الأطلسي في إنشاء الولايات المتحدة الأمريكية، فيما بعد. وكان هؤلاء الفارين يتألفون من فئات مختلفة، فهناك المتدينون الإنفصاليون الذين كانوا قد هاجروا من انجلترا إلى هولندا احتجاجاً على الرواسب الكاثولكية الرومانية التي كانت لاتزال في الكنيسة البروتستانتية الانجليزية، إلا أنهم وجدوا أنفسهم غرباء هناك، فرغبوا في الهجرة إلى العالم الجديد.

وعلاوة على ذلك الإتجاه الديني، جاء موقف جيمس الأول تجاه البرلمان لكي يزيد السخط عليه، وكان يعتبر أن حقوق النواب منحة من جانب الملك وكان يكثر من حل البرلمان، ويهمل انعقاده حتى أنه لم يجتمع لفترة سبع سنوات متتالية (١٦١٤-١٦٢١)م، ولكنه لم يحاول فرض الضرائب بدون موافقة من البرلمان، الأمر الذي أعجزه عن العمل في الخارج، وبشكل جعل حكومته تظهر بمظهر الضعف، وخاصة بعد عهد إليزابيث، وجاءت مشروعات زواج ولي العهد من أميرة كاثوليكية وإسبانية – أخت ماري النمسوية– ملكة فرنسا، ثم زواجه بعد ذلك من أميرة أخرى كاثوليكية كذلك؛ وهي "هنربت الفرنسية" أخت "لويس الثالث عشر"، لكي تقتضي على البقية من حب الشعب له، وتؤدي إلى حرص النواب وممثلي الشعب على المحافظة على حقوق الشعب تجاهه[٢١]، حيث احتج نواب البولمان على الضرائب التي أحياها جيمس، والتي كانت مفروضة على الواردات في عهد إليزابيث، فتراجع جيمس عن موقفه[٢٢].

وتولي بعده شارل الأول؛ وكان له من العمر ٢٥ سنة، وكانت له نظريات والده في الحكم المطلق، ولم يعتبر نفسه مرتبط بأي تعهدات يأحذها حيال الشعب والبرلمان، وسرعان ما كرهه الشعب، فبعد أن تزوج بـ"هنريت الفرنسية"، احتفظ إلى جواره بدوق بكنجهام– صاحب الثورة الضخمة المبذر وصاحب الذمة الخربة–، وواصل عمليات اضطهاد البيوريتان وإهمال البرلمان، رغم عمله على فرض "قروض إجبارية".

حاول شارل الأول أن يكسب رضاء الشعب عن طريق إعلان الحرب على فرنسا ومعاونة البروتستانت الفرنسيين في لارشيل، ولكن أسطوله هزم، وجمع البرلمان وطلب منه ضرائب جديدة، ورفض النواب الموافقة على دفع "معوانات" إلا بعد تقديم التماس بحقوقهم،يُعرف بـ "الماجناكارتا" أو "العهد الأعظم"[*]، ولكن الملك قام في العام التالي بحل البرلمان، وحاول أن يمارس السلطة المطلقة، ولقد استمرت تجربة الحكم المطلق لمدة إحدى عشر سنة، لم يجتمع خلالها البولمان، وعمل الملك ومعانوه على ادخال كل الانجليز في المذهب الانجليكاني، كما عملول على فرض ضرائب تعسفية، وأنشأوا احتكارات على معظم السلع الضروررية، واستخدموا محاكم استئناف لعمليات المقاومة السياسية والدينية، وكانت أحكامها قاسية ومهنية، وأدى كل ذلك إلى زيادة الهجرة إلى أمريكا، وكانت هناك ضريبة تدفع في المواني على السفن أثناء فترة

الحرب، وعمل شارل الأول على جمعها بصورة مستمرة، حتى يساعده ذلك على إنشاء جيش، فنقض شروط العهد الأعظم.

نشبت الثورة في اسكتلندا نتيجة لمحاولة إجبارها – وهي برسبتارية بيوريتانية، على اعتناق المذهب الانجليكاني، ميثاقاً في عام ١٦٣٧م ثم كونوا جيشاً في العام التالي، وبدأوا في غزو شمال انجلترا، ورغم أن توحيد كل من اسكتلندا وانجلترا، كان على رأس الملك الذي كان يجمل تاجيهما، إلا أن شارل الأول كان يحكهما بنفس أعوانه، فوجئ الملك بهذه الثورة وهذا الهجوم، لم يكن لديه جيش، ولا أموال ينفق منها على هذا الجيش، فاضطر إلى عقد البرلمان بعد عامين من التردد، وقبل مناقشة "المعونة" أصر النواب على طلب تنفيذ شكاوي الأمة، وتنفيذ التعهدات التي كان الملك قد قطعها على نفسه.

حل الملك البرلمان قصير الأجل بعد ثلاثة اسابيع، وإذا كان أعوان الملك قد تمكنوا من جمع البرلمان من جديد، هو البرلمان طويل المدي، ولقد استمر اجتماع هذا البرلمان لمدة ثلاثة عشر سنة (١٦٤٠-١٦٥٣)م، وكان مصمماً على إنهاء ممارسة الملك للسلطة الإستبدادية، وعلى إدخال بعض التعديلات في نظام الكنيسة الانجليكانية في صالح البيوريتان، وكان هذا البرلمان تحت تأثير "بيم" الذي دفه به صوب الثورة، وتمكن هذا البرلمان من محاكمة "ستافورد" الساعد الأيمن للملك، بل ومن إعدامه عام ١٦٤١م، دون أن يتمكن الملك من انقاذه.

كما ألقوا القبض على الوزير "لود"، وسيتم إعدامه بعد أربعة أعوام، وبعد توجهيه هذه الضربة للوزراء، عمل أعضاء مجلس العموم على الاحتراس من الملك، وأعلنوا أنه لا يمكن فض اجتماع مجلسهم إلا بناء على رغبتهم، وتلي ذلك نشوب ثورة في أيرلندا المضطهدة؛ حيث قتل آلاف من البروتستانت، وعزى البرلمان نشوب هذه الثورة إلى توجيهات من الملك، وقدم له إعلاناً بكل ما قام به من مساوئ، وقرر أنه لا يمكن جمع أي جيش بدون موافقة البرلمان، وأنه من الضروري استشارتهم قبل تعيين الضباط، ولقد حاول الملك شارل أن يقوم بإنقلاب، فذهب إلى البرلمان لكي يقبض على بيم وبقية الزعماء المعارضين للسلطة المطلقة ولكنه وصل متأخراً، فهاج الرأي العام في لندن ضد الملك الذي اضطر إلى ترك العاصمة.

انجلترا والثورة الدستورية

لجأت الدول الأوربية في القرن السابع عشر إلى الملكية المطلقة لانقاذ البلاد من الإنحلال والفوضي، ولم يخرج عن هذا الإجماع إلا انجلترا التي تمسكت بالحرية والعمل، ومن أجل انقاذ الأنظمة الدستورية من يد الملكية التي حاولت القضاء على التقاليد والحقوق الموروثة وتحويل الملكية المحدودة السلطة إلى ملكية مطلقة، حين حاول ملوك أسرة ستيورات التي تولت الحكم في بداية القرن السابع عشر أن يحكموا بغير برلمان، يفرضوا الضرائب على الشعب بإرادتهم، ويديروا الشئون الخارجية من غير مراقبة، على نحو ما كان يفعل ملوك أسرة تيودور السابقة، هذا فضلاً عن أسرة ستيورات عملت على نشر المذهب الانجليكاني، متناسية انتشار المذاهب البروتستانتية في انجلترا. ومن ثم جاء النضال بين الملكية والبرلمان؛ وكان ذلك في عهد الملك جيمس الأول (١٦٠٣-١٦٢٥)م، فقد تولي هذا الملك الحكم على أثر وفاة الملكة إليزابيث، وكان يشغل منصب ملك اسكتلندا من أسرة ستيوارت، وباعتلائه العرش ارتبطت المملكتان (بريطانيا واسكتلندا) ارتباطاً قوياً، جعل من بريطانيا وحدة يحميها المحيط وتمسك هذا الملك في بداية حكمه بمبادئ السلطة المطلقة ؛ فيما عُرِف بنظرية الحكم الإلهى(*)، ودعا لهذه الفكرة في كتاب فلسف فيه أفكاره السياسية؛ التي كانت هي مبادئ الملكية المطلقة غير المسئولة أمام المجالس التمثيلية على أنها الضمان الوحيد لإسعاد الشعب.

ومع أنه كان يعتز بالكنيسة الإنجليكانية لتوطيد سلطته، فقد حاول أن يمنح الكاثوليك حرية العقيدة مقابل ولائهم وتأييدهم للملكية، إلا أن الكنيسة وأنصارها في البرلمان عارضوا ذلك، على أنها تتعارض والقانون الانجليزي العام، ولما اضطر إلى تنفيذ القوانين المفروضة على المخالفين، تأمر الكاثوليك على نسف البرلمان بمن فيه يوم افتتاح جلساته العادية في الخامس من نوفمبر ١٦٠٥م، ولكن المؤامرة كُشفت مما حرم الكاثوليك جميع الحقوق المدنية، والدخول في الوظائف العامة، فاعتنق الكثيرون من أنصار الكنيسة الإنجليكانية ذات الصبغة الكاثوليكية مذهب البيوريتان، الذين كانوا ألد أعداء البابوية، وأصبح البيورتان يثيرون بين الملكية والشعب، فتعقبهم الملك بالنفي والتشريد سنين طويلة، ولكن بعضهم أقام حرباً شعواء على الملكية تأييداً لمذهبهم،

ودفاعاً عن مبدأ الحكم الذاتي للكنائس، وهو مبدأ من شأنه أن يهدم أصول الملكية المطلقة، ويرفع لواء حرية العقدية مادامت الكنيسة مستقلة لا علاقة لها بالدولة[٢٤].

ومن ناحية أخرى استاء الانجليز من سياسة "جيمس الأول" الخارجية خاصة فيما يتعلق بتنمية العلاقة مع إسبانيا الكاثوليكية متجاهلاً العداء الذي طالما أعلنه الانجليز للإسبان، وهكذا زاد الخلاف بين مجلس العموم والملك، وظل هذا الخلاف محتدماً حتى موته في عام ١٦٢٥م، حيث تولي العرش إبنه "شارل الأول" (١٦٢٥-١٦٤٩)م الذي تدهورت العلاقة بسرعة بينه وبين البرلمان، فشارل الأول سعي من البداية لتأكيد العمل بدون برلمان، وبقيت انجلترا تحت سيطرة حتى عام ١٦٤٠م، كان من نتائج ذلك دفع الشعب إلى القيام بثورة أطاحت به في نهاية الأمر، وهكذا الحرب الأهلية التي بدأت ١٦٤٢م[٢٥]. اعتمد الملك على الانجليز والكاثوليك وبعض السادة، واستند إلى المناطق الشمالية والغربية، أما البرلمان فقد اعتمد على شرق انجلترا وجنوبها، وكان يخطي بتأييد البورجوزايين ورجال الصناعة والتجار وأصحاب السفن والبيورتيان والمستقلين، وتعاهد الإنجليز والأسكتلنديين على أن يعيشوا أخوة هذه الإتجاه البابوي، وظلت المعاهدة لمدة ثلاثة سنوات، وتمكنت قوات الملك المسماة بالفرسان من إحراز انتصارات أولية، حيث كان جيش البرلمان غير منظم، ولكن ظهر أثناء الحرب القائد "أوليفر كروموبل" عضو مجلس العموم الذي استطاع إنشاء جيش قوي جديد به تمكن من إنزال هزيمة ساحقة بجيش الملك عام ١٦٤٥م في تازيبي، وحاول الملك تكوين جيش جديد، ثم ذهب إلى معسكر الأسكتلنديين لمساعدته بصفة ملكهم، ولكنهم طلبوا منه الانضمام إلى الميثاق، وحين رفض قاموا بتسليمه للإنجليز نظير مبلغ ٤٠٠ ألف جنيه فانتهت بذلك الحرب الأهلية[٢٦].

وقبل نهاية عام ١٦٤٦م كانت أغلب انجلترا تحت سيادة البرلمان، وقد قرر كروموبل وأنصاره عدم التسامح مع الملك، وتشكلت محكمة خاصة كان أعضاؤها من أشد الناس حقدا أو كراهية على الملك شارل الأول، فقررت تلك المحكمة إعدامه في ١٦٤٩م، وفي لندن أعلن البرلمان انجلترا جمهورية تعرف باسم "رابطة الشعوب البريطانية" تشمل انجلترا وأسكتلندا وأيرلندا والجزر الغربية المجاورة، ولم يكن كروموبل مستعداً للتساهل في قضية وحدة البلاد، ولهذا السبب واجه بعنف التمرد في أيرلندا،

وحارب المتمردين الكاثوليك عدة سنوات حتى تم اخضاعهم، وقد اختار مجلس العموم كروموبل في أواخر ١٦٥٣م رئيساً للدولة مدي الحياة، وقد حكم كروموبل البلاد حكماً استبداديمعتمداً على قدرته السياسة وجيشه القوي حتى وفاته في عام ١٦٥٨م[٢٧].

الجمهورية

بعد إعدام الملك أعلن البرلمان ذو العدد البسيط من الأعضاء، أن الأمة هي صاحبة السيادة، وألغي النظام الملكي وأعلن الجمهورية، وألغي كذلك مجلس اللوردات، وأصبحت حكومة تتكون من مجلس العموم ومن مجلس الدولة، الذي يشمل على أربعين عضواً، ينتخبهم مجلس العموم، ولهم السلطة التنفيذية، وأصبح كروموبل عضواً في مجلس الدولة، وظل هذا النظام مدة أربعة سنوات، وتم عهده إرسال حملة إلى أيرلندا، والقيام بحرب ضد الأسكتلنديين، كما صدر قانون الملاحة، وكذلك الحرب ضد هولندا. أما الحملة ضد أيرلندا فقد استمدت إلى نشوب الثورة هناك سنة ١٦٤١م، وقام كروموبل بقيادة هذه الحملة، واشتد في القسوة في معاملة الكاثوليك هناك، بشكل لم يعرف من قبل ولا من بعد: فكانت المذابح عامة، وأُسرت النساء والبنات بالمئات، وباعوهن كرقيق لأمريكا، ونزعت ملكية الأراضي من الأيرلنديين، في صالح المعمرين الانجليز الذين جاءوا لاحتلالها، ولم يترك لهم سوي سدس مساحة الأراضي، ودفعوا بهم إلى مستنقعات الغرب، وتحول الكثير منهم إلى عمال زراعيين للسادة الانجليز، وعلى أرضهم نفسها، وأما حرب الأسكتلنديين فأنها كانت تهدف إلى طرد "شارل الثاني" ابن شارل الأول من هناك، واجبار الأسكتلنديين على إنشاء جمهورية تتحد مع جمهورية انجلترا، وتمكنت قوات كروموبل من احتلال ادنبرة، واضطر الأسكتلنديين إلى قبول الإتحاد مع انجلترا سنة ١٦٥١م.

وبعد هذه الانتصارات وافق البرلمان على قانون الملاحة؛ وهو الذي نص على أنه لا يمكن للسفن الأوربية التي تأتي إلى إنجلترا أن تحمل إلا منتجات بلادها، أما سلع آسيا وأفريقيا وأمريكا فلا تصل إلا على سفن إنجليزية، وترتب على هذا القانون الذي ظل معمولاً به حتى منتصف القرن التاسع عشر، أن اضطر الانجليز إلى أن يذهبوا بأنفسهم لاحضار المنتجات اللازمة لهم، الأمر الذي أدى إلى إنشاء الأسطول واستمرار نموه، مما أدى إلى ظهور القوة البحرية الإنجليزية، ولقد تسبب هذا القانون في

نشوب الحرب مع هولندا، خاصة وأن الهولنديين كانوا يعملون في النقل البحري، واستمرت الحرب لمدة عاميين(١٦٥٢-١٦٥٤)م، ولم يتمكن الهولنديون من الانتصار، فتم عقد الصلح بين الدولتين. وفي ذلك الوقت نشأ خلاف جديد بين مجلس العموم وبين الجيش وحاول المجلس حل الجيش، ولكن كرمويل قرر حل البرلمان، وفي اليوم الذي كان سيعرض فيه قانون حل الجيش، فقام كروموبل بمساعدة عدد من رجال الجيش، بطرد أعضاء المجلس بالقوة وأقفل بابه بالمفتاح، وكتب الجنود عليه "للإيجار، وبدون فرش"، فأصبحت انجلترا في أيدي الجيش، وأصبح لقب كرمويل هو حامي الجمهورية في عام ١٦٥٣م، ومارس كروموبل لمدة خمس سنوات وحتى وفاته عام ١٦٥٨م سلطات دكتاتورية فعلية، وأصبح نتيجة لاستناده إلى الجيش ذا سلطة مطلقة، أكثر مما كان عليه شارل الأول، ولم تكن هناك أية معارضة أمامه، وحل أربع برلمانات بمجرد شعوره ببعض الإتجاهات الإستقلالية فيها، ولم تتحرك انجلترا؛ إذا أنها أصبحت خاضعة لحكومة عسكرية، وفي عام ١٦٥٧م عرض عليه البرلمان لقب ملك، ولكنه رفضه ثم عاد واختار ابنه خليفة له من بعده فأصبح ملكا وراثيا بالفعل، إن لم يكن بالشرع. اتبع كرمويل سياسة خارجية نشطة، ارضت الانجليز وجعلتهم يتحملون نظامه الدكتاتوري، وكان أهم جزء فيها هو تحالفه مع فرنسا ضد إسبانيا، هو التحالف الذي سمح لفرنسا بالانتصار على الإسبانيين وأعطي دنكرك وجمايكا في جزر الآنتيل لانجلترا، وكان كروموبل يرغب في أن تصبح انجلترا من جديد، وكما كانت في عهد إليزابيث، حامية المذهب البروتستانتي، وطلب أهالي الفود في سويسرا تدخله، وكفي توجيه أنذار منه لدوق سافوا لكي يوقف عملياته ضدهم، وأخذت أساطيل إنجلترا تظهر هيبتها في البحر المتوسط أمام تونس، وأمام الجزائر وحين توفي كروموبل عام ١٦٥٨م، أصبح ابنه ريتشارد كروموبل، حامياً للجمهورية من بعده، ولكنه استقال بعد ثمانية أشهر من الحكم في شهر مايو عام ١٦٥٩م، مما أدى إلى عودة حكم أسرة ستيوارت.

عودة حكم أسرة ستيوارت

بعد سنة من الفراغ السياسي طلب من شارل الثاني بن شارل الأول العودة إلى عرش البلاد (١٦٦٠-١٦٨٥)م، ولقد تميز حكم شارل الثاني بظهور المسالة الدينية

من جديد، وبذلك الصراع الذي قامت به الكنيسة الانجليكانية ضد البيوريتانية، وخاصة وأن شارل الثاني كان من أنصار الكاثوليك، والتي كان الانجليز يحاربونها في الداخل والخارج وكان البرلمان من أنصار الأنجليكانية فأخذ قرارات ضد البيوريتان، وأجبر موظفي الدولة على القسم بإلاخلاص للكنيسة الأنجليكانية، وحرم البيوريتان من تقلد وظائف الحكومة، وأصدر بعد ذلك قانون وحدة العقيدة، ورغم ذلك فإن شارل الثاني ظل يحابي الكاثوليك وظل في حاجة إلى المال، وباع (دنكرك) لملك فرنسا لويس الرابع عشر فى عام ١٦٦٢م، بعد أن كان كرومويل وحصل عليها، وذلك نظير مبلغ خمسة ملايين جنيه ونتيجة لاستمرار حاجته إلى المال أعلن شارل الثاني الحرب على الهولنديين ١٦٦٤[٢٨].

ومن القوانين التي أصدرها البرلمان "قانون هابيس كوربيس" وبمقتضاه يكون غير قانوني أن يسجن شخص ما دون أن يسمح له في مدة وجيزة بالدفاع عن نفسه أمام المحاكم، ولما كان شارل لا يمكن إخلاصاً للبروتستانتية فإنه في عام ١٦٧٠م عقد "معاهدة دوفر" السرية مع لويس الرابع عشر ملك فرنسا الكاثوليكي، وأعلن نفسه كاثوليكياً ، ووعد لويس الرابع عشر بمساعدته في حروبه ضد هولندا مقابل المبلغ الطائل الذي قدمه له لويس، ووعده لويس بالمساعدة إذا ثار عليه الشعب بسبب تغيير مذهبه، ولما نشبت الحرب بين لويس الرابع عشر وهولندا، اضطر شارلي الثاني إلى إعلان الحرب ضد هولندا عام ١٦٧٤م، والتي انتهت بتغيير قانون الملاحة في صالح هولندا، وأخذت انجلترا من هولندا "نيو أمستردام" في أمريكا، وأطلقت عليها اسم نيويورك وانسحب من الحرب، وفي عهد شارل الثاني ظهرت الأحزاب في انجلترا، فتألف في ذلك الوقت حزبأن هما:-

- ✶ حزب التوري "Tories" كان يتألف من كبار المزارعين وأصحاب الأراضي وساكني الريف، وعرف فيما بعد بالمحافظين، وكان من راية اضطهاد وجميع المذاهب الخارجية من كنيسة انجلترا الإنجليكانية الرسمية، وتمسك اعضاء الحزب بحق الملك بوراثة العرش.
- ✶ حزب الهويج "Whige" يتألف من التجار وأصحاب رؤوس الأموال وسكان المدن، وعرف فيما بعد بحزب االأحرار، وكان من راية التسامح الديني للمذاهب البروتستانتية

الأخرى، وأمام صراع الحزبين في البرلمان حل الملك البرلمان، وحكم البلاد بمجلس من الخبراء والمستشارين وكان الحزبان ضد الكاثوليك، ولكن شارل الثاني مات في عام ١٦٨٥م،وهو معلناً ديانته الحقيقية وهي الكاثوليك.

خلف شارل الثاني بعد وفاته أخوة جيمس الثاني في ١٦٨٥م والذي كان كاثوليكياً مخلصاً، وكان أغبي من أن يدرك التحديد الخفي الذي يحد من سلطة الملكية في انجلترا عاد النزاع القديم بين البرلمان والملك حدته الأولي، ونصب جيمس نفسه لارغام مملكته على العودة إلى الاتحاد الديني مع روما، أعلن شارل الثاني تصريح التسامح ضد المذاهب المنشقة للبيوريتان، وللكاثوليك وتقرب الإنجليكان من البيوريتان، خوفاً من المذاهب الكاثوليكي، فاضطر الملك إلى التراجع في تصريح التسامح الذي كان قد أعلنه، ولكي يثبت الملك ارتباطه بكنيسة انجلترا زوج إبنة أخيه الكبري من "وليم أورانج الهولندي" وعدو لويس الرابع عشر في عام ١٦٧٤م، ثم أعلن الحرب على فرنسا عام ١٦٧٧م، وانتهز الإنجليكان المؤامرة التي كانت تحدث لتوجيه ضربات قوية للكاثوليك في إنجلترا.

وحاول شارل الثانى أن يفض البرلمان، ويعيد انتخابه، ولكن المجلس الجديد أظهر تشدد أكبر، وصادر ممتلكات "دوق يورك" أخو الملك، الذى كان اعتنق الكاثوليكية، ولكي يدافع البرلمان عن نفسه أصدر قانوناً يمنع احتجاز أوسجن أي فرد لمدة أربعة وعشرين ساعة دون تقديمه للمحاكمة، تأميناً لأنفسهم من رجال الحكومة والسلطة التنفيذية، ولكن البرلمان انقسم على نفسه بين مجموعتين: "التوري" وهم أنصار سيطرة الملك على الحكومة، و"الويجز" وهم أنصار سيطرة البرلمان على اتجاهات الملك، وكان ذلك أساساً لظهور حزبي انجلترا الشهيرين، وظل شارل الثاني يحكم حكماً مطلقاً حتى وفاته عام ١٦٨٥م، وكان قد تحول إلى الكاثوليكية دون أن يعلم أحد.

وتولي الملك بعده أخوه جيمس الثاني، وكان كاثوليكياً وحاول أن يعيد إنجلترا إلى المذهب الكاثوليكي، وكان لا يخفي مذهبه، ويشارك في إقامة الصلوات، مما أثار قلق الانجليز، ولقد كون جيمس الثاني قوياً، وعمل على إرهاب البلاد به، كما عين الكاثوليك في مناصب رئيسية في الكنيسة الإنجليكانية، وسمح لليسوعيين بالدخول إلى إنجلترا، وأقام علاقات ودية مع البابوية، أظهرت خضوعه للبابا[٣١]، وكان الإنجليكان

قد صبروا على شارل الثاني ثم صبروا بعد ذلك على جيمس الثاني، وعلى أساس أن كلا من إبنته قد تزوجت بأمير بروتستانتي: الكبري من "وليام أورانج الهولندي" والثانية من "جورج" أخو ملك الدنمارك، ولكن جيمس الثاني تزوج من جديد عام ١٦٨٨م، من أميرة إيطالية كاثوليكية ووضعت له إبناً ، الأمر الذي جعل الوراثة تسير صوب هذا الأمير الكاثوليكي قبل أختيه، ولذلك فإن كبار اللوردات والإنجليكان والبيوريتان والويجز والتوري دعوا الأمير وليام أورانج بعد عشرة أيام من ميلاد ولي العهد للتدخل من أجل إعادة الحرية وحماية المذهب البروتستانتي، وكان أورانج يخشي من تدخل لويس الرابع عشر ضده من الجنوب، ولكن سرعان ما اتجهت القوات الفرنسية صوب منطقة الراين في الشرق مما أطلق حرية الحركة لوليام أورانج للتدخل في إنجلترا(٣٢).

وإذا بجيمس الثاني في عام ١٦٨٨م يتخذ طريق الهرب إلى فرنسا على أن اللوردات الكبار والتجار والجنتلمانية كانوا في هذه المرة أحرص من أن يسمحوا بأن يقذف بهم هذا التمرد على الملك إلى أيدي كولونيل برايد آخر أو كروميل آخر، وبحضور وليام أورانج تم التغير سريعا(٣٣)، كما تبني جيمس الثاني سياسة لا تتفق مع الانجليز، فقد تبني الكاثوليكية والملكية المطلقة والتعاون مع لويس الرابع عشر، وقرر البرلمان خلع الملك وعودة ابنته ماري إلى العرش(٣٤)، وهكذا عجلت سياسة جيمس الثاني بغرض الكاثوليكية على رعاياه بطريقة غير دستورية بوقوع الثورة، وفي ١٦٨٨م استطاع وليام أن يقضي على المقاومة الكاثوليكية والسنة التالية تم انتخابه ملكاً على انجلترا مع زوجته ماري وأصبح يعرف بـ "وليام الثالث"، وهكذا بمجئ وليام الثالث زالت أسرة ستيوارت من إنجلترا نهائياً ، وقد أكدت الثوة دعائم الحكم الملكي الدستوري، ونظر إليها الإنجليز كثورة تمثل نجاحاً سياسياً دستورياً جعلت الشعب مصدر السلطات؛ لأن الشعب ممثلاً في البرلمان هو الذي استدعي وليام ماري للحكم في البلاد(٣٥).

وفي ١٦٨٩ أصدر البرلمان لائحة الحقوق"Bill of Rights" ثم أصدر في عام ١٧٠١م "قانون التسوية" "Act of Settlement والذى يعتبر من مصادر الدستور البريطانى الذي منع جيمس وذريته الكاثوليكية من ارتقاء عرش انجلترا، وأعلن أن حق الملك في العرش مستمد من إرادة الشعب الممثل في البرلمان الذي أصبح من حقه نقل التاج حسب المصلحة، كما أصدر في العام نفسه قانون حرية العبادة للطوائف

الكاثوليكية والبرويستانتية دون الكاثوليك وقانون التسامح الديني الفعلى وإبعادهم عن المشاكل والخلافات الدينية، ومنذ ذلك الوقت دخلت إنجلترا في دور تاريخي جديد[٣٦]، انتقل العرش إلى "آن" (١٧٠٢-١٧١٤)م أخت ماري، ويلوح أن "آن" كانت تنتظر بعين العطف إلى عودة الملك إلى أسرة ستيوارت، ولكن اللوردات والعموم الذين كانوا عند ذاك المسيطرين على الشئون الانجليزية، فضلوا أن يليهم ملك أقل كفاءة[٣٧].

انجلترا في القرن الثامن عشر

✶ **"أسرة هانوفر":**

كانت ثورة عام ١٦٨٨م قد أكدت سيادة الشعب الانجليزي، وكانت قد اختارت وانتخبت الملك "وليم أورانج" والملكة "آن"، وفرضت عليهم أن يتعهدوا بالقسم على احترام الحقوق المحددة في تصريح رسمي، وكان على الملك طبقا لهذا التصريح ألا يوقف سريان القوانين وألا يفرض ضرائب، أو بجند ويحتفظ بجيش دائم وقت السلم دون موافقة البرلمان، ونص على أن تكون اجتماعات البرلمان ومناقشاته حرة، وكانت كل أسس النظام البرلماني[*] موجودة في هذا التصريح، واضطر الملك، في أوائل القرن الثامن عشر إلى احترامه، خاصة وأنهم كان من أسرة حاكمة جديدة، هي أسرة "هانوفر"، والتي لم تكن لها جذور في البلاد وعند موت الملكة آن، تحول التاج إلى أسرة هانوفر، الذي كان حفيداً لجيمس الأول عن طريق والدته، وأصبح "جورج الأول" ملك انجلترا عام ١٧١٤م، ولقد أدى ذلك إلى نشوب ثورة في أسكتلندا ملتفة حول "جيمس الثالث"، تمكن الإنجليز من القضاء عليها، ولكنها كانت في غاية الأخمية بالنسبة لإنجلترا؛ حيث سهل ذلك عملية تدعيم النظام البرلماني.

لقد وصل جورج الأول إلى الملك وله من العمر ٥٤ سنة، وكان ألمانياً لا يتحدث الانجليزية، وكان يتحدث مع وزرائه باللاتينية، أما ابنه جورج الثاني فكان يفهم الانجليزية ولا يقدر التعبير بها، وظل كل منهما منتمياً لـ "هانوفر"، أكثر مما يفكر في انجلترا، وربما نظروا إلى إنجلترا على أنها من ملحقات "هانوفر"، وساعد كل ذلك على قلة حضورهم اجتماعات ومداولات مجلس الوزراء، وتركوا الوزراء يحكمون بأنفسهم بعد ست وثلاثين عاماً من هذا الغياب الملكي تدعم التقليد بأن "الملك يملك ولا يحكم في انجلترا.وكان في انجلترا حزبين كبيرين؛ هما حزب الويجز وحزب التوري، وقد سبقت

الإشارة إلى هذين الحزبين، وكان من المنطقي أن يحاول الملوك الإستناد إلى حزب التورى، ولكن الكثير من بين أعضاء هذا الحزب كان يشك في أنهم على صلات بأسرة "ستيوارت"؛ ولذلك فإن ملوك أسرة "هانوفر" تركوا السلطة في أيدي حزب الويجز، الأمر الذي أدى بالتالي إلى تحطيم السلطة الملكية نفسها، ولقد احتفظ الويجز بالسلطة خلال ما يقرب من نصف قرن بدون انقطاع خلال الفترة (١٧١٤ – ١٧٦٠)م وحتى وصلول جورج الثالث إلى العرش، وكان أشهر وزرائهم هم (ستانهوب، والبول، ووليام بيت) ولقد اتبع ستانهوت سياسة سلام خارجي وتحالف مع فرنسا عام ١٧١٧م، أما في الداخل فقد أصدر قانوناً زاد فيه انعقاد البرلمان من ثلاث إلى سبع سنوات، مما أعطي استقرار المثلي الأغلبية البرلمانية للبقاء في الحكم، وكانت من حزب الويجز.

أما "روبرت والبول" فإنه استمر في الوزارة مدة إحدى وعشرين عاماً وكان من كبار الملاك العقاريين، وسار على سياسة في صالحهم، فعمل على استقرار السلام الداخلي، ورغم أن كل الدول كانت تسير على سياسة الحماية الجمركية في ذلك القوت، وأقفلت على نفسها الأبواب والنوافذ، اتبع والبول سياسة حرية التجارة أو حرية التبادل؛ فأعطي حرية التجارة للمستعمرات، وشجع اسيتراد المواد الأولية للصناعة إلى انجلترا، كما شجع على تصدير المصنوعات، الأمر الذي أدى إلى اذدهار بريستول وليفربول ومانشستر وبرمنجهام، وضاعف حجم صادراتها للخارج، وضاعف من الإزدهار، ولكن فترة حكمه تميزت من ناحية أخرى بالإنحراف، وبخاصة في عملية شراء أصوات الناخبين، وتميزت كذلك بإفادة كل من فرنسا وإسبانيا من هذه القرارات لكي يزيدوا من حجم المراكز الانجليزية، وحين انتهت فترة حكمه، كان الإنحراف قد ازداد، وظهر في شكل خلاعة وإسراف في الشرب، وشراء الذمم وفي الرشاوي؛ الأمر الذي ساعد على قيام "الميثوديست" في انجلترا من ناحية، وإلى انتقال السلطة الوزارية إلى أيدي مجموعة من الشبان من حزب الويجز بزعامة وليام بيت، من ناحية أخرى. وكان وليام بيت لايقتنع بمجرد تفوق بريطانيا، بل أنه سار مع انتشار الموجة الأخلاقية والوثنية الجديدة، صوب صورة توجيه ضربات قوية لمنافسي انجلترا، والعمل على تحطيمهم وبخاصة فرنسا، ولقد وصل إلى الوزارة في سنة١٧٥٧م، وكان الفرنسيون يوجهون ضربات لانجلترا في البحر المتوسط وكندا وألمانيا، وبشكل يهدد بغزو انجلترا نفسها،

وحين ترك الوزارة بعد أربع سنوات، في أكتوبر ١٧٦١م، كانت انجلترا قد أخذت من فرنسا كندا والهند والجزء الأكبر من مستعمراتها.

✶ **نظام الحكم:**

عند وفاة جورج الثاني عام١٧٦١م، لم يكن هناك أي نص دستوري جديد قد أضيف إلى العهد الأعظم عام ١٢١٥م، وعلى مطالب الحقوق في عام ١٦٢٨م، وإعلان الحقوق عام ١٦٨٨م، ولكن التقليد كان قد إتضح بأن نظام الحكم في انجلترا موزع بين الملك والوزراء والبرلمان، وكان الملك الذي هو الذي يعين الوزراء وكبار الموظفين وكبار الضباط طبقا لتوجيهات الوزراء، كما كان يصدق على القوانين المالية، وكانت الأخطاء في حالة حدوثها ترجع إلى الوزراء، فكان الملك إذا "غير مسئول". كان الملك يختار الوزراء من بين أعضاء البرلمان الذين يدخلون إليه ويناقشون فيه، وكان من الطبيعي أن يكونوا من حزب الأغلبية ويحظون بتأييدها، وكان لمجلس الوزراء رئيس ظن هو في الغالب زعيم حزب الأغلبية في البرلمان، وكان على الوزارة حل البرلمان، كما كان من الممكن محاكمة الوزارة أمام مجلس الشيوخ، وفي حالة انتخاب نواب معادى للوزارء من مجموعة الأغلبية في البرلمان هو نظام الحكم البرلماني، أي حكم البلاد برؤساء أغلبية نوابها.

كان البرلمان يجتمع في لندن في قصر وسيتمنستر، وظلت مناقشات سرية حتى منتصف القرن الثامن عشر، ثم أصبحت علنية، وكان البرلمان يضم مجلس اللوردات، ومجلس العموم؛ وكان مجلس اللوردات بالتعيين من جانب الملك، وكان الملك هو الذي يمنح ألقاب النبل، أما مجلس العموم فكان يضم نواباً عن الأقاليم، وآخرين عن المدن وعلينا أن نذكر أن نظام الانتخابات لمجلس العموم كان لايعطي تمثيلاً صحيحاً للبلاد، إذا كان لا يشترك في انتخاباته سوي الملاك الأحرار والبوجوازيون الأحرار، وكان التغير الاجتماعي الذي حدث مع عمل بعض الأهالي في الصناعة، وقلة أهمية بعض المدن، وقلة عدد سكانها وزيادة عدد سكان مراكز عمرانية جديدة، يتطلب القيام بإصلاح لتخابي حتى يكون التثميل صحيحاً[٣٩]، فقد دخلت انجلترا السنوات السبع (١٧٥٦-١٧٦٣)م. كان "صلح اكس لاشايل" بمثابة هدنة بين فرنسا وانجلترا بشأن المستعمرات، والمنافسة الاستعمارية التي كانت قائمة بين فرنسا

وانجلترا في الهند وفي أمريكا، ففي عام ١٧٥٧م أرسلت انجلترا جيشاً من المرتزقة الألمان لمحاربة فرنسا على سواحل نهر الراين، فاضطرت فرنسا إلى سحب قواتها، وخرجت انجلترا من حرب السنوات السبع أولي الدول الإستعمارية، بسبب انتصاراتها التي حققتها في عرض البحار، وبسبب مساعدتها لروسيا، ونتيجة للملل الذي أصاب فرنسا، فقد وقعت على مفاتحات مبدئية للصلح مع انجلترا، الأمر مهد للتوقيع على "معاهدة باريس" في العاشر من فبراير عام ١٧٦٣م.

- **جورج الثالث وسياسته:**

لقد ساعدت ظروف انتخاب مجلس العموم على تلك المحاولة الرجعية لإعادة السلطة الشخصية للملك، وهي المحاولة التي قام بها جورج الثالث خلال الفترة (١٧٦٠-١٧٨٣)م، وكان جورج الثالث هو حفيد جورج الثاني، وكان مختلفاً عن سابقيه، فكان له من العمر اثنتي وعشرين عاماً حين تولي الملك، وكان له ولد وتربي في انجلترا، فكان إنجليزياً في كل شئ، وكانت والدته تدفعه إلى أن يعطي الملك هيبة جديدة، ويتدخل في كافة شئون البلاد، ويكون رغم أنه فوق الأحزاب، هو رئيس الوزراء الفعلى، وكانت كل مجهودات جورج الثالث تهدف إلى انهاء سلطة الحكومة البرلمانية، ومحاولة إقامة حكومة شخصية. استطاع الملك فى عام ١٧٦٠م أن ينشئ لنفسه حِزباً سياسياً وسّماه أصحاب الملك، لكن سرعان ما انهار الحزب، لعدم مصداقيته لدى الشعب، وفى عام ١٧٧١م قام البرلمان بإصدار قراراً بطبع جلسات محاضرة، وفى عام ١٧٨٢م اكتمل النظام البرلمانى فى بريطانيا، حيث تقرر فى هذا العام المسئولية التضامنية للوزراء، ومما يؤكد قوة البرلمان فى عهد الملك جورج الثالث هو اصدار قانون بعدم زواج أفراد الأسرة المالكة بدون موافقة الملك أو البرلمان ثم استعان جورج الثالث في ذلك بحزب التوري، الذي كان نفوذه قد تضاءل، واضطر إلى التسليم لأسرة هانوفر حتى يصل إلى الحكم الذي ظل بعيداً عنه أكثر من سبعين سنة ، وكانوا من أنصار المحافظة على امتيازات الملك ، ويطبقوا نظريتهم في الحكم ، كما أن جورج الثالث استخدم الرشوة في شراء الناخبين، ولقد طبق جورج الثالث هذا الإتجاه منذ أول حكمه، ولكنه لم يصل إلا بعد تسع سنوات أي في عام ١٧٧٠م إلى أن تكون له وزارة

تابعة له بمعني الكلمة، وكانت برئاسة "لورد نورث" الذي احتفظ بالحكم لمدة اثنتي عشر عاماً (١٧٧٠-١٧٨٢)م.

ولكن هذه السياسة الشخصية والمستبدة كانت لها آثاراً سيئة في الخارج؛ فتسببت في عدم الرضاء، ثم المقاومة (١٧٦٥-١٧٧٤)م كتمهيد للثورة، ولفقد السمتعمرات في أمريكا الشمالية، وهي التي ستتحول بتأييد من فرنسا إلى الولايات المتحدة الأمريكية (١٧٧٤-١٧٨٣)م، وكانت لها آثاراً سيئة في الداخل، وأثارت معارضة وطنية قوية ضد الإتجاهات الملكية الجديدة، الأمر الذي أدى إلى نمو الصحافة وإلى إثارة فكرة ضرورة القيام بالإصلاح النظام الانتخابي، وفي أثناء الحرب الأمريكية ونتيجة لسياسة الملك الشخصية، حدث تغيير في تكوين الأحزاب فانضم بعض الويجز لحزب التوري والعكس. كما قامت تكتلات في مجلس العموم، بين بعض الويجز وبعض التوري، وتمكنت إحدى هذه التكتلات، والتي كانت تحت زعامة الويجز، من إسقاط وزارة "لورد نورث" في عام ١٧٨٢م، وقام الملك بتكليف "بيت الصغير" إبن لورد شاتام بتشكيل الوزارة، وحين وجد معارضة من مجلس العموم، وكان يستند إلى إرضاء الملك، وإلى محبة الأهالي له شخصياً، قام بحل مجلس العموم، وأجري انتخابات جديدة في عام ١٧٨٤م، وأعطته الأغلبية وضمنت له الوزارة لمدة تقرب من عشرين عاماً، وهي الوزارة التي ستدخل انجلترا في حرب إبادة ضد فرنسا وثورتها.

الفصل التاسع

تاريخ روسيا الحديث

روسيا في عهد بطرس الأكبر

يقول الرحالة الغربيون الذين زاروا روسيا في القرن السابع عشر؛ أن المجتمع الروسي كان يتسم بحياة مستهترة لا نظام فيها، ففي حين كانت أوروبا تنعم بثمار النهضة ومباهج المجتمع الراقي، كان رعايا قيصر روسيا في ظلام العصور الوسطي، وكانت روسيا أكثر دول أوربا رجعية، وكانت تسيطر عليها مفاهيم القرون الوسطي، وينتشر فيها الجهل الاجتماعي والخرافات.

وقد زاد الموقع الجغرافي في عزلة روسيا، إضافة إلى سيطرة الأتراك على البحر الأسود، ودولة السويد على شواطئ بحر البلطيق، بينما كانت بولندا على التخوم الغربية تقف ضد التوسع الروسي تجاه الغرب، وقد كانت الملكية في السويد تدرك جيداً أن روسيا ينبغي أن لا تحصل على فرص تمكنها من الاتصال المباشر مع مراكز الحضارة الأوربية حتى لا تتطور، وبالتالي تستطيع السويد أن تحتفظ بهيمنتها على شواطئ البلطيق الجنوبية، وهذا يبين أن الطرق القصيرة التي تصل بين روسيا وأوروبا لم تكن مستخدمة على نطاق واسع، وهكذا كان "ميناء أركانجل" كبير الأهمية بالنسبة لروسيا وهو ميناء يقع على المحيط المتجمد الشمالي، وبالتالي كان يغلق لفترات ليست قصيرة خلال فصل الشتاء نظراً لتجمد المياه(١).

عاش الشعب الروسي السلافي في سهول أوروبا الشرقية مختلفاً في ثروته الاقتصادية ومعارفه ومدينته، وقد تأثر الشعب الروسي بالكنيسة البزنطية، فاعتنق منذ القرن التاسع الديانة المسيحية على مذهب الأرثوذكس، ويبدأ تاريخ روسيا الحديث منذ إعتلاء "بطرس الأكبر" "Peter the Great" (١٦٧٢-١٧٢٥)م العرش، وهو من أسرة رومانوف التي استمرت تحكم روسيا حتى قيام الثورة البلشفية(٢).

وصل بطرس إلى عرش القيصرية في عام ١٦٨٢م، وكان له من العمر تسع سنوات وتميز بالذكاء، وكان من المفروض أن يظل تحت وصاية والدته، ولكن إحدى إخواته "صوفية" استولت على هذه الوصاية، واحتفظت بها مدة سبع سنوات، وأرسلته أخته إلى إحدى القري القريبة من موسكو، والتي كانت مخصصة للإقامة الإجبارية

للأجانب، وكانت تضم السفراء والتجار والباحثين عن الوظائف في روسيا، وكان يقيم فيها عدد من الألمان والهولنديين والأسكتلنديين، ولقد أثر ذلك على تربية بطرس، وعلى تفتح آفاق فكرة منذ صغره، وفي عام ١٦٨٩م عرف بطرس أن أخته – التي تدير شئون الدولة والحكم– قد أعطت لنفسها لقب القيصرية، وأنها أعلنت عزمها على الاحتفاظ به، فقام بمساعدة أعوانه بالهجوم عليها، وحبسها في احد الأديرة، واستولي على الحكومة.

كان اتصال بطرس بالأوربيين في موسكو من أهم أحداث صباه، والعامل المقرر في حياته كلها، فلقد تعلم عنهم بعض الألمانية والهولندية، ومبادئ العلوم والحساب والهندسة، واستكشف عن طريقهم بعض مظاهر الحضارة على إمبراطوريته، التي كان أهلها يعيشون معيشة شبه أسيوية، ومع وصول بطرس الأكبر إلى الحكم في روسيا، بدأت عملية الدخول في العصور الحديثة، والأخذ بأسباب المدينة والحضارة، ويعتبر بطرس واحداً من مؤسسي الدول الذين تألقوا في الصفوف الأولي في ميدان بناء الأمم والشئون العالمية، وكان من مؤسسي الدول شديد الحرص على التمسك بكافة السلطات(٣).

وقد كانت أغراض بطرس الأكبر في الإصلاح واضحة، فقد كان يهدف إلى جعل روسيا دولة أوروبية متمدنة، وذلك بإدخال العادات المعيشية وزيادة حجم التجارة، ولتحقيق ذلك أجبر الأشراف على الخضوع، وعلمهم أن التربية والخدمة في الجيش هما سبيل الرقي، وقضي على إمتيازات الأشراف وعلى الرشوة والإختلاس اللتين كانتا سائدتين في الإدارة، كما قام ببعثة إلى أوربا؛ فزار انجلترا وروسيا وهولندا والنمسا، وكان يهدف من وراء هذه البعثة الإطلاع على وجوه الإصلاح، وممارسة الأعمال المختلفة، وفعلاً عندما عاد إلى بلاده بدأ في تنفيذ خططه، وشجع نشر العلوم وإصلاح الإدارة، مستعيناً في ذلك بالفيلسوف الألماني "لينتر" وقد كان المعارضون له الحرس الوطني "المليشيا الوطنية" و البطريق، وقد تمكن بطرس من إبادة أفراد الحرس، وذبح كثيراً منهم بيده، أما البطريق فقد ألغي بطرس هذا المنصب عام ١٧٠٠م عندما توفي البطريق، وأحل مكان هذا المنصب مجلساً ملياً، ينتخب القيصر أعضاءه وبهذا أصبح القيصر رئيسا دينيا كذلك(٤).

وكانت روسيا في حاجة إلى أن تتصل بالغرب ولكن السويد كانت تسيطر على سواحل بحر البلطيق، وتمنع روسيا من الوصول إليه، أما تركيا فإنها كانت تسيطر على مصبات الدول والدردنيل، وتمنع روسيا من الوصول إلى البحر الأسود، وكانت بولندا تمنع روسيا من الاتصال بوسط أوربا، ولذلك فإن بطرس كان في حاجة إلى فتح نافذة تطل على أوربا، فأصبحت مهمته مزدوجة، وتتلخص في ضرورة " تطوير" روسيا من الداخل و"تغيير" حالتها الخارجية، فأنفق بطرس ستة وثلاثين عاماً من حكمه (١٦٨٩-١٧٢٥)م للوصول إلى هذين الهدفين.

كان بطرس ضخم الحجم، ويصل طوله إلى ما يزيد على المتمرين ولكنه كان خفيف الحركة، ويتميز بقوة غير عادية وبقوة تحمل لا توصف، وكان في وسعه، مع أربع ساعات من النوم، أن يواصل عمله ومجهود لفترة ٤٨ ساعة بمنتهي النشاط، وكان لايطيق البقاء بدون عمل، ويعيش في حركة دائمة؛ يسافر في إمبراطوريته، ويصدر الأوامر، ويقود وحدات جيشه أو إحدى السفن، ويخطط المدن الجديدة، ويعمل نجاراً في دار صناعة السفن ويبني المنازل، ويجري العمليات الجراحية، وينتزع الأسنان، وكان يمثل طاقة جثمانية، في الوقت الذي تميز فيه بالذكاء، ولكنه كان ينقل دون أن يبتكر، أو حتى يختار ما يلائم بلاده، ولذلك فإن روسيا أصبح لها مع تطويره له،جيشاً ألمانياً، وأسطولاً هولندياً، وإدارة سويدية.

وكان يتميز بالمثابرة للوصول إلى أهدافه، مهما صادف من عقبات ومعوقات، ومن كلماته المأثورة:"أن السويديين سيحاربوننا لفترة طويلة، ولكن مع استمرار هزيمتهم لنا، سيعلموننا كيف ننتصر عليهم"، وكان بطرس يعتبر أنه مالك روسيا بأراضيهم وسكانها، ولكنه كان يعتبر نفسه خادم روسيا الأول في نفس الوقت، وتنازل عن الأملاك التي ورثها للدولة، وكان لا يستلم سوي راتبه بصفته نجاراً في الأسطول، ونقيباً في الجيش، ثم رفع هذا الراتب الأخير بعد أن ترقي، وهو قيصر إلى رتبة كولونيل، فتقاضي راتب هذه الرتبة، وكان هذا يفسر إهماله لملابسه، وأقامته حفلاته على حساب أصدقائه الأجانب وفي بيوتهم، ولكنه أنشأ لروسيا جيشاً قوياً، وأسطولاً له قيمته، وهما وسائل الوصول إلى القوة والعظمة(٥).

ومن ناحية أخرى لم يأل بطرس الأكبر جهداً في تطوير روسيا داخلياً، وقد ظهرت عملية التطوير هذه في ثلاث مجالات؛ مجال العادات والتقاليد وتنظيم الحكومة المركزية، وحكومات الإقليم، وأخيراً: تنظيم الجيش، إضافة إلى المجال الاقتصادي والديني، فقد أمر بإلغاء الملابس الشرقية واستبدالها بالملابس الأوربية، وحرر المرأة الروسية من قيود العزلة، كما أمر بحلق لحي نبلائه، وكان ذلك بداية حملة للتخلص من هذه العادة القديمة، ولكي يحرر نفسه من الشعور الأسيوي وتقاليد موسكو، عموماً فقد شرع بطرس ع في تنفيذ سلسلة من الإصلاحات تهدف لبناء روسيا من الداخل، ولعل أهم ما في التنظيم الإداري الجديد منع احتكارالنبلاء للوظائف العليا في الدولة، وإلغاء مجلس النبلاء والأعيان التقليدي واستبداله بمجلس الشيوخ.

وكان من أهم أعمال بطرس تنظيم الجيش، وتدريبه على الطريقة الألمانية، حتى بلغت قوته في نهاية حكمه مايقرب من مائة ألف مقاتل من مشاه وفرسان، علاوة على قوات القوزاق غير النظامية، وأنفق مبالغ ضخمة على إنشاء الأسطول، ويقال أن عدد قطعه بلغت ألف سفينة تضم سفن التجديف المنخفضة، وسفن الشراع المرتفعة، كما قام بإنشاء مدينة سان بطرسبرج، واتخذها عاصمة لروسيا، واختار لها موقعاً على ساحل بحر البلطيق، أي على الطريق إلى أوربا، وفي المنطقة التي حصل عليها من الأعداء، عمل بهمة ونشاط حتى تمكن لها وزنها، وأحضر ٤٠ ألف عامل إلى هذا الموقع، وكانت أدوات الحفر تنقصهم، فاستخدموا العصي بدلا من الفؤوس، وكانت المنازل من الخشب، وبنيت على الطريقة الهولندية.

أجبر القيصر الأغنياء من رعاياه على بناء منازل من طابقين، كما أجبر السفن القادمة على أن تحمل بعض أدوات البناء، وشيد لنفسه "قصر البيترهوف" على قرابة ثمانية عشر ميلاً من باريس الجديدة هذه مستخدماً في ذلك مهندساً معمارياً فرنسياً، وأنشأ شرفه "تراسا"ونوافير ومساقط مائية وبهواً للصور[٦]، وسار بطرس بعد ذلك في سبيل الإصلاح على الأسس الأوربية فدعا الفلاحين والعمال وصناع السفن الأوربيين إلى الإقامة في بلاده[٧].

وقد أدى نشاط بطرس في سياسة الخارجية والداخلية إلى قيامه بوضع وصية عُرِفت بوصية بطرس الأكبر والتي تهدف إلى تنفيذ سياسته القاضية بإزالة الحواجز

الثلاثة الجائلة بين روسيا وبين أوربا الغربية؛ وهي السويد وبولونيا والدولة العثمانية، وقد أزيل الحاجز الأول باستيلاء روسيا على جميع الولايات السويدية الفاصلة بينها وبين ألمانيا، بحيث لم يبق للسويد أملاك خارجية عن بلادها الأصلية بمقتضي "معاهدة تستاد" المبرمة بينهما عام ١٦٧٢م، وأزيل الثاني تقريبا بتعيين أحد أتباع الإمبراطورة كارتين الثانية ملكاً على بولونيا، ولذلك تنبهت الدولة العثمانية إلى نتيجة هذه السياسة، وعلمت أنها أن لم تضع حداً لتقدم نفوذ روسيا، أو بتجزئتها بينها وبين مجاوريها، لكن كان تنبهها هذا بعد فوات الوقت المناسب فإنه كان يجب عليها مساعدة السويد في حفظ ولاياتها غنيمة لها مما يطعمها في الإستمرار في تنفيذ وصية بطرس الأكبر التي تتمثل في الآتي:

١- ضرورة انقياد العساكر دائماً إلى الحرب وتنظيم المعسكرات، وينبغي لروسيا أن تتخذ زمن الصلح والأمان وسيلة قوية للحرب، وهكذا زمن الحرب للصلح لزيادة قوتها وتوسيع منافعها. مع ضرورة العمل على جلب ضباط للجنود من بين الملل والأقوام الذين هم أكثر معلومات في أوروبا.

٢- في وقت السلم ضرورة جلب أرباب العلم والمعرفة لرقي الأمة الروسية.

٣- ضرورة المداخلة في شئون أوربا عندما تسنح الفرصة بذلك خاصة الممالك الألمانية لقربها منها.

٤- ينبغي استعمال أصول الرشوة لأجل إلغاء الفساد والحسد في داخل الممالك- يقصد هنا مملكة بولونيا - وإستمالة أعيان الأمة ببذل المال واكتساب النفوذ في مجلس الحكومة حتى يمكن المداخلة في انتخاب الملك.

٥- يجب على الأسرة الإمبراطورية الروسية أن يتزوجوا دائماً بين بنات العائلة الملكية الألمانية لتكثير روابط الاتحاد بينهم واشتراكهم في المنافع.

٦- ضرورة الاتفاق مع دولة إنجلترا لقوتها البحرية، والإستفادة منها خاصة مجال البحرية والتجارة وجلب الذهب من انجلترا.

٧- علي روسيا الانتشار شمالاً في سواحل بحر البلطيق، وجنوباً في سواحل البحر الأسود.

٨- التقرب بقدر الإمكان من إستانبول والهند؛فمن يحكم إستانبول يمكنه أن يحكم الدنيا بأسرها، لذلك يجب محاربة الدولة العثمانية والدولة الإيرانية، وينبغي ضبط البحر

الأسود لأجل إنشاء صناعات بحرية، والعمل على زوال دولة إيران للوصول إلى خليج البصرة، والوصول منها إلى الهند التي هي بمثابة مخزن، وبهذه الوسيلة يمكن الإستفادة من ذهب انجلترا .

٩- ضرورة الإتفاق مع دولة أوستريا، وتحريض العائلة المالكة فيها على طرد الأتراك وإبعادهم من قطعة الروملي، وحينما يتم الاستيلاء على إستانبول، يتم تحريض دول أوربا القديمة على دولة أوستريا.

١٠- ضرورة إستمالة جميع المسيحيين الذين هم من مذهب الروم الرافضين رياسة البابا الروحية، والمنتشرين في بلاد المجر والممالك العثمانية، لكسب أصدقاء كثيرين ذوي غيرة يمكن الإستعانة بهم في ولاية كل الأعداء[٨]، هذه هي وصايا وأطماع بطرس الأكبر.

✶ **الحرب ضد الأتراك والسويد:**

قبل أن يقوم بطرس بزيارته الأولى لأوربا، أراد أن يقوم بعمل ملحوظ في السياسة الخارجية، فقام في عام ١٦٩٥م بأولى المحاولات الخاصة بفتح باب الإتصال مع أوربا، ولم يكن في وسعه القيام بذلك إلا عن طريق الاستيلاء على أحد الموانئ، أما على بحر البلطيق، وعلى حساب السويد وأما على البحر الأسود وعلى حساب الأتراك، ودفعته العوامل إلى أن يبدأ بلحرب ضد الأتراك، خاصة وأنهم كانوا أكثر ضعفاً ، وكانوا مشغولين بالحرب ضد النمسا والبندقية، كما أنه كان في وسع الحرب ضدهم، وهم مسلمين أن تأخذ شكل حرب صليبية، علاوة على لونها السياسي، وكان بقائهم في القسطنطينية، العاصمة الأرثوذكسية السابقة للعالم، يعمل على إيقاظ الروح الوطنية لدي الروس الأرثوذكس.

وعمل بطرس على الاستيلاء على ميناء أزوف- الواقع على منصب نهر الدون – من الأتراك في عام ١٦٩٥م، بالهجوم عليه من البر، ولكنه فشل في هذه المحاولة، فأردفها بمحاولة ثانية في العام التالي، بالهجوم عليه من البر وبمعاونة بعض السفن لحصاره من البحر، ونجح في الاستيلاء عليه، وكان لذلك صدي في أوربا، وشارك بطرس في هذه العمليات، وبصفته أحد رجال المدفعية، وكان له من العمر ثلاثة وعشرين عاماً، وسيحتفظ بهذا التواضع طوال حياته، ولن يأخذ مسئولية رتبة

عسكرية إلا بعد أن يصل إليها بجدارة، وستكون أكبر رتبة عسكرية يمارسها في الجيش هي رتبة كولونيل.

ورغم أن الاستيلاء على أزوف هلماً ، إلا أنه لم يسمح لبطرس إلا بنجاح بسيط للإتصال بأوربا، خاصة وأن هذا الميناء كان يطل على بحر أزوف الذي لا يتصل إلا بالبحر الأسود، والذي كانت كل سواحله، ومخارجه في البوسفور والدردنيل، تحت سيطرة الأتراك، واحتل بطرس ميناء أزوف عند مصب نهر الدون في عام ١٦٩٦م، وفي عام ١٦٩٩م عقدت معاهدة بين الطرفين تنازلت تركيا بموجبها عن ميناء أزوف، وعلى العكس من ذلك كان بحر البلطيق، رغم تفوق السويد فيه، بحراً دولياً تطل عليه السواحل السويدية والألمانية والبولندية والدنماركية، ولذلك فإن بطرس اتجه إليه، وبعد أربع سنوات من الاستيلاء على أزوف[٩]، عمد بطرس إلى تحطيم ذلك الجدار السويدي الذي كان يحيط ببحر البلطيق، ويفصل روسيا عن غرب أوربا، ولقد استمرت الحروب في هذا الإتجاه مدة إحدى وعشرين عاماً حيث انتهت عام ١٧٢١م.

وكانت السويد قد تمكنت في أثناء القرن السابع عشر، ونتيجة لمجهودات جوستاف أدولف، من أن تحول بحر البلطيق إلى بحيرة سويدية فاستولت على فنلندا، وأخذت السواحل الشرقية لهذا البحر، واستولت على استونيا من بولندا ، كما استولت على مصب نهر الأودر وبومبرانيا الغربية من الأراضي الألمانية، كما حصلت على بعض المناطق والجزر من الدنمارك وكان من الطبيعي أن تتحول الدول التي توسعت السويد على حسابها إلى أعداء لها، ينتظرون الفرصة الأولي للتكتل ضدها.

رأي بطرس هذه الحقيقة بوضوح وعمل على تحقيقها واستغلالها لمصلحته ومصلحة روسيا، وفي عام ١٦٩٩م كان "شارل الثاني عشر" ملك السويد شاباً صغيراً، له من العمر سبعة عشر عاماً، واعتقد كل من قيصر روسيا بطرس، وملك بولندا، ومنتخب ساكس، وملك الدنمارك، أن في وسعهم للقضاء عليه، فتكتلوا ضده وتم عقد تحالف، عن طريق ثلاث معاهدات عقدت في كوبنهاجن وموسكو من عام ١٧٩٨م إلي عام ١٧٠٠م، وكان تحالفاً هجومياً، سمح له ببدء العمليات ضد ملك السويد في هذا العام الأخير، وقام بطرس فيما يخصه، بمحاصرة نازفا، ولكن شارل الثاني عشر كان محارباً قديراً، فبدأ بمحاصرة كوبنهاجن وفرض الصلح على الدنمارك عام ١٧٠٠م،

ثم استدار بسرعة صوب الروس وفرق شمل ٤٠ ألف مقاتل منهم، كانت غالبيتهم لم تتدرب بعد على الطرق الحديثة وفك حصار نارفا.

وأصبح موقف بطرس في منتهي الخطورة، خاصة إذا ما أقام ملك السويد بمواصلة الهجوم ضده، ولكن شارل الثاني عشر انشغل لمدة ست سنوات (١٧٠١-١٧٠٦)م بمشكلات بولندا التي عين ملكاً جديداً عليها، ثم واصل عملياته ضد منتخب ساكس حتى يعترف بهذا الملك الجديد، ولكن بطرس الأول انتهز هذه السنوات الست في الإعداد، فواصل إعطاء الدعم لمنتخب ساكس، وعمل على بناء قوات مسلحة على الطريقة الحديثة، وقرر فرض نظام الخدمة العسكرية الإجبارية، وصهر أجراس الكنائس- رغم معارضة القسس- وصبها في مدافع، تلزمه في الحرب، واستولي بطرس وقت انشغال ملك السويد ببولندا على استوانيا، وقام بإنشاء مدينة سان بطرسبرج عند قاع خليج فلنلندا، وقام بتحصينها حتى يمكنها مقاومة هجمات السويد المقبلة عليه، وبذلك وصل الروس إلى السواحل الدافئة وأكدوا نفوذهم وتفوقهم في شرق أوربا(١٠).

وبدأ هجوم السويد على روسيا في عام ١٧٠٨م، وقاد شارل الثاني عشر جيشا من ٣٣ ألف مقاتل، وعرض عليه بطرس التنازل له عن كل فتوحاته على أن يترك له ميناء واحد يطل على بحر البلطيق، ولكن ملك السويد رفض أي مفاوضات تحدث إلا في موسكو، فاستخدم بطرس ذلك التكتيك الذي استخدمته منه روسيا بعد ذلك ضد قوات نابليون، وضد القوات النازية في الحرب العالمية الثانية، الذي يتلخص في الإنسحاب من الحدود صوب الداخل، وتدمير وسائل المواصلات وكل إمكانية لتموين قوات العدو الزاحفة، ووجد السويديون أنهم يزحفون في فراغ، فحولوا خط هجومهم من موسكو إلى الجنوب صوب أوكرانيا، واعتقدوا أن الأهالي سينضمون إليهم في هذا الأقاليم، وجاءت الثلوج وفقد السويديون كل خيولهم، ولم يبق لهم سوي أربعة مدافع و١٩ ألف مقاتل، وعندئذ هجمت عليهم قوات بطرس الأول في بولتافا، في مايو عام ١٧٠٩م، وكان عددهم يصل إلى ٦٠ ألف مقاتل، وانهزم جيش السويد، وكان شارل قد جرح في رجله، واضطر إلى الإلتجاء إلى اقرب حدود له ودخل لاجئاً إلى الدولة العثمانية، التي أقام بها من عام ١٧٠٩ حتى عام ١٧١٤م، وكانت معركة بولتافا من المعارك الفاصلة في التاريخ، والتي جعلت من روسيا أكبر دولة في شمال أوربا.

واصل بطرس عملياته ضد الدولة العثمانية، وهجم بقواته على البغدان، ولكن القوات العثمانية حاصرته عام ١٧١١م، واضطرته إلى أن ينسحب ويعيد أزوف إليهم، بعد أن دفع ثلاثة ملايين فرنك ذهب للصدر الأعظم محمد بلطجي[١١].

علينا ألا ننسي أن إمبراطورية السويد قد تحطمت أثناء وجود شارل الثاني عشر في الدولة العثمانية، فحصل قيصر روسيا على جزر الآند وليفونيا وأخذ في غزو فنلندا، أما منتخب ساكس فأنه طرد ملك بولندا الذي كان شارل ملك السويد قد نصبه ملكاً هناك، وعمل على التوسع على حسابه، وأعد ملك الدنمارك عملية إنزال في السويد نفسها، بينما قام ملك بروسيا باحتلال بوميرانيا، وظل شارل ملك السويد لاجئاً في الدولة العثمانية، وحين عاد إلى بلاده هزمه ملك روسيا في العام التالي، الأمر الذي أدى إلى ضياع إمبراطورية السويد، وحاول شارل الثاني عشر أن يتحالف مع إسبانيا، ويأخذ النرويج من الدنمارك، ولكنه قتل في المعركة عام ١٧١٨م، الأمر الذي مهد لعقد "صلح نيستاد" في عام ١٧٢١م، والذي توسطت فيه فرنسا، وهوالصلح الذي اعترف لروسيا ملكية ليفونيا واستونيا واجزاء من فنلندا.

هكذا انتهت هذه الحرب الطويلة، والتي امتدت إحدى وعشرين عاماً، إلي تحقيق ما يزيد على ما كان بطرس الأكبر يأمل فيه، فلقد كان يأمل في الحصول على نافذة تطل منها على بحر البلطيق، فحصل على واجهة بحرية يصل طولها إلى مئات الكيلومترات ولقد استخدم هذه الشدة حتى مع ابنه، الذي التفت حوله عناصر المعارضة، وسجنه في أحد الأديرة، ثم حاكمه بعد فراره للخارج، وعذبه حتى مات، ولقد تحولت روسيا في عهد بطرس الأكبر إلى دولة عظمي أوربية، حتى وان كانت عمليات تطويرها سطحية أكثر منها جزرية، ولكنها كانت مجهودات إيجابية على طريق الحضارة الغربية.

روسيا في عهد كاترين الثانية

توفي بطرس الأكبر في عام ١٧٢٥م، وله من العمر ٥٣ سنة، وبعد فترة من الزمن تتالى فيها عدد من القياصرة الضعفاء أو القساة على العرش، وصلت كاترين الثانية إلى الحكم عام ١٧٦٣م، وكان لها من العمر ٣٣ سنة[١٢]؛ حيث حصلت على التاج بطريقة شرقية بحتة هي قتل زوجها القيصر الشرعي[١٣]، وقامت بتعيين عشيقها

"ستانسلاس يونياتوسكي" ملكاً على بولونيا بعد وفاة "أوجست الثالث" ملك بولونيا، وذلك باستعمال نفوذها في مجلس الأمة عند الإنتخاب خلافاً لما تعهدت به للدولة العثمانية وما ذلك إلا تنفيذاً لسياسة بطرس الأكبر.

وكاترين الثانية بنت البرنس "انهلت زربست" الألماني، ولدت عام ١٧٢٩م، وتزوجت بالأمير الألماني الذي عينته الإمبراطورة إليزابيث وارثاً لها في الملك، ثم لما تولي زوجها الملك باسم "بطرس الثالث"، استمالت كاترين أهالي الروسيا إليها وعزلته في عام ١٧٦٢م، وبعد موته توجت هي إمبراطورة للروسيا، واشتهرت بالسير على خطة بطرس الأكبر، وحكمت لفترة ٣٣ سنة أخرى، أي حتى عام ١٧٩٦م، وكانت ذكية ونشطة وطموحة وجريئة، رغم أنها كانت من أصل ألماني، إلا أنها كانت أقرب القياصرة إلى قلوب الروس، وعرفت كيف تتعامل مع أبناء البلاد، كانت بسيطة حتى في تعاملها مع الخدم، وكانت متعلمة على الطريقة الفرنسية وكانت أكثر نشاطاً من ملوك أوربا المعاصرين لها، مثل فريدريك الثاني وماريا تريزا وجوزيف الثاني، وكانت تعمل خمسة عشر ساعة في اليوم، مما أعاد إلى الأذهان ذكري بطرس الأكبر، ولقد كانت على اتصال بفولتير لمدة خمسة عشرة عشرة عاماً، ومدت يد المعونة إلى عدد من الأدباء والمفكرين الفرنسيين، وكانت محبة للعلوم مساعدة للعلماء على بث معارفهم في البلاد، لكن دنست اسمها باتخاذها الأخلاء بالعديد من رجال حكومتها بل ومن خدمها.

لقد تظاهرت في أول حكمها بأنها من أنصار الحرية، وجمعت ٦٠٠ من نواب روسيا، وطلبت منهم وضع قانون يتمشي مع الحرية، ولكن هذه اللجنة لم تتمكن لمدة عامين من انجاز عملها، رغم أنها أعطت فكرة خاصة عن نظام الحكم في روسيا كنظام متحرر أمام كل أوربا، والحقيقة أن كاترين الثانية كانت شديدة في حكمها، وثبتت حقوق السادة الإقطاعيين على رقيق الأرض، وألغت حق رقيق الأرض في الشكوي من سادتهم، وأعطت للسادة الحق في إستخدام رقيقهم لكل الوقت الذي يرغبون فيه، وحين حاول رقيق الأرض القيام بثورة، وزحف مائة ألف منهم على موسكو، نجحت كاترين الثانية في القبض على قائده وعذبته وقتلته وانهت الحركة.

ويتمثل أهم أعمال كاترين الثانية في التنظيم الإداري والقضائي لإمبراطورية روسيا، التي قسمتها إلى خمسين حكومة، وهو التقسيم الذي ظل موجوداً حتى نشوب ثورة أكتوبر وأنشأت كاترين عدداً ضخماً من المحاكم، كل منها متخصصة في نظر قضايا الطبقات الاجتماعية المختلفة من نبلاء وبورجوازيين وفلاحين أحرار، دون أن تكون هناك محاكم لعبيد الأرض وكان من أهم أعمال كاترين الثانية كذلك مجهوداتها للاستعمار على الطريقة البروسية وجذبت عدداً من الأجانب إلى المقاطعات الجنوبية في روسيا، وخاصة مناطق ألفولجا وأوكرانيا، والتي كانت تتميز بالخصوبة وقلة السكان، وأحضرت الحكومة الآلاف من المهاجرين، ومن الزراع والحرفيين، وكانت تزودهم بالمساكن والمواشي وأدوات العمل، وأنشات بهذه الطريقة ما يقرب من مائتي مدينة صغيرة، ووضعت هذا المشروع تحت إدارة "بوتمكين"، الذي كان ضابط صف ثم صديق لها، على طريقة صديقات لويس الخامس عشر، وبدأ هذا المشروع وفي مناطق جنوب روسيا ٢٠٠ ألف نسمة، وصل عددهم عام ١٧٩١م إلى ٨٠٠ ألف.

أما في السياسة الخارجية فقد واصلت كاترين سياسة سلفها في الاتصال بأوربا، فاتفقت مع بروسيا والنمسا على تقسيم مملكة بولندا، وكان نصيبها منطقة واسعة من الأراضي، مكنتها من أن تجعل حدود روسيا تطل على أوروبا الوسطي، كذلك أعلنت كارتين الحرب على تركيا مرتين الأولي عن عام (١٧٦٨-١٧٧٤)م، التي انتهت بمعاهدة "كوتنشوك كينارجي" في ٢١ يوليو ١٧٧٤م، والثانية من عام (١٧٨٧-١٧٩٢)م وانتهت بمعاهدة "ياسي" في يناير ٩يناير ١٧٩٢م، ولكن ثبات الأتراك وجزع الدول من إزدياد تقدم الروس لم يهيئ لكاترين نجاحاً إلا في الاستيلاء على القرم وشوطئ البحر الأسود الشمالية من القوقاز حتى نهر الدنيستر.

يمكن أن يقال أن أملاك روسيا في ذلك العهد اتسعت بما لا يقل عن مساحة النمسا، وعلى العكس من ذلك نجد أن كاترين لم تنجح في اتجاه الجنوب، رغم أنها كانت تحلم بتقسيم الدولة العثمانية، وإنشاء إمبراطورية يونانية لحفيدها في القسطنطينية، ذلك أن الدول العظمي خشيت من سرعة توسع روسيا، ووقفت ضدها في حربين، وأعطتها مخرجاً على البحر المتوسط[١٧]، كما أرسلت إلى الأمراء المماليك بمصر

تحرضهم ضد الدولة العثمانية، إلا أن المماليك رفضوا هذا التحريض، وقتلوا سفيرها حامل الراسالة رغم طلب الحكومة العثمانية أرسله إليها.

وبالنسبة للقرم؛ فإن روسيا أخذت تبث رجالها في بلاد القرم لإيجاد المشاغب الداخلية بها، وبالتالي لإبتلاعها وضمها إلى أملاكها، كما عملت على نشر الفتن بين الأهالي، حتى عزلوا أميرهم "دولت كراي" الذي انتخبه الأهالي بمقتضي "معاهدة فينارجه"، وكانت المخاوف أن تقع حروب داخلية، لذا أمرت روسيا الجنرال "بوتمكين" باحتلالها، فدخلها بسبعين ألف جندي، وتم امتلاك كافة سواحل البحر الأسود الشمالية في عام ١٧٧٣م، فثارت الدولة العثمانية وأرادت اشهار الحرب على الروسيا لإلزامها باحترام "معاهدة قينارجه" القاضية باستقلال بلاد االقرم.

تدخلت فرنسا في الأمر، واقتنعت الدولة العثمانية بالعدوان عن الحرب، لعلمها أن روسيا وقعت اتفاقاً سرياً مع النمسا وقد يقع الخراب والدمار، خاصة وأن كاترين الثانية كانت على استعداد للحرب، فهي كانت ترى إنشاء حكومة مستقلة تكون حاجزاً بينهما وبين الدولة العثمانية مكونة من الفلاخ والبغدان وإقليم بساربيا يكون اسمها مملكة داستي، ويعين لها ملك من المذاهب الأرثوذكسي، وأن تأخذ روسيا "ميناء أوتشاكوف" الذي يسمي عند الترك بـ"مدينة أوزي"، وبعض جزر الروم، وتأخذ النمسا بلاد الصرب والبوسنة والهرسك من أملاك الدولة العثمانية وبلاد دالماسيا من أملاك البندقية وتعطيها عضواً عن ذلك بلاد المورة وجزيرتي كريد وقبرص، وأن تعطي باقي دول أوربا أجزاء أخرى يتفق عليها فيما بعد.

أما إذا تم لهم النصر ودخلوا مدينة الأستانة، فيعيدون مملكة بيزنطة كما كانت قبل الفتح العثماني، وتعيين الغرندوق الروسي قسطنطين ملكاً عليها، بشرط أن يتنازل عن حقوقه في مملكة الروسيا، حتى لا يتفق وجود المملكتين الروسية البيزنطية فيقبضة ملك واحد ومع عدك استعداد الدولة العثمانية على مقاومة الروسيا فضلت قبول وساطة فرنسا والإعتزام بضم القرم للروسيا التي كانت تفضل إثارة العثمانيين لدخولها الحرب، وتهييج مسيحي ولايتي الفلاخ والبغدان عليها. عاشت كاترين حتى شهدت نهاية الملكية العظمة في أوربا بإعدام لويس السادس عشر، وحين توفيت كاترين وذلك في

عام ١٧٩٦م، أي في الوقت الذي انتصر فيه الجنرال بونابرت في "موقعة أركول"، تركت روسيا وقد زادت مساحتها ، كما زاد عدد سكانها ٧ مليون نسمة.

ظهور بروسيا

كانت ممتلكات "أسرة هوهنزلرن" تتكون من منتخب براندنبرج ودوقيه بروسيا ودوقية كليف، وكانت قد تكونت أساساً في مناطق فقيرة؛ مليئة بالمستنقعات، وانتقلت إليها هذه الأسرة الحاكمة من ألمانيا، ومن منطقة صغيرة وفقيرة كذلك منذ القرن الثالث عشر، وكانت قد نشأت أساساً بصفتها مجموعة من الماركات؛ أي المستعمرات العسكرية الإقطاعية التي أنشئت في شرق أوربا، واعتمدت على الفرسان التيوتون، لوقف زحف العناصر السلافية أوالصقلية على شرق أوربا، ولكن هذه الممتلكات لم تكن تمثل دولة واحدة، بل كانت مجموعة من الدول، ففي الوقت الذي كانت فيه براندبرج وكليف تدخل في نطاق الإمبراطورية الألمانية، كانت بروسيا تخضع لملكية بولندا، وكانت كل دولة من هذه الدول غيورة على استقلالها، وظلت ترفض توحيد الإدارة بينها، ولم تكن هناك حدود مشتركة بين هذه الدول الثلاث، وإن كانت تشترك كلها في صفات الفقر العام وقلة السكان، كما كانت تشترك في خضوعها لدول أكبر.

أصل بروسيا هو مقاطعة براندبرج التي اتسعت وازداد دورها في شئون ألمانيا، حتى صار أمراؤها في مقدمة أمراء ألمانيا، وأصبح حكامها منذ القرن الرابع عشر مع ستة من الحكام الإقطاعيين يصلون إلى منصب ولقب ناخب وقد مرت مقاطعة برأندنبرج بفترة من الفوضي، حتى أدرك الشعب البروسي، أنه لا أمل له في الرقي، إلا بإنهاض البلاد، وربط ولاياتها المتفرقة، وإنشاء دولة موحدة تعني بشئونها، وقد اضطلعت أسرة هوهنزلرن بتحقيق هذا الغرض منذ عام ١٦٤٠م، وذلك في عهد المنتخب الأعظم (١٦٤٠-١٦٨٨)م، وقد كانت هذه الأسرة قد تولت شئون حكم مقاطعة براندنبرج منذ عام ١٤١٥م؛ حين عين الإمبراطور فردريك هوهنزلرن وهو نبيل من جنوب ألمانيا، منتخباً على هذه المقاطعة، وفي سنة ١٦٥٦م أسس فردريك وليم جيشاً يعتبر من أفضل الجيوش النظامية الدائمة في أوربا آنذاك، وباختصار أنه قد صنع نواة دولة حديثة، بسبب الدائب على الهجرة واصلاحاته الإدارية والعسكرية.

وكان فردريك وليم المنتخب الكبير، معاصراً للملك لوي الرابع عشر، ولقد تمكن في فترة حكمه والتي بلغت ٤٨ عاماً من أن يحقق هدفين أساسين: هما توحيد الممتلكات واستعمار الأراضي، ولد بدأ بفرض ضرائب عامة، وضرائب على الأراضي سمحت له بتكوين جيش دائم، بلغ عدد رجاله ألف مقاتل، الأمر الذي لم يتوفر لأي من أمراء ألمانيا في ذلك الوقت، وأما فيما يتعلق بالاستعمار، فإنه عمل على جذب الكثير من الأجانب إلى بلاده، وانتهز فرصة الحروب الدينية، والاضطهادات المذهبية، لكي يكسب لبلاده العديد من المهاجرين، وبخاصة من الفرنسيين والهولنديين، ومنحهم تسهيلات لاستغلال الأراضي وتفليحها وبناء الورش، حتى وصل عدد المهاجرين أو اللاجئين الفرنسيين في عهده اسم بروسيا في الظهور، وتمكنت قواته من أن تثبت جدارتها أمام القوات السويدية في الربع الأخيرمن القرن السابع عشر، ولقد ساعد ذلك ابنه فردريك الأول على أن يسير على خطاه، ويتمكن من أن يعطي نفسه في عام ١٧٠٠م لقب ملك بروسيا. وعند وفاته في عام ١٧١٣م تولي ابنه فردريك وليم الأول العرش، وكان له من العمر ٢٥ عاماً، كان يتصف بالاقتصاد إلى درجة الشح، ولكن من أجل التمكن من زيادة الجيش وتسليحه، وكان جندياً بمعني الكلم ، كما كان مستبداً ، وكانت أوامره واجبة الطاعة وبدون نقاش، حتى أنه لقب بالملك الجاويش، نتيجة لطريقته، ونتيجة لعمله كذلك على تدريب الجنود، وكان يعتبر أن الملوك قد خلقوا للعمل، وأن الملك هو الخادم الأول للدولة، وقد سمي نفسه بالخادم الأول للدولة والمواطن، وأن الملك يستمد سلطاته من رضاء الشعب، على شريطة أن يحقق لهم سعادتهم وخيرهم.

وكانت أهم نشاطاته تتعلق بتنظيم المالية وبالحرب وبأراضي الدولة، وتمكن من احضار ٢٥ ألف لاجئ من جميع أنحاء أوربا إلى بروسيا، وأنشأ لهم مئات القري وعدداً من المدن، مما زاد عدد سكان بروسيا وحدها خلال فترة حكمه من ٤٤٠ ألف نسمة إلى ٦٠٠ ألف نسمة، وشجع صناعة المنسوجات الصوفية واستخدامها لكسوة رجال جيشه، كما عمل على تصدير الكثير منها إلى الخارج، وكانت أهم أعماله تتمثل في العناية بالجيش، وكان شغفوا بحياة الجندية، وأنشأ كتيبة لتدريب الضباط، كما أنشأ الكثير من فرق الجيش، وكان يعتبر أن مهنة الجندية هي أشرف مهنة، ويعتبر أنها

الوحيدة التي يمكن لبروسيا بها أن تشق طريقها بين الدول، ورغم أن عدد سكان دولته كان لا يزيد عن٢,٥ مليون نسمة، إلا أنه تمكن من رفع عدد جيشه من ٤٥ ألف جندي في سنة ١٧١٣ إلى ٨٣ ألف جندي عام ١٧٤٠م، وذلك في الوقت الذي بلغ فيه سكان إمبراطورية النمسا ٢٤ مليون نسمة، وبلغ عدد رجال جيشها ١٠٠ ألف جندي، وإذا كان فردريك وليم الأول قد بدأ بالاعتماد على التطوع في ألمانيا وخارجها لإنشاء جيشه، إلا أنه قرر بعد ذلك تطبيق الخدمة العسكرية الإجبارية على كل رعاياه.

وكان يعتمد في تكوين جيشه على المتطوعين من أبناء ألمانيا والبلاد المجاورة، وإن كان في النهاية قد وضع مبدأًجديداً ؛ وهو أن كل سكان بروسيا، وقد ولدوا للجيش؛ أي أنه وضع مبدأ الخدمة العسكرية الإلزامية، وعني بأمر التدريب والنظام ، وصار جيشه أكفأ جيوش أوروبا قاطبة، ورغم ذلك فلم يخاطر بجيشه في معركة حربية ذات شأن، وكان ذلك شيئاًجديداً أثناء القرن الثامن عشر، وكان هذا الجيش أرستقراطياً، ولم يسمح لأي جندي مهما زادت كفاءته، بأن يصل إلى رتبة أعلى من ضباط صف، واحتفظ برتب الضباط كلها لأبناء النبلاء، وظل هذا القليد معمولاً به حتى بعد الإتحاد الألماني، وحتى سنة ١٩١٨م.

والشئ الجديد الذي أدخله فردريك وليم على الجيش كان هو نظام التدريب، واعتمد على تكرار الحركة مئات وآلاف المرات، حتى يتحول الجندي إلى آلة، وحتى تؤدي الوحدات حركاتها كرجل واحد، فتحصل على المرونة، كما تحصل على سهولة ووحدة الحركة، وسرعة التعمير وإطلاق النيران، حتى أصبحت هذه الطريقة تعرف في كل جيوش العالم باسم الطريقة البروسية، وإذا كان الجيش البروسي لم يدخل في عمليات حربية كبيرة في عهد فردريك وليم، إلا أنه تمكن في عام ١٧١٥م من إحتلال بوميرانيا، التي أكدت "معاهدة استكهلم" سنة ١٧٢٠ ملكية بروسيا لها.

وهكذا كانت مجهودات فردريك وليم ناجحة في الميادين المالية، وإنشاء الجيش، واستعمار الأراضي، الأمر الذي زادج من طاقة بلاده، وسمح لها بأن تصبح عنصراً فعلاً في مجتمع الدول الأوربية[٢٦]، وحين توفي خلفه على عرش بروسيا إبنه "فردريك الثاني" أو "فردريك الأكبر" (١٧٤٠ –١٧٨٦)م، ورغم ولعه بالشعر والأدب والموسيقي، فإن الظروف التي أحاطت به أجبرته على إستخدام الجيش البروسي الذي

كونه والده، وصرف ما خلفه له من المال في سبيل إعلاء شأن بروسيا، وتوفير القوة والمتعة والعظمة لها، من أجل هذا تبني مبادئ الإستبداد المستنير.

ولقد زاد فردريك الثاني من عظمة بروسيا بضمهسيليزيا ، التي أخذها من النمسا وبضمه بروسيا البولندية، التي أخذها من بولأندا ، ولقد استمرت عملية استيلائه على سيلزيا لمدة ٢٣ سنة، خاض اثنائها ثلاثة حروب (١٧٤٠ -١٧٦٣) وكانت الحربأن الأولتأن تتمشيأن مع حروب الوراثةالنمسوية ، وأما الثالثة فكانت حرب السنوات السبع التي واجهت بروسيا فيها تكتلا ضم النمسا وفرنسا وروسيا وخرجت منها بروسيا مضعضعة ، ولكن منتصرة أما الاستيلاء على بروسيا البولندية سنة ١٧٧٢ فقد تطلب مفاوضات طويلة ، وبدون حروب وسهل عملية التوحيد الإقليمي لأراضي المملكة ولقد امضي فردريك الثاني السنوات والعشرين الباقية من حياته في أًصلاح ما افسدته حرب السنوات السبع ، وفي تنميةثروة مملكته.

وتمكن فردريك منإعادة إنشاء الإحتياطي المالى اللازم للتوطن، ولقد تمكن من اخطار ٣٠٠ ألف مهاجر، وأنشأ لهم تسعمائة قرية ووطن ٦٠ ألف مهاجر في منطقة سيليزيا، وكان كل شئ يتم بالجيش، التي كانت بعض عملياته تشبه أعمال العصابات، ففي عام ١٧٧١م قامت القوات البروسية التي تحتل جزءاً من بولندا بسبي ما يقرب من سبعة آلاف فتاة، وأرسلهن للتزوج من الجنود البروسيين في بوميرانيا، وأجبر كل أسرة على أن تقدم بقرة وبعض الحيوانات المنزلية وفراشاً متواضعاً كبائنة لزواج ابنتها، ولقد تمكن من استصلاح وزراعة آلاف من الكيلو مترات المربعة، كما شجع الصناعة لزيادة الثروة العامة، وإذا كان فردريك الثاني قد أصدر أمراً ، حتى من الناحية الشكلية، بأن التعليم إجباري، فأن ذلك لم يمنع من وجود رغبة قوية لديه لرفع مستوي التعليم، وإرساء المبادئ من أجل ذلك، وكانت أشياء جديدة بالنسبة للقرن الثامن عشر.

ومع ذلك فإن فردريك الثاني قد احتفظ بنظام الطبقات وبكل صرامة، فلم يكن في وسع الفلاح أن يتحول إلى بورجوازي، أوفي وسع البورجوازي أن يصبح من النبلاء، وهكذا ظلت بروسيا دولة إقطاعية، وأفاد الملك من النبلاء في قيادة جيشه وفي الإدارة أما الطبقة الوسطي فكانت ضغيرة، وأما بقية السكان وفي غالبيتهم العظمي فكانوا من الفلاحين، الأمر الذي يدعم البنيان الإقطاعي، وبالرغم من أن فردريك قد تعهد باتباع

العقد الاجتماعي، إلا أنه لم يكن يفعل ذلك وفقا لشروط "لوك"، أن الحكم المطلق المستنير كان انعكاساً لبزوغ الدولة البيروقراطية في بواكير عهد أوربا الحديث.

ولقد تمكن فردريك الثاني خلال فترة حكمه الطويل؛ والتي بلغت ٤٦ عاماً، من أن يضاعف مساحة أراضيه، ويزيد عدد رعاياه ثلاثة اضعاف؛ فزاد عددهم من ٢,٥ مليون إلى ٦ مليون نسمة، أما الجيش فقد زاد عدده كذلك من ٨٠ ألف جندي إلى ١٦٠ ألف واعتبر بعد مقاومته لقوات الدول المتكتلة، على أنه أحسن جيوش أوربا، وأخذ ملك بروسيا في تسوية المسائل الدولية الكبري، مكانه بجوار ملوك فرنسا وانجلترا والنمسا وروسيا، وتم كل ذلك في أقل من نصف قرن(٣٠).

✶ **الوراثة البولندية**

رغم "معاهدة ڤيينا" و"معاهدة أشبيلية" لم تعرف أوربا الغربية، فيما بين عامي (١٧٢٥-١٧٣٣)، إلا سلاماً مقلقلاً، وكان الأمر يحتاج إلى تدعيم مستمر لاتجاه السلام من جانب انجلترا وفرنسا، إلى أن نشبت مشكلة الوراثة البولندية عام ١٧٣٣م، وكان تاج بولندا الانتخابي قد أصبح شاغراً في هذه السنة، وتقدم له اثنان؛ منتخب ساكس وستاتيسلا ليزنيكسي، والد زوجة لوي الخامس عشر، وكان هذا الأخير قد احتل عروش بولندا لفترة من الوقت قبل ذلك، فأسرع إلى وارسو، وحصل على ٦٠ ألف صوت مقابل ٤ آلاف صوت حصل عليها خصمه، ولكن منتخب ساكس كان يحظي بتأييد كل من إمبراطور النمسا وقيصر روسيا، وكان للروس أطماع في بولندا، ولا يرغبون في رؤية ملكها يحظي بتأييد فرنسا، أما إمبراطور النسما فكان يؤيد منتخب ساكس، حتى يؤيده بدوره في تغيير وراثة العرش إلى ماريا تريزا، فدخلت القوات النمساوية الروسية إلى بولندا وسرعان ما أصبح ليزنيكسي محاصراً في دانزج، التي تمكن من الفرار منها بعد بضعة أشهر.

وتدخل لويس الخامس عشر ملك فرنسا في صالح صهره، ولم يكن هذا التدخل مبنياً على العاطفة، والعلاقات الأسرية وحدها، ذلك أن فرنسا كانت تسير على تقليد منذ القرن السادس عشر، يتلخص في ضرورة الإستناد إلى حليف في شرق أوربا يمكنه أن يهاجم النمسا من الحلف، وكانت فرنسا قد تحالفت مع الأتراك ومع ملك السويد، من أجل الوصول إلى هذه النتيجة، ولكن تراجع العثمانيين، وانهيار قوة السويد،

مع ظهور قوة جديدة متمثلة في روسيا أجبر فرنسا على أن تركز تحالفها في شرق أوربا في بولندا، ولم يكن من السهل على فرنسا إرسال جيش إلى بولندا إلا عن طريق البحر، وكان ذلك يتطلب مخاطرة كبيرة.

وبإعلان فرنسا الحرب على الإمبراطور، عملت على مهاجمة أملاكه في الأراضي المنخفضة، ولكن وجود فرنسا في هذا الميدان كان يثير خوف انجلترا، فلم يعد أمام فرنسا إلا أن تهاجم أملاك الإمبراطور في إيطاليا، وتحالف لويس الخامس عشر مع دوق سافوا، كما تحالف مع ملك إسبانيا، واضطر إلى أن يتعهد له بتركه يأخذ إقليم ميلانو، نظير تنازله عن سافوا لفرنسا، فاضطر الإمبراطور إلى دخول محادثات عام ١٧٣٥م من أجل الصلح، وإن كانت التسوية النهائية قد تأخرت لمدة ثلاث سنوات. تم هذا الصلح بـ"معاهدة ڤيينا الثانية" في العام ١٧٣٨م، ونص هذا الصلح على تناول ليزنيسكي عن بولندا، مع احتفاظه بلقب الملك، وحصوله على اللورين التي تعود بعد وفاته إلى فرنسا، وتنازل الإمبراطور عن نابولي وصقلية لدون كارلوس، والذي سيصبح ملكاً على مملكة الصقليتين، واعترفت فرنسا أخيراً بالنظام الذي وضعه الإمبراطور لكي تخلفه "ماريا تريزا" على العرش، وهكذا نجد أن الإمبراطور هو الذي دفع نفقات هذه الحرب، وذلك بتخليه عن أجزاء هامة من ممتلكاته في إيطاليا، كما أن حرب الوراثة البولندية انتهت بنتيجة غير متوقعة؛ وهي تأسيس أسرة حاكمة ثالثة من "البوربون" في نابولي، وكذلك اتمام وحدة فرنسا الإقليمية، بضمها اللورين إلى أراضيها، كما أن فرنسا كان في وسعها أن تحصل على سافوا، لولا رغبتها في الوصول إلى السلم، وكانت هذه الحرب هي الوحيدة التي أفادت منها فرنسا طوال عصر لويس الخامس عشر.

✶ **حرب الوراثة النمساوية (١٧٤٠ -١٧٤٨)م**

انتهز فردريك الثاني فرصة ضعف النمسا، وأرسل بجيشه إلى أملاكها واستولي على "سيليسيا" "Silesia" بحجة أنها كانت ذات يوم من أملاك أجداده، فاحتجت "ماريا تريزا" على ما ارتكبه فردريك ضد أملاكها، ولكن نتيجة احتجاجها كانت عكسية، فبدلاً من أن تقف الدول الأخرى في صفها، تشجعت وعملت ضدها؛ فانضم إلى جانب بروسيا بفاريا التي كان أميرها يطمع في التاج الإمبراطوري وسكسونيا وفرنسا وسافوي،

فما كان من ماريا إلا أن عملت على إبعاد فردريك عن ميدان الحرب بناء على نصيحة انجلترا فعقدت معه "صلح برزلو" في عام ١٧٤٣م، وواصلت الحرب بمؤازرة انجلترا وهولندا حتى احتلت بفاريا وهزمت فرنسا، ولكن انتصار مارية أخاف فردريك أن تتفرغ له في النهاية، فدخل الحرب ضدها للمرة الثانية، وتمكن من هزيمة جيوش النمسا في عدة معارك متتالية هي "شهر" في عام ١٧٤٤م وكسلزدروف في عام ١٧٤٥م، حيث تنازلت له في سيليسيا، مقابل اعترافه بزوجها "فرنسيس السيلسيسة الثانية.

لكن حرب الوراثة النمساوية العامة، بقيت مشتعلة حتى عام ١٧٤٨م، حيث عقد "صلح اكس لاشابل" حيث اعترفت الدولة بحق فردريك في سيليسيا "فرانسوا الأول"، أي أن المحصلة النهائية لهذه الحرب كانت في صالح ماريا تريزا؛ حيث حافظت على كيان ملكها ولم تفقد شيئا سوي سيليسيا، أما فرنسا فقد تنازلت عن جميع فتوحاتها في سافوا ونيس، والأراضي المنخفضة، وأعادت المستعمرات إلى ماكانت عليه قبل الحرب[٣٢]، وعلى الرغم من ذلك فإن الإمبراطورية النمساوية لم تستطع أن تطور نموذج الملك الأعظم الحقيقي إلى عهد ماريا تريزا، التي لم تحمل لقب الإمبراطورة لأنها أمرأة، وذلك لأن الإمبراطورية النمساوية كانت على الدوام مشغولة ما بين مطرقة الفرنسيين وسندان الأتراك، وخلفها على قصورها في عام ١٧٨٠م جوزيف الثاني الذي تولي الإمبراطورية بعدها[٣٣].

عمل فردريك في السنوات العشر التي تلت حرب الوراثة النمساوية، على إنهاض البلاد داخلياً؛ فحفر الترع، وجفف المستنقعات، وشجع الصناعات وبخاصة صناعتي الحرير والصوف، كما عمل على نشر التعليم وشجع الأدب وأنصاره؛ وأصبح بلاطة ملتقي الأدباء والحكماء، فزاره فولتيرعظم فلاأسفة القرن الثامن عشر الميلادي، وبقي في بلاطة سنوات ثلاث، وخلاصة القول أن فردريك وسع حدود بلاده وقواها، ووضع بروسيا في المكان الأول بين الدول الأوربية وأولي الإمارات الألمانية بلا نزاع.

✶ **حرب السنوات السبع (١٧٥٦-١٧٦٣)م**

قدمت فرنسا ما تعهدت بتقديمه من الرجال، وقام الملك فردريك بالزحف على إقليم ساكس، واحتل مدينة "درسدن"، وساد شعور بضرورة منع ملك بروسيا من تهديد السلام بعد ذلك،ولكن اتجاهاً ثانياً ظهر في فرنسا؛ وذكر أنه كان من الأسهل محاربة

انجلترا في هلوفر القريبة، بدلاً من محاربتها في كندا والهند، وتكاتف هذان الاتجاهان في زيادة توثيق الروابط مع النمسا، وفي عقد معاهدة ثانية في فرساي للتحالف بينهما، نصت على إعادة النظر في الحدود الشمالية لفرنسا وفي صالحها، وخلاصة إذا ما تمكنت ماريا تريزا من استعادة سيليزيا، وقدمت فرنسا في هذه الحرب ١٤٠ ألف رجل و٣٠ مليون جنيه، كان في وسعها أن تحتفظ بها لنفسها في حربها ضد انجلترا في الميدان الاستعماري.

وكانت ماريا تريزا قد تفاهمت كذلك مع منتخب ساكس وملك بولندا ومعظم الأمراء الألمان، ثم مع ملك السويد وقيصرة روسيا، التي كانت على عداء واضح مع ملك بروسيا، ووجد ملك بروسيا أن التكتل يزداد ضده، فأسرع بالعمل قبل أن يتمكن الخصوم من الإستعداد للمعركة، وطلب تفسيراً من مايا تريزا عن تجميع قواتها في منطقة بوهيميا، ثم هجمت قواته واحتلت درسدن وأُسر ١٧ ألف من جنود ماريا تريزا، وضمهم إلى قواته وهذه الحرب الجديدة.

استمرت لفترة سبع سنوات، وبدأت بسيليزيا وكانت حرباً مزدوجة، فهي حرب بروسية نمسوية روسية من ناحية، وحرب إنجليزية فرنسية من ناحية أخرى، ودارت معاركها في ثلاث مناطق: المنطقة الأولي هي ألمانيا الغربية شرق نهر الراين، والمنطقة الثانية هي وسط ألمانيا في بوهيميا وساكس وسيليزيا وبراندبورج بومبرانيا والمنطقة الثالة كانت هي بروسيا نفسها(٣٥).

كان "صلح أكس لاشايل" بمثابة هدنة بين بروسيا والنمسا بشأن سيليزيا ذات الأهمية العظمي للنمسا لثروتها المعدنية، ولإنتمائها للعنصر الألماني، لذا عملت النمسا على استرداد سليزيا من حوزة بروسيا، وقد تخلت النمسا من السياسة التقليدية التي كانت قائمة على النضال بين أسرتي البربون (فرنسا) والهابسبورج (النمسا)، وتقربت إلى فرنسا لمساندتها في حربها ضد بروسيا، وكان هذا العمل بمثابة انقلاب دولي في السياسة الأوربية، كان من نتيجته دخول أوربا في حرب طاحنة استمرت سبع سنوات لجأت هذه الدول إلى نظام المحالفات.

عقدت انجلترا اتفاقاً مع فردريك عام ١٧٥٥م وعقدت فرنسا اتفاقاً مع النمسا عام١٧٥٦م – أي أن الحرب حينما نشبت كانت بين كل من انجلترا وبروسيا من جانب

، وفرنسا والنمسامن الجانب الآخر–، وانضم إلى جانب فرنسا والنمسا كل من روسيا والسويد وسكسونيا وبعض إمارات ألمانيا، فخشي فردريك اجتماع قوة أعدائه، وحاول أخذهم على غرة فدخلت قواته سكسونيا وبوهيميا، ولكن أعداءه أحاطوا من كل الجهات، وتعذر عليه مقاتلة كل منهم على حدة، وتمكن الجيش من هزيمته في موقعة "كولن"، وأعلنوا أن حقوقهم قد ردت إليهم بعد دخولهم الشرقية، ودخل السويديون بوميرانيا، فأصبح مركز فردريك عام ١٧٥٧م حرجاً للغاية، وفرنسا في موقعة "رسباخ" ، ثم هزم النمسا في موقعة "ليثين" في ديسمبر ١٧٥٧م، وبذلك تغلب فردريك على هذه الأزمة العصبية التي أحاطت به(٣٦).

أما في ألمانيا؛ فكانت الحرب هناك تمثل مراحل من الحرب الفرنسية الإنجليزية، وكان هدفها غزو إقليم هانوفر، الذي كانت الأسرة الحاكمة في إنجلترا تنتسب إليه، وأما في ألمانيا الوسطي فإن المعارك التي دارت هناك كانت تعتبر العمليات الأساسية في الحرب، ودارت في ساكس وسيلزيا، وظهرت فيها مهارة البروسيين في المناورة وفي مفاجأة العدو، وفي الهجوم بزاوية في ميدان العمليات الأساسية في الحرب، ودارت في ساكس وسيليزيا، وكان على فردريك ملك بروسيا أن يواجه هجمات النمسويين من الجنوب، وهجمات الروس من الشرق، واضطر إلى ينتقل باستمرار من أخطاء أعدائه، ورغم ذلك فإن هذه الحرب كانت مرهقة، وحتى مع الانتصارات لم يبق لفردريك من رجاله في عام ١٧٦١م سوي ٦٠ ألف جندي، على درجة بسيطة من التدريب والإنضباط، وحدث تغير في الموقف حين توفيت قيصرة روسيا، وتولي العرش بعدها بطرس الثالث، والذي كان كبير الإعجاب بملك بروسيا، فسحب قواته من مواجهة فردريك، ووضعها تحت تصرفه(٣٧).

أدى تدخل انجلترا إلى سحب فرنسا قواها، فخفف ذلك من الضغط على فردريك الذي ركز قوته ضد النمسا وروسيا، وهزم الروس في عام ١٧٥٩م، وكانت بروسيا في ذلك الوقت ملت الحرب، خاصة وأن حليفها "وليم بت" الوزير الانجليزي الذي كان يساعد بروسيا، كان قد سقط ولم ينفذ عدوتها اللدود "إليزابيث" في يناير ١٧٦٢م قيصر الروسيا وحليفة النمسا منذ بداية الحرب، حيث أن حليفها الإمبراطور بطرس الثالث سحب قواته وانضم إلى جانب بروسيا، ضد النمسا لإعجابه بفردريك،

ولكن هذا الإمبراطور لم يطل، فخلفته كاترين الثانية التي سحبت الجيوش الروسية من الميدان نهائياً، وكانت انجلترا وفرنسا في ذلك العام قد توصلت إلى اتفاق مبدئي في مفاوضات صلح "فنتبلو"[٣٨]، واضطرت ماريا تريزا إلى التفاوض، وعقدت الصلح بعد خمسة أيام واحتفظ فردريك بإقليم سيلزيا.

وفي خلال سبعة سنوات فشل التكتل في إملاء كلمته على بروسيا، ورجع النصر النهائي في هذه الحرب إلى فردريك، وخبرته العسكرية، وتجديده في فنون التكتيك، وقدرته على المناورة ولقد صمد في أوقات عصبية، وصمم على أن يحصل على النصر، أما الروس فإنهم كانوا يحاربون، ولكن بأسلوب عتيق، ودون اهتمام بالهدف العسكري، ودخلوا برلين مرتين، وفرضوا الإتاوات على أهلها، ولكن دون أن يحاولوا استمرار سيطرتهم عليها، أماالنمساويين فكانوا لا يحاربون إلا من أجل إستعادة سيليزيا، وكانوا يفكرون فيما هو أبعد من ذلك، وأما الفرنسيون فإنهم كانوا يحاربون ضد الإنجليز في إقليم هانوفر، وكانوا بعيدين عن مواجهة قوات بروسيا وفي سنة ١٧٦٣م، زاد إعجاب كل الأوربيين بالملك فردريك، وكانت حرب السنوات السبع هي التي بنت مجد بروسيا كدولة عظمي، بعد أن ثبت فيها أن الجيش البروسي كان هو أعظم جيش في أوربا.

أما ألمانيا فقد أصبح ميداناً تتنازعه أسرة هوهنزلرن البروتستانتية وأسرة هابسبرورج الكاثوليكية حتى عام ١٨٦٦م، حين تفوقت بروسيا على النمسا، أما فرنسا وإسبانيا فقد عادت هذه الحرب عليهما بالخراب والخسارة حيث فقدت فرنسا أكثر مستعمراتها في أمريكا وفي الهند، ولم تحتفظ في الهند سوي بخمسة مراكز تجارية وضعف شأنها وضاعت هيبتها وكذلك خسرت إسبانيا جزءا من مستعمراتها في أمريكا، وانتهى الصراع بتغلب انجلترا على فرنسا، وانتزاع كندا من أيدي الفرنسيين في صلح باريس في عام ١٧٦٣م، على أن الجزء الغربي من إقليم لويزيانا الذي يكاد يكون لا حد له في الجنوب، والمسمي باسم لويس الرابع عشر، ظل خارج الدائرة البريطانية، فاحتلته إسبانيا، وفي عام ١٨٠٠م استردته فرنسا، ثم اشترته آخر الأمر في علم ١٨٠٣م حكومة الولايات المتحدة الأمريكية من فرنسا.

الفصل العاشر

الثورة الفرنسية

✶ **الأسباب التي أدت إلى قيام الثورة الفرنسية:**

جاءت الثورة لأن الملكية عجزت عن حل مشكلة الامتيازات، فقد كان الأشراف يستأثرون بأعلى مناصب الدولة، مدنية كانت أو عسكرية، ومع ذلك كانوا يعفون من أعباء الضرائب إلا القليل منها، كما كانت لهم حقوق وامتيازات من بقايا النظام الإقطاعي؛ مثل حق الصيد في مزارع الأهالي وحق القضاء بين المزارعين، ولهم نصاب معين من الغلال، أو عدد معين من الغنم والطيور كل عام، وكانوا يرغمون المزارعين على أن يطحنوا غلالهم في طاحون الشريف، وأن يعصروا عنبهم في معصراته، ويدفعون الأجر الذي يفرض عليهم وهم صاغرين، ولم تكن من القوة بحيث تنبذ بقايا النظام الإقطاعي الذي كان في فرنسا، كما كان في معظم ممالك أوربا الأخرى، ثقيل الوطأة على الأهالي، ولقد كان ثمة معضلة أخرى ذات صبغة اقتصادية حارت حكومات النظام القديم في علاجها، ذلك أن موارد طعام الشعب لم تكن ميسورة مضمونة، فمع كل ثروة فرنسا الزراعية، وترف طبقتها العليا، كانت بعض طبقات الأمة عرضة بين آن وآخر لفتك المجاعات وأهوالها.

وكانت الإدارة المالية تتميز بدرجة من الفوضي بلغت حد عدم التمكن من وصفها إلا على وجه التقريب، فقدرت التنبؤات التي عملت في مارس ١٧٨٨م، وهي أولي وآخر ميزانيات النظام القديم، المصروفات بـ ٦٢٩ مليون والإيرادات بـ ٥٠٣ مليون، أي مع عجز يصل إلى ٢٦٩ مليون أو إلى ٢٠% من الميزانية، وأرجع المعاصرون مسئولية ذلك إلى اسراف البلاط ومكاسب رجال المال، وكان من الممكن الاقتصاد، ولكن إدارة الدين طالبت بمبلغ ٣١٨ مليون، أي مايزيد على نصف المصروفات إلى هذا الحد إلا بإعلان الإفلاس، فكانت الضرائب، وكانت هناك بعض الأقاليم تدفع أقل من غيرها، وكان البرجوازيون يدفعون أقل من الفلاحين والنبلاء ورجال الدين أقل من ذلك أيضاً، وكان من الممكن أن تحل الأزمة بسهولة، فكانت المساواة في دفع الضرائب تكفي لذلك.

ومن أجل الإصلاح في فرنسا اقترح "ترجو" "Turgot" إلغاء نقابات طرائف العمال، واطلاق تجارة الحنطة من كل قيد، وكانت أكبر العقول في فرنسا وقتئذ كانت تؤيده فهو أعظم وزراء فرنسا (١٧٢٧-١٧٨١)م، ولكن برلمان باريس كان أيضاً محبوبا من الشعب، فقد عده الحائل الفعال الوحيد دون طغيان العرش، ولذا عزل ترجو بعد مكثه في الوزراة ثلاثة عشر شهراً لم ينجز فيها شيئا، وخلفه في الوزارة "نكر" "Necker" (١٣٧٩-١٧٩٤)م، وهو بروتستانتي جمهوري من أهل جنيف، واشتغل أولاً في أحد المصارف، وقد ظفر نكر بحب الجمهور إبان اشتراك فرنسا في حرب الإستقلال الأمريكي، بدفعه نفقات تلك الحرب بالقروض، ولكنه فقد ذلك الحب حالماً شرع في إنشاء مجالس محلية، تحل مندوب الملك في الأقاليم في تأدية واجباتهم الإدارية، وعزل نكر من منصبه سنة ١٧٨١م.

ومن أجل الإصلاح أيضاً قدم "كالون" (١٧٨٣-١٧٨٧)م مشروعاً يأخذ ضريبة مالية على عقار من الأرض "ضريبة العقار"، فأثار ذلك الأرستقراطيين إلى درجة عظيمة من الغضب، وطالبوا بدعوة "مجلس الطبقات" الذي لم يجتمع منذ عام ١٦١٤م، وكان ذلك المجلس جمعية تضم ممثلي هيئات ثلاث "النبلاء، ورجال الدين، العامة[٤]، وقدم كالون مذكرة إلى الملك لويس السادس عشر في أغسطس ١٦٧٦م، قصر على ضرورة إصلاح الدولة، كما اقترح كالون تعميم ضريبة الملح، وكذلك احتكار الطباق، وأن يبدلوا ضريبة الرؤوس وضريبة الواحد من عشرين بإعانة إقليمية يدفعها كل الملاك العقاريين، ضريبة العقار السابق ذكرها بلا إستثناء.

ومع أن التضحية المقترحة على أصحاب الامتيازات كانت متواضعة، إلا أن كالون لم يعقد أي أمل على الطريقة التي ستقابل بها البرلمانات مشروعه، وكان الملك قد فقد كل هيبة، فكان يقضي وقته في الصيد وفي الأشغال اليدوية، وكان معروفاً بالشراهة في الأكل والشرب، عزوفاً عن الناس وعن التسلية، وكانت الإشاعات قد انتشرت عن أن "ماري انطوانيت" قد تسببت بمسألة العقد سنة ١٧٨٥م في أن يفقد سمعته، وتفادى كالون الملك وفكر في جمع مجلس من الأعيان والنبلاء، إلا أن إثارة الإرستقراطيين في اجتماعهم ١٧٨٧م، ومهاجمة الأعيان مشروع كالون وبرغبة الملك فقد أقاله الملك في نفس العام.

جاء بعده "بربين" الذي حاول ألا يمس بحقوق رجال الدين، ولكن الأعيان لم يوافقوا على مشروعه الخاص بالدفعة والإعانة الإقليمية، وقرروا الرجوع إلى مجلس طبقات الأمة، وأصبح على بربين أن يتعامل مع البرلمانات، ورفض برلمان باريس الإعانة الإقليمية، كما اعترض على ضريبة الدمغة، ودفع الأمر لمجلس طبقات الأمة، وحاول بربين الحصول على قرض بمبلغ ١٢٠ مليون على خمس سنوات، ولكن دوق أورليان احتج على ذلك. وكانت الأزمة الاقتصادية من الأسباب التي عجلت بالثورة، فمنذ عام ١٧٧٨م كان الإنتاج قد اعترضته مشاكل نشأت من المشكلات الزراعية، وفي عام ١٧٨٥م مرت البلاد بموسم الجفاف والقحط في أنحاء البلاد، وانخفض أنتاج الحبوب إلى أدني مستوي عرفته فرنسا، وأخذت أسعار الخبز في الإرتفاع المطرد[٦]، وكانت الدول بشكل عام؛ ومنها فرنسا تمارس سياسة تجارية، وتمارس منع الإستيراد، وتفرض الضرائب المرتفعة، على الواردات وكانت هناك قوانين الملاحة، واحتكار المستعمرات، الأمر الذي ساعد على تكدس رؤوس الأموال والاحتفاظ بها داخل البلاد، وبخاصة فيما يتعلق بمكاسب النقل، وإنشاء الورش الصناعية.

وساعد الأمراء وحاشيتهم صناعة الكماليات التي كانت لازمة للطبقات الحاكمة، ولكن المجهودات التي بذلت من أجل الإنشاءات البحرية والنسيج والصباغة، ونتيجة لطلبات القوات المسلحة، وعمليات منح الضرائب المباشرة لبعض الأفراد عن طريق الإلتزام، وبمنح الموردين عمليات القيام ببعض الخدمات العامة، وحتى تزود الجنوب بمرتباتهم، ساعدت كلها على ازدهار الخدمات العامة، وحتى تزود الجنود بمرتباتهم، ساعدت كلها علي ازدهار متزايد لرجال المال والمصارف.

اضطرت الحكومة أمام ازدياد ديونها إلى إعادة صهر القطع الذهبية سنة ١٧٧٥م، لكي تقلل من وزن القطع الجديدة، ساعدت ذلك على زيادة الإستهلاك من ناحية، وتوفر الأيدي العاملة من ناحية أخرى، وكان الميزان التجاري لفرنسا في غير صالحها، إذا أن وارداتها كانت أكثر من صادراتها، ورغم نمو بحريتها فإن وسائل النقل الداخلي فيها كانت تتميز بالتخلف، نظراً لقلة القنوات الصالحة للملاحة، وقلة طرق المواصلات، رغم إستخدام السخرة في إنشائها، وكانت الجمارك الداخلية ودفع

الرسوم فيها تزيد من الإنفصال بين المقاطعات، ولم تصرح الحكومة بنقل الحبوب بين مقاطعة وأخرى، وظل أغلب الفلاحين يزرع الكروم(٧).

وكان للحالة الاجتماعية في فرنسا دور كبير في التعجيل بالثورة، فرجال الدين يمثلون أولي الطبقات الاجتماعية الموجودة، وبدأ عهد جديد من الإضطراب الديني في فرنسا في نوفمبر ١٧٨٩م، عندما صودرت أراضي الكنيسة لتسديد الديون، واقترن بهذا القرار إعلان "الجمعية الوطنية" تخصيص اعتماد لدفع نفقات الشعائر العامة ومرتبات الأكليروس وغوث الفقراء، وأدى المشروع وما تضمنه من خفض لدخل رجال الدين إلى إيغار صدورهم، وزاد من سوء الحالة القرار الصادر في ديسمبر بإعلان بيع ما قيمته ٤٠٠ مليون جنيه من الممتلكات المنزوعة من الكنيسة، وزادت الحدة عندما أصدر ثلاثون من الأساقفة في الجمعية الوطنية النشرة الشهيرة التي تضمنت مبادئ الدستور المدني لرجال الدين، وأعلن اليعقوبيون في الأقاليم عن تأييدهم للدستور المدني لرجال الدين(٨).

واحتفظت الكنيسة في فرنسا بثراوتها وامتيازاتها، ورجال الدين كانوا يمثلون أقلية صغيرة، وقدر عددهم في فرنسا بما يقرب من ١٣٠ ألف شخص، موزعين مناصفة بين إقامة الشعائر وبين الجماعات الدينية، ولنفوذ رجال الدين كان النبلاء يعينون أبنائهم في الأسقفيات والأبرشيات والكنائس، وشكا صغار رجال الدين وجمهور المسيحيين من عدم صرف إيرادات الكنيسة في أوجهها، وكان رجال الدين يكونون " جماعة ولا يكونون " طبقة "، وجاءت الثورة الفرنسية لتهز أركان الكنيسة أكثر وأكثر بدعوتها للحرية المطلقة، فهي لم تقم فقط ضد نظم الحكم القديمة، وإنما ضد كل ما يحد من الحرية أو يقيدها كالتعليم الدينية، وكانت هذه بمثابة دعوة إلى الفوضوية من وجهة نظر الكنيسة ثم زاد نابليون الطين بلة، بخلعه "البابا بيوس السادس" من منصبه ونفيه إلى فالنسيا حتى وفاته هناك عام ١٧٩٩م، ثم وجه نابليون ضربته التالية حين تجاهل وجود "البابا بيوس السابع" أثناء احتفالات تتويجه في كنيسة نوتارتام، حيث قام بوضع التاج لنفسه وللامبراطورة أوجيني.

وكان البنلاء يكون طبقة لها امتيازاتها واحتفظ بالتقاليد الخاصة بهم، وكان النبل وراثياً ، يحصلون عليه بالمولد، ولذلك كانوا يحاولون الأبقاء على دمائهم نقية، وقد

أخذ الملك في بيع المناصب للنبلاء الرداء بطريقة وراثية أو شخصية، وظل من بين سلطات السيد جزء من ممارسة القضاء والإشراف على الأمن في القري وبعض الإحتكارات مثل الصيد وبعض الضرائب والسخرة وخدمة الأرض، واحتفظ النبلاء بمزارع خاصة بهم، وكانت الإرستقراطية تتنافس مع السلطة الملكية، ومع الطبقة البروجوازية في نفس الوقت، وكانت تشعر بضغائن عميقة تجاه السلطة الأولي التي كانت قد أخضعتها، وبشعور بالإنفصال والترفع عن الثانية التي كان نموها يهددها، وكانت تمثل أقلية صغيرة للغاية وقدر عددها في فرنسا بنحو ١١٠ ألف نبيل(٩).

وقد أسفر الضغط الاجتماعي المتزايد عن سيل من الإتهام والقضايا، وأعمل العنف من جانب الفلاحين، فتفاقمت بذلك التوترات الاجتماعية في الريف، وكان النبلاء يعفون من ضريبة "التاي" "Taille" وهي الضريبة العقارية المفروضة على الأراضي والمسكن، ومن السخرة الملكية لبناء الطرق وصيانتها، وضريبة الرؤوس وضريبة الدخل، وبذلك تعدي سخط الفلاحين النبلاء إلى النظام نفسه، نظام العلاقة الإنتاجية الذي يسند مصالح هؤلاء النبلاء.

أما البرجوازية لم تكن جماعة ولا هيئة، ولكنها كانت تكون القطاع الأكثر ثروة والأكثر قدرة بما كان الفرنسيون يسمونه الطبقة الثالثة، وكان أولئك الذين يعتبرون أنفسهم على أنهم بورجوازيون بمعني الكلمة كانوا عدداً بسيطاً من رجال المال وعلى درجة من الثروة، وكانوا يسايرون ويحاربون أعضاء المجموعتين الآخرتين، على أساس كونهم من الأغنياء، وكان الموظفون يمثلون نسبة كبيرة من هذه الطبقة، وكانوا قد حصلوا على عقود شراء أو التزام وظائفهم، وكان بعض هؤلاء الموظفين قد حصل على ألقاب النبل، فإن البرجوازية كانت تحتك بطبقة نبلاء الرداء والإدارة، أما المجموعة الثانية من البرجوازية فكانت سلطتها أقل، رغم أن ثروتها كانت أكثر، وكانت تضم رجال المال المشرفين على الشئون الاقتصادية والموردين، ومر الكثير من بينهم إلى صفوف النبلاء، وهذه البرجوازية العليا كانت تضم بعض رجال الصناعة أو أعضاء الغرف التجارية، أما ما نسميه بالطبقة الوسطي أو صغار البرجوازية؛ فكان الأعيان يسمونه بالشعب، وبكل احتقار إذ أنها كانت تعمل بأيديها؛ مثل وكيل البريد والمقاول وبائع الكتب وصاحب بنك الرهونات وبعض الجراحين، إذا أن غالبيتهم من الفقراء.

أما الفلاحون فقد استمر نظام عبودية الأرض في المناطق الغربية من القارة، وكان يشتمل على إبقاء حقوق السادة، وفي فرنسا حرر لويس السادس عشر عبيد الأرض، فأصبح ثلث الأراضي تقريباً في أيدي الفلاحين، وأصبح صاحب الحيازة الحرة، يمارسها ويورثها ويتصرف فيها كما يرغب، ولكن بالنسبة للبورجوازيين وسكان المدن وكذلك البنلاء، ظل الفلاح في كل مكان هو الكائن الجاهل الخشن الذي كان مصيره وطبقا للتقاليد هو خدمة الطبقات الحاكمة وتمويل الخزانات الملكية وإطعام سكان المدن، وكان كل سكان القرية يتحملون سلطة السيد والتزاماته الشخصية، وكانت الحيازة تؤدي إيرادات حقيقية، مثل الضريبة الخاصة بالملكية والإيجار ونسبة من المحصول، وضريبة خاصة بالنقل من أرض إلى أرض أخري والخاصة بالبيع.

علاوة على ذلك كان رجال الدين يجمعون ضريبة العشور، والتي كانوا يعطونها في بعض الحالات لأحد المدنيين بطريق الإلتزام، وكانت هذه أكثر ثقلاً من حقوق السادة وأصناف الملك إلى ذلك الضرائب الخاصة به وبالدولة، وكان الريف يدفع تقريباً كل شئ، ولم يطلبوا من النبلاء إلا نسبة بسيطة من ضريبة الرؤوس وضريبة الواحد من العشرين، وكانوا يعفون البورجوازيين، واقتصر رجال الدين على تقديمهم الهبات بدون إلزام ومع ذلك لم يكن هناك شيئاً يثير الفلاح أكثر من ضريبة الملح والمعونات التي كان يجبر على تقديمها وبإجباره على تموين الأسواق، فشعر أنه يعاملونه معاملة الدواب(١٣).

أما بالنسبة للأوضاع السياسية؛ فقد كانت الملكية منذ عهد لويس عشر قد أصبحت مطلقة ومركزية وبيروقراطية، والحقيقة أن رد الفعل الإرستقراطي كان يميز القرن الثامن عشر، مثله في ذلك مثل نمو البرجوازية، ولم تفكر في استخدام السلاح، ولكنها استخدمت وسائل برجوازية؛ مثل منافسة البلاط الملكي والاتجاه إلى الرأي العام، لعرقلة سلطة الملك والحد منها، وكان نبلاء السيف الذين كانوا غالباً من أصل عادى رغم ادعاءاتهم، لم يبقوا في الصفوف الخفية، والتف حولهم الموظفون، أما السادة المتحالفين من الإساقفة، فإنهم سيطروا على المجالس الإقليمية، وتدريجياً تخلي خلفاء لويس الرابع عشر لهم عن الوظائف العليا في السلطة.

وأصبحت السلطة الملكية مهددة، بعد أن أصبحت ضعيفة، بأن تري رد فعل النبلاء يزداد جرأة ضدها، وكان من الممكن أن تؤيد البرجوازية طبقة النبلاء، وانتهى الأمر بنبلاء السيف، ونبلاء الرداء، والموظفين الذين كانوا يحافظون على تقاليدهم المهنية، ورجال القانون والفلاسفة الذين كانوا يستشهدون بالحق الطبيعي، ويصمون على التفكير العقلي، انتهى الأمر بهم جميعا إلى أن يحدوا بالقانون من سلطات الأمير، وأن يضمنوا حرية الفرد ضد التحكم، وكان كبار الملاك العقاريين والبورجوازيون والرأسماليون ينظرون بعطف إلى الحرية الاقتصادية.

وكان برلمان باريس قد وضع الضمانات الكافية لينعقد مجلس طبقات الأمة على النحو الذي يتفق مع مصلحة الطبقة الإقطاعية، فأضاف عن تسجيل المرسوم بدعوة مجلس طبقات الأمة هذه العبارة؛ طبقاً للنظام الذي اتبع في عام ١٦١٤م" ومعني ذلك أن يكون لكل طبقة من الطبقات الثلاث: البنلاء ، ورجال الدين والعامة، عدد متساوٍ من الممثلين، وتصدت كل طبقة على حدة، ويكون لكل منها حق نقض قرارات الطبقتين الإقطاعية والملكية، وابتدائها بين الطبقة الإقطاعية والطبقة البرجوازية فقد بادرت الطبقة البرجوازية، إلى قبول التحدي في باريس، ومنها سرت حملتها إلى الأقاليم في شتاء (١٧٨٨– ١٧٨٩)م.

وقد قامت حملة الطبقة البرجوازية على محورين؛ الأول: مهاجمة امتيازات الطبقتين الأوليين، والمطالبة بأن تحل الكفاءة محل النسب، والثاني: مهاجمة الأساس الذي ينعقد عليه مجلس طبقات الأمة والمطالبة بالتمثيل الضعفي (أي يكون عدد نوابها مساوياً لعدد نواب الطبقتين الأخريين معا) وفرض التصويت المشترك (أي اجتماع الطبقات الثلاث معاً) والأخذ بالتصويت الفردي لا حسب الطبقة، وقد أزعجت هذه المطالب الطبقة الإقطاعية وخصوصا أمراء البيت المالك، الذين قدموا مذكرة إلى الملك يوم ١٢ ديسمبر سنة ١٧٨٨م؛ أوضحوا فيها أن "الدولة في خطر" وأن هناك ثورة تستعد للقيام ضد نظام الحكم(١٥).

أما الأوضاع الفكرية؛ فقد شهد القرن الثامن عشر طائفة من الكتاب الذين زعزعوا دعائم النظام القديم، ونقصد بها دعائم الحكم المطلق أي عدم المساواة في أمور المجتمع، وعدم المساواة والتسامح في الشئون الدينية، ونظام الحماية في ميدان

الاقتصاد، وظهر في فرنسا قدر كبير من التفكير الحر والخطابة الحرة والعاطفة الحرة، وقام في فرنسا في النصف الأول من القرن الثامن عشر، "مونتسكيو" (١٦٨٩-١٧٥٥)م بوضع النظم الاجتماعية والسياسية والدينية تحت الفحص والتحليل الجوهري وبخاصة في كتابه "روح القوانين"، وقد جرد الملكية المطلقة بفرنسا من هيبتها السحرية.

مونتسيكو فيلسوف فرنسي اشتهر بكتابه "روح القوانين" باريس ١٧٤٨م، ونادى فيه بفكرة خضوع العالم الاجتماعي للقوانين، شأنه في ذلك شأن العالم الطبيعي، وفي هذا الكتاب أيضاً جمع تاريخ أنظمة الحكومات وحدد أنواعها ومبادئ كل منها وما تحويه من مزايا وعيوب، وضمنه نظريته الشهيرة في وجوب انفصال الحكومة التشريعية والتنفيذية والقضائية بعضها عن بعض لضمان الحرية والعدل، واشترك الملك في الإرستقراطية والعامة في حكم البلاد على مثال نظام الحكم الانجليزي الذي كان يعتبره أرقي نظم الحكم. وقد شغل نفسه بالتيارات الاجتماعية، ومع ذلك فإنه على الرغم من أن معالجته للتاريخ كانت واقعية، فقد فأنه من حيث النواحي الفيزيائية والاقتصادية والسياسية والدينية، خاصة وقد تجاهل الأخبار التاريخية وقد ركز همه على تأكيد التقاليد، فكانت نتيجة ذلك أنه قلل من شأن الدور الذي يلعبه العقل، ومن ثم راح " فولتير يسخر منه، وبظهور الاتجاه الجديد من الماضي وهو الاتجاه الذي برز في عهد الثورة الفرنسية، استبعد عمل مونتسكيو وطرح به جانباً.

وكان فولتير يؤمن بالله، ولكنه يرفض كل فكرة تقول بأن التاريخ ينطوي على مناشطة تعالى على الشاكلة التي يتضمنها مصطلح "العناية الخاصة"، ومن المحقق أنه لم ينظر إلى التاريخ من وجهة نظر مبادئ علم طبيعة المسيح وشخصيته، أن هي إلا صيغ خرافية للدين الطبيعي، وللاعتقاد التأليهي وللتقوي، وقد منح الله الناس "مبدأ العقل الشامل"[١٩]، وفلولتير (١٩٦٤-١٧٧٨)م من كبار فلاسفة العالم، عرف بصراحة رأيه وشجاعته في ابداء ارائه فقد دخل البلاط الفرنسي وكشف عن الحياة الماجنة بداخله، ولم يرض عن تلك الأوضاع وأخذ ينقد تصرفات الحكام.

قد قاسي فولتير كثيرا ازاء شجاعته لذا صب جام غضبه على الظلم والطغيان في الحكم، وسخر قلمه لتحرير الإنسان والإخاء ونادى بإلغاء الامتيازات والطبقات بين الناس، فأثارت كتاباته حماس الجماهير في فرنسا وفي خارجها، وأصبحت بلدته

"فرناي" عاصمة أوربا الأدبية وكان من أثر ذلك قيام الثورة وما تبعها من ثورات ضد الطغيان في سائر بلاد أوربا غرباً وشرقاً[٢٠]، وذلك لأن فولتير كان قد عرف انجلترا معرفة جيدة بعد إقامته فيها خلال منفاه الباكر، وقارنها بروما وبفرنسا ووجدها نموذج للحرية الدينية والسياسية، والعلم الإنجليزي أسمي من العلم الفرنسي، وامتدح الانجليز لأنهم مجدوا التعليم والثقافة أكثر من كل الشعوب الأخرى.

ساعد انتشار الفلسفة وتقدمها على هدم الأفكار الشعبية التي آمنت بها الشعوب زمناً طويلاً ، فقد نادت الفلسفة بضرورة اخضاع جميع الأفكار للعقل الخاص وحده، وبهذا اختفت الخرافات والأفكار الشعبية المتوارثة من عقول أفراد الشعب بعد اختفائها من عقول الفلاسفة، وتكونت في أوروبا جمعيات وظيفتها محاربة الخرافات والأفكار الشعبية في الكنائس والمدارس والحكومات.

وتألفت جماعة من أذكياء الكتاب هم "الموسوعيون" ومعظمهم ذوو أرواح ثائرة ممن تخرجوا في مدارس اليسوعيون الممتازة، ونهضت تحت قيادة "ديدروه" لوضع الخطط لعام جديد عام ١٧٦٦م، بوساطة مجموعة من المؤلفات، ويقول "ماليه": "أن مجد الموسوعيين ينحصر في كراهيتهم لكل جور وظلم وفي تشهيرهم بتجارة الرقيق، وعدم التسوية بين الناس في الضرئب وفساد العدالة، والدمار الذي تجره الحروب، وفيما كانوا يحملون به من التقدم الاجتماعي، وما كان يخالجهم من عطف على دولة الصناعة الناهضة التي شرعت تحول العلم تحويلاً.

قامت إلى جانب الموسوعيين جماعة "الاقتصاديين" أو "الفيزيوقراطيين" الذي كانوا يقومون بأبحاث جريئة في شئون إنتاج الطعام والبضائع وتوزيعها، وقد شهر مؤلف "قانون الطبيعة" بنظام الملكية الخاصة الأخلاقية، واقترح إنشاء تنظيم شيوعي للمجتمع، وكان هو البشير المؤذن بظهور تلك المدرسة الكبيرة المنوعة، مدرسة المفكرين الجامعيين أو الحشديين في القرن التاسع عشر، وهم الذين يجمعهم الناس تحت اسم الإشتراكيين. وكان كل من الموسوعيين ومختلف فرق الاقتصاديين من تلاميذهم قدراً من التفكير الشديد العميق، وثمة زعيم أقرب إلى قلوب الناس هو "جان جاك روسو" (١٧١٢ –١٧٧٨)م، وهو روح منبوذة، لما قام به من هجوم عاطفي على الأخلاق الشكلية واتخاذه العاطفي للطبيعة والحرية البشرية مثلاً أعلى، وفي معارضة

من روسو للمبدأ القائل بفساد الطبيعة البشرية، كما تعلمه النظرية المسيحية السائدة حول التاريخ، أخذ ينازع بأن الإنسان يولد حراً طيباً بطبعه، وأن التنظيم الاجتماعي قد وضع الأغلال في يديه، وأن قدرة الإنسان على حرية الاختيار وقدرته على حيوانات، فإن هو كان عليه أن يحتفظ بمكانته الحقة كإنسان، فلابد له من الاحتفاظ بتلك الحرية. وكان لروسو أثر كبير في قيام الثورة الفرنسية ولم يحاول تعديل نظام الحكم الإستبدادى في فرنسا فحسب، بل حدد واجبات الحكومات في كل مكان فقد بين في كتابه الشهيرل "العقد الاجتماعي" أن الإنسان خلق حراً ومساوياً لغيره في الحقوق، ولضمان هذه الحرية والمساواة نظم الأفراد أنفسهم، وأقاموا الحكومات لتعمل بإرادتهم لأنها تستمد السلطة منهم، فإذا أساءت إحداها استعمار هذه السلطة، أو اخلت بتلك الحقوق وجب عزلها، وإقامة حكومة أخرى مكانها، وكان لهذا الكتاب تأثير خطير في نفوس الفرنسيين حتى لقب بحق "انجيل الثورة" وذلك لما امتاز به من قوة العاطفة وسلامة العبارة[٢٥]، كما دعا في هذا الكتلب أيضاً إلى دين جديد من الوطنية، فبدلاً من المسيحية التي تعادى الروح الاجتماعية، ينبغي بث روح دينية مدنية تطبع في نفوس الأفراد الولاء للدولة وواجبات المواطنة، ورغم رغبته في السلام والتسامح بين الأمم، إلا أنه مهد لعصر القومية الذي بدء بالثورة الفرنسية[٢٦]. بهذه الفلسفات التي أثرت على الحالة العقلية للشعب الفرنسي مع استمرار استبداد الحكومة الفرنسية، سواء بالنسبة للامتيازات التي كانت للإشراف والنبلاء ورجال الدين، أو أكثر الضرائب التي كانت تفرض على كل كاهل العامة الفقيرة، أدى إلى ضرورة قيام الثورة الفرنسية.

سقوط الباستيل

مما سبق يتضح أن الأزمة الاقتصادية التي اشتدت في صيف ١٧٨٨م، كانت من أسباب الثورة، وبالنظر إلى خطورة الوضع المالي والاقتصادي حاول رؤساء الحكومة الفرنسية "ترجو ونكر وكالون وبربين" إصلاح الأوضاع ولكن دون جدوي، وكان أن اقتراح كالون طرح المشكلة على الأمة الفرنسية من خلال مجلس طبقات الأمة الذي يمثل جميع فئات الشعب، وكإجراء تنفيذي تمت الموافقة على تحويل مجلس الطبقات إلى جمعية وطنية في ١٧ يونيو ١٧٨٩م، لكي تضع دستوراً جديداً لفرنسا يصون حقوق المواطنين ويضمن حرياتهم، وذلك بالرغم من معارضة الملك، وبذلك

تحول المجلس من هدفه الرئيسي الذي دعي من أجله وهو معالجة الأزمة الاقتصادية والمالية، وصار جمعية تشريعية تهدف إلى وضع دستور جديد للبلاد. إزاء هذا الضوع الجديد شعر الملك والحكومة أن الوضع في العاصمة بدأ يأخذ شكلاً جديداً وخطيراً ، وأن رياح الثورة أخذت تنتشر من باريس في كل الإتجاهات، واتخذت الإجراءات اللازمة لحفظ الأمن، وانتشرت الشائعات عن رغبة الملك في حل الجمعية الوطنية، مما أدى إلى قيام الجماهير باحراق مراكز جمع الضرائب، واستولوا على محلات بيع الأسلحة، وسيطروا على مبني البلدية في باريس، واتخذوا مركز الإدارة المقاومة ضد الملكية(٢٧).

مجلس طبقات الأمة والجمعية الوطنية

في ٨ أغسطس ١٧٨٨م؛ في جو مملوء بالمخاوف والشكوك والآمال، دعا الملك مجلس طبقات الأمة للإنعقاد في العام التالي، وارجع نكر ساحر المال إلى منصبه القديم الذي يهيمن فيه على مالية فرنسا، ولم يصدر قط إصلاح جليل من ذلك المجلس الذي أهملت دعوته للاجتماع طويلاً ، والذي كان يجتمع فيه رجال الدين والإشراف وممثلوا الطبقة الثالثة "طبقة العامة" ويتداولون ويقترعون كل على حدة، ولم تضع الحكومة قبل إنعقاد ذلك المجلس خطة للإصلاح الدستوري. وفي ٥ مايو ١٧٨٩م افتتح المحل في قصر فرساي بحضور مندوبي الأشراف والكنيسة والعامة، وأعلن الملك أن الهدف من اجتماع المجلس هو معالجة الأزمة المالية فقط، ولم يشر إلى مسألة الدستور الذي كانت تطالب به الطبقات الثلاث ليجد من سلطات الملك ويوطد دعائم التمثيل القومي، فتوترت العلاقة بين الحكومة وأنصارها من ناحية وبين ممثلي الشعب من ناحية أخرى، كما حدث خلاف حول كيفية أخذ إلاصوات، وهل تعتبر كل طبقة صوتاً واحداً ، أم توخذ الأصوات بالأغلبية، حتى تضيع قيمة الأغلبية العددية التي أعطيت للعامة، وتمسك كل فريق برأيه، وهنا ظهرت الجمعية الوطنية.

الفصل الحادي عشر
فرنسا وظهور نابليون

✶ الجمعية الوطنية

لما احتدمت الأمة حول طريقة أخذ الأصوات، اقترح "سييس" أخذ نواب العامة في ١٦ يونيو ١٧٨٩م أن بوصفهم نواب الشعب في وضع دستور للبلاد، سواء اشترك معهم بقية المندوبين أم لا، فاتخذ الأشراف من تصرف نواب العامة ذريعة يقنعوا به الملك للإنضمام إلى صفهم، فأمر بإغلاق قاعة الإجتماعات بحجة أعدادها لجلسة قادمة، كان عدد رجال الدين ٣٠٨ والبنلاء ٨ والنواب ٦٢٢، وكانت الحكمة تشير باجتماع القوات بعيداً عن باريس، وكانوا يفضلون فرساي، الملك من أجل الصيد، والملكة وحاشيتها من أجل التسلية، وارتكب البلاط أخطاء أخرى باصراره على الإتيكت الذي كان يهيمن الطبقة الثالثة، ففرضوا كسوة خاصة لممثلي كل طبقة، وقدموا في ٢ مايو إلى الملك، كل طبقة وحدها ومروا في جماعات منفصلة بمناسبة موكب "روح القديس"، وكان ممثوا الطبقة الثالثة يرتدون كسلوي سوداء، وفق لهم الشعب معبراً عن ثقته بهم، أما النبلاء فكانت ملابسهم الزاهية بعد الموسيقي الملكية.

وفي أثناء الجلسات التي رأسها الملك، ادعي ممثلوا الطبقة الثالثة أن من حقهم الاحتفاظ بغطاء رؤوسهم مثل ذوي الميزات، وأشار "بايي" إلى أن الوفود التي كان يقودها إلى الملك لم يركع أمامه، وجاءت الجلسة التي أغلق فيها الملك قاعة الإجتماعات في وجه ممثلي الطبقة الثالثة دون أن يهتموا بإبلاغهم بذلك، فالتجأوا إلى ملعب التنس المجاور للقصر، وأقسموا أن يظلوا متحدين حتى يتم وضع دستور، وكان هذا يمثل ثورة نواب الطبقة الثالثة على رغبة الملك، وحين استند الملك إلى قواته العسكرية، أكد النواب حصانتهم النيابية وأعلن "ميرابو" كلمته المشهورة: " لن نترك أماكننا إلا بقوة الحراب".

كان ميرابو من أنشط العاملين على إذكاء ثورة الشعب، وبث روح الخروج والثورة في نواب الطبقات وزعماء الجماهير، بل كان أول من رفع لواء العصيان، وأشد من حرض على تأليف الجمعية الوطنية التي كان قيامها فاتحة النضال الحقيقي بين الشعب والملكية، ومن الصعب أن نستشف من الموقف الذي وقفه ميرابو عندئذ حقيقة

الدور الذي أثاره من وحي الجمعيات السرية في ثنايا المعركة التي أخذ يضطرم لظاها بين دعاة الثورة والهدم وبين النظم القديمة، ومنذ ذلك اليوم انضمت أغلبية رجال الدين و٤٧ من النبلاء إلى ممثلي الطبقة الثالثة، وبدأت بذلك الثورة البرجوازية، واختاروا لجنة الوضع الدستور، وتحول المجلس الوطني إلى مجلس تأسيس وتقدم "لافايت" بمشروع لإعلان حقوق الإنسان،مقتبساً من آراء روسو وآراء المفكرين الأمريكيين، وأهم ماجاء فيه: أن الناس سواء في الحقوق والواجبات، وأن القانون هو المعبر عن إرادة الشعب، وأن لكل فرد حق حرية الفكر وحرية الدين ما دام تمتعه بذلك لا يتعارض والصالح العام. وهنا اتخذ الملك مظهر القوة وحاول أن يفرق الطبقة الثالثة، ولكن الجنود رفضوا أن يطيعوا، وخضع الملك بشكل فجائي، وقبل المبدأ القائل بأن الطبقات الثلاث يجب أن تتنافس كلها وتعطي صوتها بصفتها جمعية وطنية واحدة، وفي نفس الوقت نقلت إلى فرساي بتحريض ظاهر من الملكة، فرق أجنبية تعمل في خدمة الجيش الفرنسي، ويمكن الاعتماد عليها في العمل ضد الشعب، وهنا أدرك البرجوازيون أن الخطر يهددهم؛ فعقدوا اجتماعهم في اليوم نفسه في ملعب التنس، وشرعوا فور اجتماعهم يحلفون يميناً وضع صيغته "مونييه" بأنهم سوف يستمرون في الإجتماع في أي مكان تختاره الظروف، ووقعوا على تعهد أو ميثاق عرف باسم "ميثاق ملعب التنس" وكان من بين الموقعين تسعة من القساوسة، وفي اليوم التالي اجتمعوا في كنيسة "سانت لوي" حيث انضم إليهم ١٤٤ من القساوسة و٤ من كبار رجال الدين واثنان من النبلاء.

استهوت لويس سياسة القوة والبطش بعد قدوم الجند الأجانب بقيادة "بروجلي" فكان رد ديمقراطية باريس على تهديد الرجعية هذه، هو الرد التاريخي الذي مازالت تختلف به فرنسا عيداً قومياً في ١٤ يوليو من كل عام؛ حيث تم الهجوم على حصن الباستيل في ذلك اليوم من عام ١٧٨٩م، وسقوطه كخاتمه للطغيان المستتر والسجن الظالم المستبد، وكبشير لبزوغ فجر الحرية(٣٨).

ما كاد سكان الأقاليم يسمعون بسقوط الباستيل حتى هاجموا قصور الأشراف التي كانت تمثل الباستيل في الأقاليم، ودمروا ما بها من سجلات تثبت حقوق الأشراف إزاء العامة حتى عمت الفوضي كل مكان، أيضاً سادت الفوضي الإدارة والجيش – وما هو أدهي وأخطر على مستقبل فرنسا في البحار– سادت الأسطول الذي كان قد أبلي

بلاءً حسناً أثناء حرب الإستقلال الأمريكية، وفي الرابع من أغسطس ١٧٩٧م وقف أحد الأشراف في الجمعية الوطنية، واقترح النزول عن امتيازات الأملاك، فنزل الأشراف عن امتيازاتهم، ونزلت الكنيسة عن زكاتها، ولكن الملك فزع من تمادى الشعب في ضغيانه، فدعا فرقة "الفلاندرز" الموالية له لتكون بمثابة حرس يدافع عن فرنسا، ورفض التصديق على قانون إجازته الجمعية الوطنية، وأشبع أنه يفكر في الفرار، وأن الحرس الملكي داس بأقدامه الشارة المثلثة الألوان، التي اختيرت كعلم جديد للأمة.

وفي تلك الأثناء اشتدت المجاعة بباريس، فحض المهيجون النساء على الإجتماع والمطالبة بالخبز ،وبرجوع الملك إلى باريس اعتقاداً منهم بأن ذلك سوف يكثر القوات بالمدينة، فسار عدد كبير من النساء إلى فرساي، وخلفهن المئات من الرجال المسلحين واقتحمن قاعات المجلس مطالبات بالخبز، ثم هاجموا القصر، ولكن الحرس حال دون وصولهم إلى هدفهن، ولكن في غفلة تمكنت الجموع من دخول القصر، وكان "لافايت" قد وصل إلى فرساي على رأس الحرس الأهلي، وطلب من الملك باسم البلدية العودة إلى باريس، وحال دون الجموع والملك، وقبل الملك العودة إلى باريس، وكان دخول الملك قصر "التويلري" "Tuileries"، أول خطوة في سبيل قدره الأخير.

كان المجلس قد طلب من "لويس السادس عشر" أن يقبل مرسومات شهر أغسطس حينما حضرت النساء، وطالب أحد الزعماء بضرورة تموين باريس، وبضرورة إبعاد فرقة الفلاندرز عنها، وقد اعتقد الملك أنهم سيطلبون منه الموافقة عمل المرسومات، واعتقد أنه بموافقته عليها سينهي الأزمة، ولكن لافيات وصل مع مندوبي الكوميون، وطلب هؤلاء المندوبون من الملك الحضور من فرنسا للإقامة في العاصمة، وكانت موافقة الملك على المرسومات تمثل ميزة بالنسبة للمجلس الوطني، وفي يوم ٦ أكتوبر دخل المتظاهرين إلى ساحة القصر، وحاول رجال الحرس الشخصي أن يمنعهوهم، فانتهى الأمر إلى وقوع اتشباك وقتل أحد العمال، ثم بعض أعداء من الحرس، وقد وصلت الجماهير إلى جناح الملكة، التي هربت إلى جناح الملك.

ثم جاء الحرس الوطني ليخلي القصر، وظهر لافيت بدوره، وخرج إلى الشرفة مع أفراد الأسرة الملكية، وهتفت الجماهير معلنة ضرورة العودة إلى باريس العاصمة، وقد تم ذلك بالفعل، وتم التحرك صوب باريس تحت حماية رجال الحرس الوطني،

وكان البعض يحملون الخبز على أسنة حراب بنادقهم، واشتملت المسيرة على عربات قمح مزدانة بأغصأن الأشجار، وكان رجال السوق والنساء يركبون على المدافع، واشتملت المسيرة على الحرس الوطني الشخصي، وعلى فرقة الفلاندرز وفرقة السويسريين وعلى عربة الملك وأسرته، وكان لافيت يسير على ظهر جواده.

انتقلت الجمعية الوطنية إلى باريس عقب مغادرة فرساي، واعتمدت على حماية الشعب من تدخل الحكومة في أعمالها، ولكنها أُصيبت بتدخل الشعب في تصرفاته، وكانت قد بدأت في وضع الدستور في فرساي في ٣ سبتمبر ١٧٩١م، وذلك تدخل الشعب في أعمالها أثر تأثيراً سيئاً في وضع الدستور، وأهم قرارات الجمعية في هذا الشأن ما يلي :-

١- حقوق الإنسان: تضمنت أن الناس ولدوا أحراراً متساويين في الحقوق والعمل على ضمان الحرية والأملاك الشخصية، وصيانة الحقوق وحماية الأرواح ومنع المظالم، وأن من حق الأمة مشاركة الحكومة في وضع القوانين، واعتبرت لائحة حقوق الإنسان مقدمة للدستور الذي اجتمعت من أجله الجمعية الوطنية.

٢- إلغاء كافة الامتيازات والحقوق والواجبات المترتبة عليها، ويتم توزيع الضرائب على أفراد الشعب بالتساوي ودون تمييز طبقي.

٣- إعادة تقسيم فرنسا من جديد إلى ٨٣قسماً ؛ على كل منها اسم معلم بارز من معالمها- كنهر أو جبل- وأصبح لكل قسم مجلس منتخب بالتصويت العام، للإشراف على شئون المنطقة الداخلية، وكانت مجالس الإدارات المحلية هذه مزودة بصلاحيات واسعة مثل: توزيع الضرائب وجبايتها والمحافظة على النظام.

٤- وضع السلطة التشريعية في يد مجلس نيابي واحد ينتخب لمدة سنتين، واشترط في عضو مجلس النواب دفع قدر معين من الضرائب، والأ يقل سن العضو عن خمسة وعشرين عاماً، وألا يعاد انتخاب العضو مرتين متتاليتين، ويحرم على العضو دخول الوزارة، ويخول الملك سلطة الـ (VETO)؛ أي حق الرفض أو إلغاء قرارات المجلس، إلا إذا اعيدت هذه القرارات على ثلاثة مجالس متتالية[٣٩]، وفي سبتمبر ١٧٩١م انتهت الجمعية الوطنية من وضع الدستور الجديد، والذي أبقي على النظام الملكي مع تحديد سلطات الملك واعتبر الدستور الأمة هي المصدر الأساسي للسلطة[٤٠].

✶ الجمعية التشريعية

انحلت الجمعية عقب اتمام وضع الدستور، وعقدت الجمعية التشريعية الجديدة أولي جلساتها في أكتوبر ١٧٩١م، وكان أمامها مهمات رئيسية ثلاث وهي:

١- ضرورة تنفيذ جميع مواد الدستور الجديد.

٢- صياغة المكاسب التي أنجزتها الثورة الفرنسية بمقتضي القوانين التي صدرت عن الجمعية الوطنية.

٣- حماية الدولة من المخاطر الخارجية خاصة من قبل الدول المجاورة؛ فمنذ عام ١٧٩٠م شعرت أوربا بالخوف والقلق من مبادئ الثورة الفرنسية، ومن سرعة انتشار هذه المبادئ في المناطق المتاخمة لفرنسا، مما أثار الأوساط المحافظة وخاصة في النمسا وبروسيا، وقد أدى ذلك بالفعل إلى حرب بين فرنسا من ناحية والنمسا وبروسيا من ناحية أخرى(٤١).

وإذا كان النزاع في الجمعية الوطنية قائماً على مسائل دستورية، فإن نزاع الجمعية التشريعية أصبح قائماً على الإستئثار بالسلطة، وانقسمت الجمعية من بدء الأمر إلى ثلاثة أحزاب هي :-

١- اليسار الذي كان يجمع أنصار اليعاقبة المتطرفين منهم والمعتدلين، وأشهرهم جماعة "الجيروند" "Gironde" نسبة إلى الإقليم الذي انتخبوا عنه وبلغ عددهم ١٣٦ عضواً ، وكانوا يعيبون على الدستور اعتداله معتمدين على قوة بلاغتهم اللفظية، ومن هنا كان تأثيرهم الكبير على النوادى والجمعيات الشعبية.

٢- حزب اليمين: يتألف من أنصار جماعة الفويان "Feuillants" وكانوا يؤيدون الدستور، وبلغ عددهم ٢٦٤ عضواً ، وكانوا أعداء للنظام القديم وأعداء للديمقراطية، وكانوا يؤيدون النظام الملكي المقيد.

٣- حزب الوسط: يشمل أفراد بلغ عددهم ٣٤٥ عضواً ، عرف عنهم الحذر والتردد، ولم يكن لهم رأي معروف ولا خطة ثابتة، وكانوا يؤيدون اليسار تارة واليمين تارة أخرى، ولم يكن لهم رأي واضح، وليس من بينهم رجال مشاهير(٤٢)، وقد انتخب "كوندرسيه" سكرتيراً للجمعية التشريعية، ثم نائباً للرئيس وأخيراً رئيساً ، ومن النتائج الطبيعية لفلسفة كوندرسيه التحريرية، العمل على إزالة الامتياز الخاص بديانة الدولة، ورفض خطط الغزو والفتح

واحترام استقلال الشعوب الأخرى، كما عمل علي إصلاح التعليم في فرنسا على أساس المساواة والديمقراطية في المعرفة[٤٣].

وخلال هذه الفترة المضطربة ظهرت شخصية "دانتون" الذي دفع فرنسا بقوة في طريق التطرف والإرهاب، والذى قاد التظاهرات في أغسطس ١٧٩٢م، والتي هاجمت القصر الملكي واعتقلت الملك وأسرته مطالبة بإقامة الجمهورية، وكان من رأي الجمعية التشريعية أن يتم إيقاف الملك عن ممارسة سلطاته، وأن تترك مسألة تقرير مصير النظام الملكي لمؤتمر وطني يتم انتخابه لهذا الغرض، وهكذا حلت الجمعية التشريعية وانتخب مكانها المؤتمر الوطني لإدارة أمور البلاد، وتقرير مصير النظام الملكي[٤٤]، كما حدث اضطراب ديني في فرنسا أدى إلى الإبتعاد عن المسيحية، وكان ذلك منذ عام ١٧٨٩م، وتم مصادرة أملاك الكنيسة لسداد الديون[٤٥].

وقويت شوكة اليعاقبة بسرعة، وشرع زعمائهم "روبسبير ودانتون ومارا" الذين كانوا يلوحون أن يتسلطوا على الشئون الفرنسية، وكان هؤلاء اليعاقبة نظير الراديكاليين الأمريكيين، وهم رجال ذوو أفكار تقدميه، وكانوا رجالاً فقراء ليس لديهم ما يخشون فقدانه، لذا كانت قوتهم، وكان حزب الإعتدال والتفاهم مع بقايا النظام القديم يقوده رجال من ذوي المكانة الوطيدة أمثال الجنرال لافايت وميرابو[٤٦]، والواقع أن ميرابو ودانتون وكامبل ديمولان ولافايت؛ من أعظم قادة الثورة الفرنسية، بل أن ديمولان أول من دفع الشعب إلى حمل السلاح والوثوب بالباستيل، بل أن خطة الثورة كلها قد وجدت مدونة في وثيقة، وجدت بين أوراق ميرابو على ما جاء في نشرة ظهرت في عام ١٧٩١م؛ عنوانها "خفايا المؤامرة" وناشر هذه الرسالة يقرر أن الوثيقة المذكورة وعنوانها ملخص أو مشروع ثورة الميودي ميرابو قد ضبطت في منزل "مدام لجاي" زوج ناشر كتب "ميراكو" وذلك في ٦ أكتوبر سنة ١٧٨٩م، وتفتح هذه الوثيقة بحملة مرة على الملكية الفرنسية.

أما عن هروب الملك فيعتبر إحدى الوقائع الأساسية بالنسبة لتاريخ أوربا وتاريخ الثورة، فقد تسببت محاولة هروب الملك في سرعة وقوع الصدام وقد تمكن الملك من الخروج من قصر التوبليري يوم ٢٠ يونيو ١٧٩١م، ونقلته عربة فخمة هو وأسرته صوب شالون، تمهيداً لوصوله إلى مونيدي، وتأخرت العربة لمدة خمس ساعات،

وكانت الجماهير متيقظة، وحينما وصل الملك إلى تلال فارين ليلاً لم يجد العربة والجياد الجديدة اللازمة لمواصلة السفر، وتوقف هناك فكانت الكارثة.

ولم يحاول الملك أن تختبئ، فأوقفه رئيس وجنود النقطة وتمت اعادته إلى قصر التوبليري في حراسة مشددة وسط الجماهير المهددة، ولم يكن أحد يشك في أن هروب الملك كان يعني غزو فرنسا، فتحصنت القلاع والمراكز العسكرية على طول الحدود، وأعلنت حالة الطوارئ وتم إرسال ١٦٩ كتيبة من الحرس الوطني صوب الحدود، خاصة وأنه منذ سقوط الباستيل وقد هاجرت أفواج كثيرة من أنصار الملك والأشراف غير الراغبين في الثورة، والحانقين عليها والذين أثاروا المجتمع الأوربي ضد الثورة في الخارج، ثم نقل الملك من قصر التوبليري إلى باريس، ومن تلك اللحظة قضي على الملكية بالهلاك، إذ ظهر الملك كالخصم العلني للدستور.

ولقد أثارت عملية إلقاء القبض على الملك المشاعر في كل أوروبا دفاعا عن الملكية، فاحتجت إسبانيا، واتجهت الأنظار إلى الإمبراطور الذي مع ملك بروسيا للتدخل انقاذ للملكية، وقد تم التحالف بين بروسيا والنمسا لقيام بهجوم ثنائي تقدم كل دولة ٥٠ ألف رجل، وقد حقق الفرنسيين انتصارات عسكرية بعد "معركة فالمي"، وتم تحرير الأراضي الفرنسية التي احتلتها القوات النمساوية البروسية، وفيما بعد احتلت فرنسا بلجيكا(٤٨).

✶ **المؤتمر الوطني "La Cnvention Nationale" (١٧٩٢ -١٧٩٥)م:**

انتخب المؤتمر بناء على قواعد وضعتها الجمعية التشريعية، أهمها إلغاء النصاب المالي، وانقاص سن العضوية إلى ٢١ عاماً، ولذا فإنه كان يمثل وحدة الأمة، وعقد المؤتمر الوطني في ٢٠ ديسمبر ١٧٩٢م، وجلس الجيروند على اليمين، وكانوا شديدي الرغبة في الجمهورية؛ مثل اليعاقبة، ولكنهم جعلوا برنامجهم قائماً على أساس مكافحة اليعاقبة، لأنهم أحسوا فيهم نزعة السيطرة على البلاد، أما اليعاقبة المتطرفين الذين عرفوا باسم "Montgnards" فقد جلسوا إلى اليسار، وجلس زعماؤهم بأعلى القاعة في أقصي اليسار "دانتون وروبسبير ومارا وديلما"، وعموماً فإن اليعاقبة كانوا أقل عدد من الجيروند، ولكن كانوا أكثر كفاءة وجرأة، تؤيدهم من الخارج مدينة باريس، وجلس في المؤتمر بين الفريقين جماعة عرفوا باسم "السهل" وكانوا يؤيدون رأي ألفريق

الاقوي. كان أول عمل للمؤتمر إلغاء الملكية في ٢١ سبتمبر ١٧٩٢م، وإعلان الجمهورية في ٢٥ سبتمبر، ما جاءت الأنباء بتقدم الجيوش الفرنسية بعد "فالمي"، حتى اكتسحت البلجيك وضمت " سافواي ونيس إلى فرنسا وبسطت حمايتها على جنيف(٤٩)، وفي أثناء ذلك كان الجيلوين "جماعة السهل" يطالبون بإعدام الملك دون أي محاكمة، وكان يقود هذا الطلب "سان جوست" وقد بررا ذلك بأن الملك المخلوع هو مصدر خطر على أي نظام جمهوري.

وكان كوندرسية أحد أعضاء المؤتمر، ورغم معارضته الشديدة للملك وحاشيته فقد تغلب عليه العامل الإنساني وصوت ضد إعدامه، وقد ترتب على ذلك أن اعتبر كوندرسيه متأمراً وصدر الأمر بالقبض عليه، وقد هرب كوندرسيه واختبأ في منزل لمدة تسعة أشهر بالقرب من "ميدان الكونكورد"، وكان منه يشاهد إعدام زملائه زعماء الحرية بالمقصلة في ذلك الميدان، وخلال هذه المدة واصل دفعاه عن الحرية والإنسانية، عن طريق تأليف كتابه الشهير "ملخص لتقدم العقل البشري"، ثم ترك المنزل ليهرب بعيداً إلا أنه قبض واقتيد للسجن لمحاكمته غلا أنه توفي في السجن(٥١).

وحاول اليعاقبة أن يكرهوا المؤتمر على إصدار قرار بإعدام الملك، بتوجيه تهمة الخيانة العظمي للبلاد له من غير محاكمة، ولكم الجيروند قاوموا حركة اليعاقبة هذه، واقعنوا المؤتمر على تقرير محاكمة الملك أملاً في إنقاذه، وعندما مثل الملك أمام المؤتمر، دافع عن نفسه كما دافع عنه محاميان، وكان المؤتمر أن يقتنع ببراءته، إلا أن روبسبير يذكر الأعضاء "أنهم ليسوا قضاة بل رجال سياسة"، وكان لخطابه وخطب زملائه من التأثير على المؤتمر ماله، حتى قرر المؤتمر إدانة الملك، ولما حاول الجيروند الدعوة إلى الإستفتاء الشعبي على مصير الملك، نجح اليعاقبة في حشد جموع غفيرة من غوغاء باريس داخل القاعة وخارجها؛ لإرهاب المعتدلين يوم أخذ الأصوات، وفاز اليعاقبة وقرر المؤتمر إعدام الملك في أول يناير ١٧٩٣م، ونفذ فيه حكم الإعدام صباح ٢١ يناير ١٧٩٣م، وسط حشد كبير من القوات ومساعدة ضخمة من الشعب، وكان آخر ما نطق به "أني برئ"، ولكن فليكن دمي فداء سلام وسعادة أبناء فرنسا"، وكان إعدام الملك ضربة قوية وجهت للنظم الملكية في صميم نفوذها التقليدي والديني، حيث تم القضاء على حكم الحق الإلهي(٥٢).

وقد أثار إعدام الملك موجه من الإشمئزاز على الثوار خاصة في بريطانيا، وردت فرنسا بأن أعلنت الحرب على بريطانيا في أول فبراير ١٧٩٣م، مما أدى إلى تكوين تحالف دولي ضد فرنسا، يضم بريطانيا وبروسيا والنمسا وعدد آخر من الدول الأوربية، وقد أدى إلى هزيمة فرنسا، والتخلي عن الأراضي التي احتلتها في السنة السالفة، وفي هذه الظروف ظهرت لجنة الانقاذ ولجنة النظام، شرعت اللجنة الأولي في العمل الفوري من أجل اتخاذ التدابير والإجراءات لانقاذ فرنسا، وفرنسا أصبحت مهددة بالغزو الخارجي في عصر الثورة، وقد حقق دانتون زعيم لجنة الإنقاذ العام الكثير في هذ المجال؛ ففي مجال الدفاع عن فرنسا وعن الثورة أصبحت الأمور في صالح فرنسا منذ خريف ١٧٩٣م، أما في النصف الأول من السنة التالية فقد تم إخراج القوات البروسية والنمساوية من الأراضي الفرنسية، وقبل نهاية ١٧٩٤م احتلت فرنسا من جديد الولايات الألمانية، التي قع على نهر الراين وبلجيكا وجزءا من هولندا أيضاً، وبذلك انهار التحالف الدولي الأول(٥٣).

تقدم النواب في ٢٥ يناير ١٧٩٣م بمشروع التجنيد ٣٠٠ ألف رجل، والوصول بعدد رجال القوات المسلحة إلى ٥٠٠ ألف رجل، واشتمل المشروع كذلك على ضرورة العودة في التنظيم إلى نظام الوحدات وعن طريق ادماج المتطوعين في وحدات التطوع، أما الفرسان والمدفعية فظلت تحصل على رجالها عن طريق التطوع، ولكن العمليات الحربية بدأت، فتأجل تجنيد الـ ٣٠٠ ألف رجل في ٢٣ فبراير، على أن يتم من بين العذاب ومن فقدوا زوجاتهم، وفيما بين ٢٠ – ٤٠ عاماً، ثم حدث حصار بحري بسبب عودة باولي، الذي قاد المقاومة في كورسيكا ضد جنوا وفرنسا واستدعي الانجليز، وبعد أن قوي الحصار، زاد من خطورة الحالة الاقتصادية، كما زاد ضعف الحكومة، نتيجة لإستقالة رولان، وإقالة وزير الحربية وتعيين وزير آخر بدلاً منه، كان معادياً لأبناء الطبقة الشعبية، ورغم أن الوفاق كان قد أنشأ لجنة للدفاع العام في أول يناير، كانت تحت سيطرة الجيروند إلا أنها لم تكن لها أية سلطة إلا على الوزراء، وفي فبراير قدم كوندرسيه تقريره عن مشروع الدستور ولكن أحداً لم يرحب به، وحين فكر الجيروند ضرورة الأسراع بإصداره.

ولما كان الكوميون قد اجتمع من أجل إنشاء جيش ثوري، وإلقاء القبض على المشبوهين على أن بعض رجال الأمن اقترحوا أمر خطف زعماء الجيروند وقتلهم، وفي ٣١ مايو فض مندوبو الأقسام الكوميون، ثم أعادوا إليه سلطة وانضموا إليه، ورغم أن رجال ضرب الجبل كانوا متفقين على ضرورة القضاء على الجيروند إلا أنهم خافوا من فض الوفاق ومن تجديد المذابح خاصة مذابح شهر سبتمبر، فشكلت سلطة مقاطعتهم لجنة انضمت إلى اللجنة الثورية التي قررت أنه تقوم بمحاصرة الوفاق وطالبت بحله، ولكن الوفاق عاد وقرر إلقاء القبض على ٢٩نائباً وقرر أمرا إنشاء جيش ثوري.

ونجح رجال حزب الجبل – فتخلصوا من اللجنة الثورية ووضعوا في مكانها لجنة الأمن العام لمقاطعة باريس في ٨ يونيه وظل الوفاق موجوجاً وأخذوا يحكمون باسمه وحددوا إقامة الجيروند، وكانت النتيجة سقوط الجيروند(٥٤)، لقد كانت لجنة الإنقاذ العام الأحوال أجهزة الحكم في فرنسا، وظل دانتون يهيمن علي هذه اللجنة حتى ١٠ يوليو ١٧٩٣م، ثم انتقلت الزعامة إلى روبسبير، وصار هذا الرجل حاكم فرنسا الحقيقي حتى صيف ١٧٩٤م، وقد ساد لجنة الإنقاذ العام جو من الإرهاب ، وكان روبسبير شديد الإيمان بالثورة، وعمل على ضرب أعداء الثورة في الداخل، وقد ذهب ضحية هذا الإرهاب دانتون نفسه، فقد أحس روبسبير أنه مهدد طالماً ظل دانتون وأعوانه على قيد الحياة، وسرعان ما اعتقل دانتون، وقدم إلى المحاكمة وصدر الحكم بإعدامه في ٥ أبريل، وفي ٢٨ يوليو تم إعدام روبسيبير نفسه، وبسقوطه انتهى عهد الإرهاب، وانتهت لجنة الانقاذ العام معه، ومع ذلك ظلت فرنسا ثورية وجمهورية؛ ففي ١٧٩٥م أصدر المؤتمر الوطني دستوراً عُرِفَ بدستور عام ١٧٩٥م(٥٥).

وقامت محكمة الثورة في باريس والأقاليم بالنظر في أمر من يشتبه في سلوكهم ضد مصلحة البلاد بالمئات من الرجال والنساء إلى المقصلة تهمة الخيانة العظمي، وأصبح الشعار السائد "أرسل أعداءك إلى المقصلة قبل أن يرسلوك إليها"، وسقط على حد كثير من زعماء الجيروند، وكذلك سقطت الملكة وشارلوت كورداي التي قتلت مارا زعيم نادى اليعاقبة أملاً في القضاء على حكم الإرهاب، وعلى هذا النحو تم إبعاد الجيروند عن السلطة ووصل الشعب إلى الحكم مع الجبل، وفي تلك الأثناء وقع الإنقسام في صفوف اليعاقبة وانقسموا على أنفسهم شيعاً وأحزاباً :

١- "حزب دانتون" – قبل إعدامه- وكان يري العودة إلى سياسة الإعتدال.
٢- "حزب هيبرت" "Hebert" و"شومت" والذي كان يدعو كل منهما إلى التطرف.
٣- "حزب روبسبير" لم يرتض مبادئ دانتون المعتدلة، ولم يسلم بآراره "هيبر" المتطرفة ونجح بمساعدة دانتون في القضاء على جماهير هيبر، ثم انفرد بجماعة دانتون وقضي عليهم، وأعدم دانتون نفسه، ولكن روبسبير سلك في تنفيذ سياسته سلوك الإرهاب وسفك الدماء بلا حساب، إلى أن دبرت ضده مؤامرة واتهموه بالخيانة العظمي واستطاع المؤتمر أن يقدمه إلى المقصلة.

★ **دستور ١٧٩٥** :عمل المؤتمر على وضع دستور جديد للجمهورية، تصان فيه حقوق الأفراد، فوضع النظام المعروف بدستور العام الثالث الذي أوجد مبدأ فصل السلطات وتنظيمها، وبموجبه أصبحت الحكومة تتكون من الهيئات الآتية:-

أولاً : الهيئة التشريعية وتتكون من:

١- مجلس الشيوخ؛ ويتكون من ٢٥٠ عضواً، وتزيد سن العضوية عن أربعينعاماً، ومهمة المجلس مراجعة قرارات المجلس الآخر، ووقف ما لا يتفق مع المصلحة العامة.

٢- مجلس الخمسمائة؛ ويتكون من ٥٠٠ عضواً، وتزيد سن العضوية ثلاثين عاماً، يسقط ثالث العدد كل عام، ومهمته وضع مشروعات القوانين، وتبني القرارات التي يدرسها الشيوخ، ويستطيعون تحويلها إلى قوانين، وكان المجلسان ينتخبان لمدة ثلاث سنوات، وأصبح حق الانتخاب لدافعي الضرائب وحدهم، وبذلك ألغي الإقتراع العام.

ثانياً: الهيئة التنفيذية:

عهد بها إلى خمسة أعضاء ينتخبهم المجلسان، ويرأس كل منهم الإدارة بالتناوب لمدة ثلاثة شهور، ويسقط عضو منهم سنوياً بالاقتراع، ومهمتهم تولي الإدارة والسياسة والشئون الحربية، والسهر على أمن الجمهورية الداخلي والخارجي، ولمجلس الإدارة حق الإستعانة بالقوات في الإدارت والمحاكم بواسطة مفوضين له حق تعيينهم، واشترط أن يكون ثلثا أعضاء المجلسين المكونين للهيئة التشريعية من أعضاء المؤتمر، ولكن الشعب احتج على هذا الشرط ولجأ إلى القوة، فقابل المؤتمر القوة بمثلها، وكانت له الغلبة بفضل جندي شاب هو نابليون بونابرت(٥٦).

وقد اشترك نابليون في لجنة الانقاذ العام، وأخذ نجمه في الصعود بسبب انتصاراته العسكرية ونتيجة لفشل الآخرين، فهو الذي استطاع أن يلحق الهزيمة بالقوات النمساوية في إيطاليا في ١٤ يناير ١٧٩٧م، وقد أدت انتصارات فرنسا إلى تبني سياسة توسعية بررتها بالرغبة في نشر مبادئ الثورة الفرنسية في أوروبا، وظهرت نظرية امتداد أراضي فرنسا نحو حدود طيبيعية وآمنة، وقد ورث نابليون هذه السياسة التوسعية من حكومة الإدارة، دخلت فرنسا في صراع متواصل مع أوربا خاصة مع بريطانيا التي رفضت قبول فكرة الحدود الطبيعية، وفي التاسع من نوفمبر ١٧٩٩م تقرر تسليم السلطة في البلاد لثلاثة قناصل بدلاً من حكومة الإدارة وأهمهم نابليون، ولإضفاء الشرعية على الحكم الجديد صدر دستور ١٧٩٩م الذيجاء في أكثر مواده صورة لآراء ونظريات نابليون في الحكم ولرغبته في جمع كل السلطات تحت سيطرته، استقبل نابليون في الحكم بحماسة بالغة عند وصوله إلى فرنسا في أكتوبر ١٧٩٩م، ولم تهتم الجماهير بفشل مغامراته في مصر ١٧٨٩م، فقد حدث هذا الفشل في منطقة بعيدة وظروف غامضة[٥٧].

وقد أدت أنباء انتصار نلسن البحري على الأسطول الفرنسي في أبي قير إلى قيام التحالف الدولي الثاني ١٧٩٨م، فمن نابلي حيث قابلت ملكتها وصديقتها أمامها ملتون– قرينة سفير بريطانيا في بلاط نابلي، ومحظية نلسن فيما بعد – ظهور البطل المنصور بالفرح والسرور، سرت إرادة قوية لخوض غمار الحرب من قيينا إلى بطرسبرج والقسطنطينية، تلك السياسة التي وضعتها سياسة "بت" الأصفر الرشيدة والإعانات المالية البريطانية في مشروع كبير لرد فرنسا إلى مأوراء حدودها القديمة، وقلب حكومتها اليعقوبية، واستطاع الحلفاء إضاعة كل ماكان نابليون قد احرزه في إيطاليا ، وجميع ما كانت حكومة الإدارة اضافته إلى مكاسبها[٥٨]، وقد اختار "جورج الثالث" في ١٩ ديسمبر ١٧٨٣م "وليم بت" لرئاسة الوزارة البريطانية، واستمر يتقلد رئاسة الوزارة إلى يوم وفاته في ٢٣ يناير ١٨٠٦م، إلا في فترة قصيرة من ١٤ مارس ١٨٠١ إلى مايو ١٨٠٤م.

أعاد نابليون تنظيم البلاد إدارياً بموجب قانون أصدره في فبراير ١٨٠٠م، وحاول إيجاد اتفاق بين الدولة والكنيسة لإيمانه بترابط المؤسسات الاجتماعية، واعترفت

الحكومة الفرنسية في يوليو ١٨٠١م بالكنيسة الكاثوليكية، وبالكاثوليكية كديانة لأغلبية الفرنسيين، ومن أكبر أنجازات نابليون الحضارية القانون المدني الفرنسي الذي أقر في مارس ١٨٠٤م، وضمن جميع الحريات التي أعطتها الثورة للفرنسيين، مثل حرية العمل وحرية التفكير وحرية التعبير، والمساواة والعدالة أمام القانون وحق التملك، وفي أبريل ١٨٠٤م تقرر تسمية نابيلون إمبراطور على فرنسا وتوجه البابا بيوس الثاني عشر في كنيسة نوتردام، ودخل في كثير من الحروب ضد الدول الأوربية[٥٩]، وإن كان قد استعصي عليه بعضها أيضاً مثل انجلترا وروسيا على الرغم من أنها كانت في حروب مع تركيا[٦٠]، وكانت هذه الحروب كثيرة ومتكررة.

وقبل أن تضرب ضربة جدية في الحرب، حدث انقلاب دستوري عجيب في فرنسا، فإنه لاريب فيه، أن الشعب الفرنسي كان يريد حكم نابليون، الذي جلب إليه منافع كبيرة، وكان يري ضرورة حمايته من أخطار الكائدين له من اليعقوبيين والملكين، تلك الأخطار التي ما برحت جسيمة ماثلة، أما بإلقاء القنابل عليه، أو باغتياله في هجمة مباغتة مسلحة، كذلك التي دبرها الملكيون سنة ١٨٠٠م واخفقت في إصابة هدفها، وقد حكيت إبان خريف وشتاء عام ١٨٠٣ وربيع التالي ، أطراف مؤامرة أخرى أوسع نطاقاً وأقل احكاماً.

- **عصر الإمبراطورية (١٨٠٤ –١٨١٥)م**

كان صلح إميان ١٨٠٢م، بمثابة هدنة بين انجلترا وفرنسا، فبينما كانت انجلترا تسيطر على البحار، كانت فرنسا تسيطر على أوربا ولذلك عملت فرنسا على مقاومة التجارة الانجليزية، وتضيق عليها السبل، وأخذت تزيد قواتها البحرية، وعملت انجلترا على تأليف تحالف دولي ضد فرنسا، وبدأت الحرب بينهما في ١٦ مايو١٨٠٣م، وفكر نابليون في غزو انجلترا نفسها، وأعد لذلك العدة بمعونة صديقته إسبانيا، ولكن الأسطول الانجليزي بقيادة نلسن ١٨٠٥م، ولتصر عليها انتصاراً حاسماً ، وبذلك أزال الخطر الذي كان يهدد انجلترا منذ أمد بعيد.

- **التحالف الدولي الثالث "Third Coaltion" ١٨٠٥م**

نجحت انجلترا في تأليف هذا التحالف من روسيا والنمسا والسويد، للقضاء على نابليون الذي زعزع توازن أوربا الدولي، وحول جمهورية إيطاليا إلى ملكية وراثية يحكمها

ابن زوجته "يوجين"، وألحق بيدمنت وجنوة وبارما بأملاك فرنسا، ودأب على التدخل في شئون سويسرا، ودفع بالولايات الألمانية إلى مصادقته ومحالفته، وكانت سياسته ترمي إلى إضعاف النمسا وبروسيا، عن طريق تشجعيه لإمارات ألمانيا الصغري، وجعل أمرائها ملوكا تحت حمايته، لذلك نجده في عام ١٨٠٦م يكون اتحاد الراين الذي اشتركت فيه الإمارات الألمانية المهمة عدا النمسا وبروسيا، حتى اضطر الإمبراطور فرنسيس الثاني في ١٨٠٦م، عندما رأي ما وصلت إليه حال ألمانيا إلى التنازل عن لقبه التاريخي "امبراطور الدولة الرومانية المقدسة" وسمي نفسه "امبراطور النمسا" وزال اسم الدولة الرومانية المقدسة، وسمي نفسه "امبراطور النمسا" وزال اسم الدولة الرومانية المقدسة من الوجود(٦٢).

ومما يؤثر لبت، المعماري الأكبر لهذا التحالف، أنه كان يفكر في دعوة مؤتمر، بعد وضع الحرب أوزارها وكسب النصر، لصوغ نظام تعاهدي لدول أوربا يصون السلم في ربوعها، وكان لنابليون أيضاً مشروع لإعادة تنظيم أوربا كمجموعة متضامنة من الأمم الستنيرة، ولكنها مجموعة خاضعة لكلمة فرنسا.

وكانت خطة نابليون الحربية تقضي باستهلال الحرب بغزوانجلترا وفتحها، وأمل أن يجد في هذه الجزيرة البالغة الغموض، شعباً يتشوق إلى أن يخلع عن عنقه نير جورج الثالث الطاغية، حينما يرى جيش تحرير فرنسا في وسطه، كما فعل قبل ذلك بأقل من ثلاثين عاماً أهل المستعمرات الأمريكية بمعونة فرنسا أيضاً، فقد ذكر نابليون في "سنت هيلانة" بأن دهماء لندرة كانوا سيلاقونه بالترحيب، وأنه كان يأمل أن يقيم بين مظاهر التهليل والإبتهاج العامين جمهورية في انجلترا وأخرى في أيرلندا، فأظهر بهذا القول أنه لم يكن يدري شيئا عن التماسك الاجتماعي للشعب الإنجليزي، وتراص صفوفه، ولا عن قوة إنجلترا الصناعية الحديثة النشاة، فأنه لو أتيح له يومئذ أن يشاهد استعدادات الحكومة البريطانية الناشطة، أو استجابة الشعب الحماسية، لعرف أن انجلترا لن تصبر أبداً أن تكون جزيرة فرنسية كجزيرة "أوليرون" أو جزيرة "قرشقة"، وأن مخاطر عبور القنال الانجليزي عن شدتها وخطورتها، لتتضاءل أمام المهالك التي تنتظر غازياً في سهول إنجلترا الواطئة.

وانتظر جيش فرنسي مؤلف من مائتي ألف وعشرة آلاف مقاتل، مجتمعين في معسكرات هائلة ممتدة على طول سواحل بحر الشمال، أنتظروا زهاء عامين كاملين أمر الإقلاع، بيد أن هذا الأمر لم يجئ، فلقد كان نلسن يراقب أسطول طولون، وكورنوالس يحاصر برست، وكانت كل شرذمة فرنسية أو إسبانية موضوعة تحت رقابة دقيقة من عدو شديد الوثوق بقوته، لتفوقه في حسن التدريب، وكثرة العدد انحطاط روح خصمه المعنوية، فإن نابليون عجز من أن يحشد في القنال، ولو لمدة اثنتي عشرة ساعة فقط أسطولاً لا يبلغ من القوة، بحيث يكفي لحماية نقل وأنزال حتي شطر صغير من كتائبه، غير أن الإمبراطور لم يقنط من نجاح مغامرته، إلا حينما وصل إلى أذنه النبأ بأن "فيلنيف" والذي كان تحت أمرته الأسطول الفرنسي الإسباني قد نكص راجعاً إلى مرفأ قادز، وفي ٢١ أكتوبر ١٨٠٥م، بعد أن زال كل خطر من الغزو، وبينما كان نابليون بعيداً جداً في قلب بارفايا، أحرز نلسن ذلك النصر المبيد القاصم على فيلنيف؛ ذلك النصر الذي أقام سادة بريطانيا على متن البحار فوق كل تحد حتى نهاية الحروب النابليونية، فبسبع وعشرين سفينة من سفن القنال مقسمة إلى صفين، هاجم نلسن أسطولي فرنسا وإسبانيا؛ اللذين تمكن من إغوائهما بالخروج من مرفأ قادز، وحطمهما تحطيماً .

ومع ذلك فإن انتصار الطرف الآخر، برغم وضعه المستعمرات الفرنسية والإسبانية تحت رحمة الأسطول البريطاني، لم يدخل في قلب الانجليز السرور والفرح، فإن نلسن بطلها كان قد سقط صريعاً في المعركة، وكان جيش نمساوي قوي بقيادة "ماك"؛ وهو قائد مجرب كان يراقب منه أمور جلائل، كان هذا الجيش قد سلم قبل انتصار الطرف الآخر بيوم واحد (٢٠ أكتوبر سنة ١٨٠٥م) في أولم إلى الجيش الفرنسي الذي طوقه[٦٢]، كما أحرز انتصاراً على الجيوش النمساوية والروسية في موقعة "أوسترلز في ٣ ديسمبر ١٨٠٥م، حتى اضطرت النمسا إلى طلب توقيع الصلح في "برسبرج" في ٢٦ ديسمبر ١٨٠٥م، وبه تنازلت لفرنسا عن البندقية ودلماشيا واستريا والتيرول؛ وبذلك أصبحت لفرنسا السيادة التامة في إيطاليا وجنوب ألمانيا.

وفي أكتوبر ١٨٠٦م انتصر نابليون على القوات البروسية انتصاراً ساحقاً في "معركة ييبنا" ودخل برلين، فلجأ فردريك وليم الثالث إلى قيصر الروسيا، ووضع نفسه

تحت حمايته، فعمل نابليون على تأدبب القيصر اسكندر الأول لحمايته لفردريك[٦٦]، وعندما علم نابيلون باحتشاد الروس عند النهر، غادر برلين إلى بولندا في نوفمبر ١٨٠٦م التي استقبل فيها استقبالاً حافلاً ، فأنشا آلايا بولندياً من الفرسان البولنديين، واتخذ مقره في وارسو التي وصل إليها في ١٩ ديسمبر؛ حيث تعرف على ماري فالفسكا وأخذ يدير الإمبراطورية من وارسو[٦٧]، فأعلن نابليون الحرب على القوات الروسية حيث دحرها في "معركة فريدلاند" عام ١٨٠٧م[٦٨]، واضطر قائدهم إلى الفرار بلول جيشه صوب نهر النيمين والتخلي عن كونجزبرج فدخلها جيش الجنرال سولت في ١٧ يونيه، واحتل الفرنسيون جميع أراضي القطر حتى نهر نيمين[٦٩]، وهنا سنحت لنابليون بارقة عجيبة من الحظ الحسن، حيث عمل القيصر الروسي على الصلح مع نابليون، وتلاقي الإمبراطور أن على عوامة في وسط نهر النيمين قرب تلسيت في ٨ يوليو ١٨٠٧م، وعقدت معاهدة بين الطرفين بمقتضاها تم تنفيذ عقوبات صارمة على بروسيا حيث تخلت من أملاكها غرب نهر الألب.

وأنشأ نابليون وستفاليا ونصب عليها أخوه الأصغر "جيروم" ملكاً، كما تنازلت بروسيا عن أملاكها في بولندا إلى ملك سكسونيا حليف الفرنسيين، واعترف القيصر بالتغيرات التي أحدثها نابيلون في ألمانيا، وتعهد بالانضمام إليه في تنفيذ نظام الحصار القاري ضد انجلترا، وتعهد نابليون القيصر في نظير ذلك بمساعدته في تحقيق مطامع "القيصر" في فلندا ووادى الطونة، وتقسيم أملاك الدولة العثمانية، بعد "صلح تلسيت" أدرك نابليون أنه لابد من القضاء على ولايات البابا وأيبيريا، لأن انجلترا كانت تجد في هذه المناطق منفذاً لتجارتها، لذلك عمل من أجل الاستيلاء على تلك البلاد، ولكنه اصطدم في هذه البلاد بعاملين من أشد العوامل فاعلية؛ وهما الكنيسة والشعور القومي، وفي مايو ١٨٠٨م أعلن ضم أملاك البابا إلى فرنسا، فرد البابا على ذلك بحرمان نابليون من غفران الكنيسة، فقبض نابيلون على البابا وسجنه، فأثار بذلك ضده ثائرة الأمم الكاثوليكية، واصطدم في أيبيريا بقوة الشعور الوطني، وهي قوة لم يألفها في حروبه السابقة، ووقفت انجلترا تؤيد كلاً من البرتغال واسبانيا، وتمكن "ولز: المرجع السابق،لي" قائد الجيش الانجليزي من الانتصار على الجيش الفرنسي عن "فميرو" في أغسطس ١٨٠٨م، كما انتصر الإسبان على الفرنسيين عند "بليلن ١٨٠٨م، وأرغموهم

على اخلاء مدريد فرحل نابليون إلى إسبانيا، ونكل بأهلها وانتصر عليهم، رغم النجدات الإنجليزية التي وصلت إليهم، ورغم تغطية شئون البلاد فإن ذلك لم يرضِ الإسبان نتيجة لفقدهم الاستقلال.

وفي تلك الأثناء عملت النمسا على التحرش بفرنسا؛ فأعلنت الحرب عليها في أبريل ١٨٠٩م، ولكن الهزائم حلت بالنمسا، حتى فتحت أبواب ڤيينا أمام نابليون في مايو ١٨٠٩م، ولما خاب أمل النمسا في الدول التي كانت تعتمد عليها قبلت صلح "شينبرون" في أكتوبر ١٨٠٩م، وبه نزلت عن "سانبرج" إلى "اتحاد كان نابليون يواجه في ذلك الوقت" وهو عصابات الرهبان والزارع في أيبيريا، ورغم انتصارات القوات الفرنسية عن القوات الأيبيرية التي كانت تعززها القوات الانجليزية بقيادة القائد "ولز: المرجع السابق،لي" فإن أوربا كلها جاءت لنصرة متأثرة أيبيريا بالروح القومية، وروح الجهاد لتخليص البلاد من الحكم الأجنبى، فبدأت بذلك حرب الأمم بعد حرب الملوك، وكان النظم الاقتصادي الذي فرضه نابليون على أوروبا، من أقوي العوامل في إثارة الكراهية ضده، فقد عطلت المتاجر وأوصدت المصانع، وأصبحت أسعار الحاجيات فوق طاقة الفقراء. أما عن الحملة الفاشلة على روسيا فإن نابليون لم يسترح بعد حربه مع النمسا؛ فقد بدأت العلاقات تتدهور بينه وبين قيصر روسيا لأسباب عديدة أهمها؛ أن نابليون لم يفِ بوعوده إلى القيصر الروسي في تحقيقه مطامعه في السيطرة على الأستانة ومضيقي البسفور والدردنيل؛ قلب الدولة العثمانية وحلم روسيا الأزلي في الوصول إلى المياه الدافئة، من جانب آخر فإن الحصار القاري قد أضر بروسيا وهي بلد زراعي بحاجة إلى المنتجات الصناعية، إذا كانت تجارتها تعتمد على تصدير المواد الزراعية واستيراد المواد الصناعية، فتأثرت التجارة الروسية، وتدهورت مصالح التجار والزراع مما شكل ضغطاً على القيصر اضطره عام ١٨١١م إلى السماح بدخول البضائع الإنجليزية إلى بلاده.

اعتبر نابليون هذا العمل خروجاً على صلح تلست وعملاً عدائياً ، وقد زاد في ذلك العداء من جانب روسيا زواج نابليون من ابنة إمبراطور النمسا التي عارضت والدتها الروسية والوصية عليها فكرة الزواج، لقد كانت الإرستقراطية الروسية تأنف زواج إحدى أميرات "آل روماتوف" من رجل محسوب على الكاثوليك رغم أنه لم يكن متديناً،

لذلك تردد إلى طلب يد الأميرة مما اعتبر إهانة كبري بحق روسيا وعائلتها المالكة، ولاشك أن رغبة القيصر في أن يلعب دوراً رئيسياً في السياسة الأوربية، قد دفعه إلى التخلي عن تحالفه مع نابليون تحرضه وتدعمه في ذلك الطبقة الإرستقراطية الروسية الشديدة العداء لنابليون صاحب أفكار التحرير والثورة.

بدأ القيصر في أبريل ١٨١٢م بالتحرش بنابليون؛ بأن طلب منه التخلي عن تنظيماته التي أقامها في ألمانيا – اتحاد الراين – وأن يجلو بجيوشه عن بروسيا، فكان رد نابليون أن هيأ جيشاً مؤلفاً من ٧٠٠ ألف مقاتل مكوناً من مختلف القوميات الأوربية، وتقدم صوب روسيا التي كان جيشها مؤلفاً من ٢٥٠ ألف مقاتل فقط، ووقع أول صدام بين الجيشين في ١٨١٢م عند مدينة "سمولنسك" في منتصف الطريق بين الحدود والعاصمة الروسية موسكو، وقد انتصر الفرنسيون في هذه المعركة واحتلوا المدينة فانسحب الروس إلى الداخل ونابليون يتبعهم إلى أن دخل موسكو في ١٤ سبتمبر فوجدها خالية من سكانها.

في مساء اليوم نفسه اشعلت النيران في موسكو بأمر من حاكمها، فارتد نابليون خارج المدينة وانتظر شهر أملاً في أن يعرض عليه القيصر الصلح، لكن الأخير لم يفعل ذلك واضطر نابليون إلى العودة بجيشه إلى فرنسا في أكتوبر خشية قيام ثورة داخلية، وفي طريق العودة وقف الشتاء حليف روسيا الصامد في وجه نابليون؛ فمات عشرات الآلاف من جنوده برداً ، ومما زاد في مأساتهم هجمات الفلاحين القوقاز عليهم خلال انسحابهم بحيث أنه لم يصل إلى الحدود الروسية البروسية سوي ١٠٠ ألف جندي فقط، رغم ما بذله المارشال "تاي" "Nay" من جهود لانقاذ الجيش حتى لقب في ذلك الحين بناي "أشجع الشجعان".

وفي بروسيا ترك نابليون جيشه وعاد إلى فرنسا، في حين انقلبت روسيا من حالة الدفاع إلى حالة الهجوم؛ لتدخل الأراضي الروسية وتحتل "دوقية فرصوفيا" الموالية لفرنسا والتي أراد لها نابليون أن تكون حاجزاً بين روسيا وأوربا[٧١]، وفي أكتوبر ١٨٠٦م حققت فرنسا انتصارات كبيرة على قوات بروسيا في معركة "بيينا"، وفي معركة "فريدلاند" في فبراير ١٨٠٧م انتصر نابليون على قوات بروسيا وروسيا معاً، ثم اعقب ذلك معاهدة الصلح في ٨ يوليو ١٨٠٧م بين فرنسا وروسيا، وكانت أغلب موادها

تنص على تنفيذ عقوبات صارمة ضد بروسيا وبذلك انهار التحالف الدولي الرابع، وأخضع نابليون بروسيا والنمسا وأرغم روسيا على التحالف معه، وجعل من إيطاليا وسويسرا منطقتي نفوذ فرنسي، ولكن لكي يصبح سيد أوروبا بقي اخضاع بريطانيا، وبما أن من المنازعات والحروب السابقة قد اقنعت نابليون أن هزيمة بريطانيا عسكرياً وغزو الجزر البريطانية أمر أقرب من المحال، فقد اهتم حينئذ بالحصار القاري الذي فرض على بريطانيا منذ سنة ١٨٠٦م، وفي سنة ١٨٠٧م احتلت القوات الفرنسية البرتغال حليفة بريطانيا.

ثم فكر نابليون في ضم إسبانيا إلى الإمبراطورية الفرنسية، وقد وقف الإسبان منذ البداية ضد الاحتلال الفرنسي، واتخذت المقاومة الإسبانية شكل حرب العصابات المسلحة، وبمساعدة القوات الإنجليزية، وفي يوليو سنة "١٨٠٨م هزمت القوات الفرنسية واضطرت إلى الخروج من مدريد، وذلك في معركة "بايلن" "Baylen" وكان قد وضع أخيه يوسف بونابرت على عرش إسبانيا بينما خير زوج أخته بين عرشي البرتغال ونابولي فاختار نابولي في ١٨٠٨م، وفي هذا الوقت حاولت النمسا الإنتقام من فرنسا خاصة بعد أن تركها نابليون وسافر إلى إسبانيا لانقاذ الوضع الفرنسي هناك، فما أدى إلى عودة نابليون من إسبانيا وقاد حملة عسكرية من إيطاليا إلى النمسا، وانتصر عليها في "معركة أكمول" في ٢٢ أبريل سنة ١٨٠٩م، ومن ناحية أخرى أرسلت بريطانيا قوة لمساعدة البرتغال، أرهقت القوات الفرنسية في البرتغال وإسبانيا، ولم يأت عام ١٨١١م حتى كانت بريطانيا قد احتلت أغلب الأراضي الإسبانية ودخلت مدريد، وشرعت في تهديد الإمبراطورية الفرنسية من الجنوب، وقد أدى ذلك إلى ظهور تحالف جديد – التحالف الدولي الرابع – وهو مكون من بريطانيا وروسيا وبروسيا والسود.

✶ **التحالف الدولي الرابع "Fourth coalition" ١٨١٣م**

ما أن ذاعت أخبار ما حل بجيش نابليون في روسيا، حتى هب الشعب البروسي يطالب للأخذ بثأر "جيينا" "Jena" والانضمام إلى روسيا، ونقض الحصار القاري الذي عطل مصالحه وقيد متاجره، وإزاء رغبة الشعب هذه ارتبطت حكومة بروسيا مع روسيا بمعاهدة "كليش" "Kalich" في ٢٨ فبراير ١٨١٣م، للعمل في القضاء على سلطان نابليون في أوروبا، وكانت بروسيا منذ "معاهدة تلسيت" تعد عدتها

لانقاذ الوطن من التحكم الأجنبى فيه وإعادة الحرية إليه، فدرب "شارنهرست" "Ssharnhorst" القادرين على حمل السلاح، وفق أحدث الأنظمة والأساليب الحربية التي كانت سائدة آنذاك، حتى أصبح كل بروسي على أهبة تامة للانضمام إلى الجيش حينما تحين ساعة الخلاص، وكان "شتين" قد قام باصلاح البلاد اجتماعياً وإدارياً وعمل "همبولت" على بث مبادئ الوطنية، والتضحية الذاتية في سبيل تحرير البلاد، وإعلاء شأن الوطن عن طريق العلم والتعليم ونشطت نشاطاً عظيماً في مختلف حياتها.

وما أن أعلنت الحرب حتى هب الشعب البروسي يلبي نداء الوطن، وأسرع نابليون بتجهيز جيش يجمع زهرة شباب فرنسا، وانتصر على أعدائه في "لوتزن" في ١٤ مايو ١٨١٣م، و"بوتزن" في ٢١ مايو ١٨١٣م، ولكن انتصارات نابليون في هذه المرحلة، لم تعد لها قوة وفاعلية انتصارات "أوسترلتز" و"بينا"، فقد تغيرت أوربا ودبت فيها روح جديدة، كما تغيرت فرنسا بسبب ضحاياها المتوالية، وأسرع على يد النمسا، فاشترطت النمسا أن يكون تدخلها لإعادة السلام مقابل استرداد أملاكها التي استولي عليها نابليون فرفض نابليون مطلبها، فانضمت النمسا إلى أعدائه في ٢٧ يونيه ١٨١٣م، كما انضمت السويد إلى التحالف كذلك، وبذلك تفوق الحلفاء نفوذاً عديداً هائلاً، اضطر نابليون إزاءه أن يقابل كلا من هذه الجيوش على انفراد، وتمكن في بادئ الأمر من الانتصار على الجيوش النمساوية حول "درسدن" ولكن قواده اخفقوا في الميادن، وفي منتصف أكتوبر ١٨١٣م، أطبقت جيوش الحلفاء عليه في "ليبزج" "Leipzig" فاضطر إلى التراجع إلى ما وراء الراين بعد أن لحقته خسائر فادحة(٧٢).

✶ **استقالة نابيلون وسقوط الإمبراطورية الفرنسية**

لاشك أن الحرب الإسبانية كانت ذات نتائج مؤثرة على سياسة نابليون في أوروبا، وفي فرنسا ذاتها شعر المواطنون بالملل والتعب والسام من هذه الحروب المستمرة التي أثارها نابليون في أوروبا، ومن ناحية بدأت العلاقات الفرنسية الروسية تتدهور بسرعة، وبدأت روسيا تنتهج سياسة جديدة تتمحور حول مصالح روسيا االقومية العليا، وتوجد عدة أسباب سياسية أدت إلى هذا التحول في السياسة الخارجية الروسية، ومن بينها أن روسيا لم تحقق من تحالفها مع فرنسا أهدافها المتوقع تحقيقه،ا التي كان من أبرزها كسب النفوذ في إستانبول والمضايق، كما أن سياسة الحصار القاري ضد

بريطانيا قد أثرت على التجارة الروسية وبالتالي الاقتصاد القومي، إضافة إلى ذلك فقد كانت الإرستقراطية الروسية شديدة العداء لنابليون ولفرنسا الثورية، وهكذا وصلت الأمور إلى حد الحرب وتقدم نابليون نحو الشرق ودخل موسكو في ١٤ سبتمبر سنة ١٨١٢م، ثم سرعان ما أمر قواته بالانسحاب، ومن ناحية أخرى بدأت القوات الروسية في شن هجوم معاكس في يناير سنة ١٨١٣م، واحتلوا بعض المناطق الموالية لفرنسا.

ومن ٢٨ فبراير سنة ١٨١٣م عقدت بروسيا تحالفاً مع روسيا، وأعلنت الحرب على فرنسا في ١٦ مارس من نفس السنة، وقد انحازت النمسا إلى نفس الجانب ولكن تدريجياً، وفي البداية أحرز نابليون عدة انتصارات على أعدائه وذلك في مايو، إلا أنه فضل أن يعقد هدنة، وقد وافقت الدول المحاربة على ذلك، وتم عقد الهدنة في ٢٠ يوليو، استمرت هذه الهدنة حتى ١٠ أغسطس من نفس السنة، وفي الوقت عينه بدأت الجهود الرامية إلى تكوين تحالف عرف بالتحالف الدولي السادس؛ والذى تكون من بروسيا وروسيا وبريطانيا والنمسا، وكانت النتيجة تراجع نابليون في أكتوبر، وانتقاله إلى موقع الدفاع عن حدود فرنسا الطبيعية، وقد كان مركز نابليون في هذا الوقت مزعزعاً من أساسه، فقواته كانت تعاني من الإرهاق، في حين كانت الدول المتحالفة تملك رصيداً كبيراًمن الجنود ومخططاً يقوم على أساس أن فرنسا ستقاوم.

وقد عبرت قوات الحلفاء الحدود الفرنسية، وأخذت تتقدم نحو باريس ودخلتها في ٣١ مارس سنة ١٨١٤م، ولم يبق أمام نابليون إلا أن الإستقالة والتنازل عن العرش، ثم رحل إلى "جزيرة ألبا" "Elba" تاركاً لآخرين غيره مهمة وضع التاريخ خلال الأشهر العشرة القادمة، وبعد انتصار الحلفاء وجهت دعوة إلى الفرنسيين لاختيار نظام جديد للحكم، وفي ٢ أبريل سنة ١٨١٤م، أقر مجلس الشيوخ الفرنسي استقالة نابليون، وتكوين حكومة جديدة مؤقتة برئاسة تاليران(١٨٥٤-١٨٣٨)م، وبناءً على رغبة واقتراح تاليران، تم استدعاء لويس الثامن عشر لحكم فرنسا، وبذلك عادت أسرة "البوربون" إلى فرنسا بعد أن أبعدتها الثورة، وفي ٣٠ مايو سنة ١٨١٤م وقعت معاهدة باريس بين الحلفاء وفرنسا، وقد اتسمت هذه المعاهدة بالاعتدال من طرف الحلفاء، فلم تفرض على فرنسا أية غرامة حربية ولم يصر الحلفاء على احتلال أرضها.ويعود هذا الإعتدال إلى أن الحلفاء كانوا لايريدون اثارة الشعب الفرنسي واقناعخ بعودة إلى بوربون واستقرار

إلامور ، ذلك أن تطبيق معاهدة قاسية لن يسمح باستمرار عرش ال بوربون في فرنسا[٧٤]، وهكذا قدر لفرنسا أن يحكمها لويس الثامن عشر الذي منح الفرنسيين دستوراً ينظم أسلوب الحكم، تجلي فيه اصراره على الاعتماد علي حقه الإلهي، واعطاء الشعب من الحريات مايراه ملائماً فحسب، وهو بذلك قد رفض مبدأ سياسة الأمة، كما فض أن يعترف بشرعية النظام السابق، أما التسوية العامة للحدود فقد تأجلت ريثما ينعقد ڤيينا، ومن ناحية أخرى قرر نابليون العودة إلى فرنسا، ووصل إلى باريس في ٢٠ مارس سنة ١٨١٥م، وهرب لويس الثامن عشر إلى بلجيكا، وبدأ حكم المائة يوم[٧٥].

✶ **أهم الأسباب التي أدت إلى سقوط نابليون:**

١- كان نابليون يتخلص من أية شخصية تبرز في ميدان السياسة بفرنسا خوفاً من منافستها له. ومع الاعتماد على النفس بهذه الطريقة لم يمكنه من إدارة شئون الدولة بعد أن أصبحت إمبراطوريته تمتد من نهر "البو" في إيطاليا إلى البحر الشمالي، ومن جبال البرانس وأملاك البابا إلى الراين، وإذا كان نابليون يمتلك موهبة وكفاءة نادرة، فإن ذلك لايكفي لإدارة الأمور على الوجه الأكمل بنفسه.

٢- حمل نابليون الشعوب الخاضعة له أكثر مما تتحمل، فقد استنفذت حروبه الكثير من أموالها ورجالها، وعندما طالت الحرب دب التذمر في جيشه وانعدمت الحماسة، ومما ساعد على ذلك أن الجيش يضم العديد من الجنسيات الأوربية بعد إقامة امبراطوريته.

٣- كان الحصار القاري من العوامل المهمة في سقوط نابليون حيث نفر منه الأوربيون وعاني منه الفرنسيون، وغالى نابليون في استعمال القوة التطبيقية، إلى الحد الذي أدى إلى اصطدامه بحليفة قيصر روسيا فكانت الضربة القاضية لنابليون في حملته على روسيا.

٤- الانتقاضات القومية ضد نابليون، وتطرف نابليون في ماأومته لتلك الروح التي بشرت بمبادئها الثورة الفرنسية، وقد ظهر ذلك واضحاً في إسبانيا التي ثارت عليه حتى تحررت سنة ١٨١٣م، وبروسيا التي تحالفت مع الروس للقضاء عليه، لقد بشر نابليون الشعوب الأخرى بمبادئ الحرية والإخاء والمساواة، ثم طلب منها أن تخضع له ولم يكن من الممكن التوفيق بين الاثنين.

قائمة المصادر والمراجع

أولاً : الوثائق المنشورة:

مضابط البرلمان البريطاني(Hansard)

قانون الماجناكارتا (Magna Charta)

ثانياً: الرسائل العلمية:

- عبدالله إسماعيل البستانى:حرية الصحافة دراسة "مقارنة فى فرنسا، انجلترا، العراق"، رسالة ماجستير، جامعة فؤاد الأول، كلية الحقوق، ١٩٥٠.
- محمد سيد إسماعيل: الحياة النيابية في بريطانيا (١٨٣٢-١٩١٩)م، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة جنوب الوادي، كلية الآداب، ٢٠١٢.

ثالثاً:المراجع العربية:

- أ.ج . جرانت، هارولد تمبرلي: أوربا في القرنين التاسع عشر والعشرين (١٧٨٩-١٩٥٠)، ترجمة؛ بهاء فهمي وآخرون، ج١، القاهرة، ١٩٨٢.
- أحمد طاهر: أفريقيا "فصول من الماضي والحاضر"، دار المعارف، ١٩٧٥.
- أشرف صالح محمد سيد(د): أصول التاريخ الأوروبى الحديث، دار تاشرى للنشر، الكويت، ط ١، ٢٠٠٩.
- ألبان .ج . ويدجري:التاريخ وكيف يفسرونه من كنفوشيوس إلى توينبي، ترجمة؛ عبد العزيز توفيق جاويد، ج٢، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٦٦.
- بول ريفال:"سلسلة اعلام ومشاهير"؛ "هنري الثامن وزوجاته الست"، إشراف؛ روؤف سلامة موسي: دار ومطابع المستقبل بالفجالة والإسكندرية ومؤسسة المعارف للطباعة والنشر، بيروت (ب.ت).
- بول كولز: العثمانيون في أوربا، ترجمة ، عبد الرحمن عبد الله الشيخ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٣.
- جلال السيد، سامى مهران: البرلمان المصرى (تقاليد.رقابة.تشريع)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة،١٩٨٤.
- جلال يحيي (د): عصر النهضة والعالم الحديث، الهيئة المصرية العامة للكتاب فرع الإسكندرية، ١٩٧٩.
- ـــــــــــ: فجر التاريخ الحديث ، دار الكتب الجامعية ، ١٩٧٦

- ـــــــــــــــ: مصر الحديثة (١٥١٧-١٨٠٥)، منشأة المعارف بإلاسكندرية، (ب ت).
- ـــــــــــــــ: معالم التاريخ الحديث، منشأة المعارف بإلاسكندرية، ١٩٧٦
- جورج ليفيبر: عصر الثورة الفرنسية، تعريب؛ د.جلال يحيي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٩.
- جوندولين كارتر، جون هيرز: نظام الحكم والسياسة فى القرن العشرين، ترجمة؛ ماهر نسيم، دار الكرنك للنشر والطبع والتوزيع، القاهرة، ١٩٦٢.
- حافظ عفيفى باشا(د): الإنجليز في بلادهم، مطبعة دار الكتب، القاهرة، ١٩٣٥.
- خالد عزب: المسلمون واكتشاف الأمريكتين، دار الصحوة للنشر والتوزيع ، القاهرة ،١٩٩٣.
- دافد وطسن دانى: تاريخ أساس الشرائع الإنكليزية "سنة الإرتقاء فى نظام الحكومة الإنكليزية" (مصدر القوانين الأساسية للحكومات الدستورية)، ترجمة؛ نقولا فندى حداد المكتبة الشرقية، القاهرة، ١٩٠٦.
- زينب عصمت راشد (د) المختصر في تاريخ أوربا الحديث "من مطلع القرن السادس عشر إلى نهاية القرن الثامن عشر"، مكتبة سعيد رأفت، جامعة عين شمس، ١٩٨٤.
- ستيفن أوزمنت، فرانك ترنر: التاريخ من شتي جوانبه، ترجمة؛ د.أحمد حمدي محمود، ج١، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٣.
- سعيد عبد الفتاح عاشور (د) : أروبا العصور الوسطي "التاريخ السياسي"، ج١، مكتبة الأنجلو المصرية، ط٦، ١٩٧٥.
- ـــــــــــــــــــــــــــــ: أوربا العصور الوسطي "النهضات والحضارات، والنظم"، ج٢، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٧٨.
- سليمان محمد الطماوى(د): الديموقراطية والدستور الجديد،القاهرة،١٩٧١.
- سيدنى د.بابلي: الديموقراطية البرلمانية الإنجليزية، ترجمة؛ فاروق يوسف، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٧٠.
- صلاح أحمد هريدي (د): تاريخ أوربا الحديث والمعاصر، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية ، ٢٠٠١.

- ـــــــــــــــــــــــــ: دراسات في التاريخ الأمريكي، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية، ٢٠٠٠.
- عاطف وصفي (د): كوندرسيه، دار المعار ، ط٢، ١٩٨٧.
- عبد الحميد البطريق (د): التيارات السياسية المعاصرة (١٨١٥-١٩٦٠)، بيروت، ١٩٧٤.
- ـــــــــــــــــــــــــ، عبد العزيز نوار(د): التاريخ الأوربي الحديث من عصر النهضة إلى مؤتمر ڤيينا، بيروت، (ب.ت).
- عبد الحميد متولى(د):أضواء على النظامين البرلمانى والرئاسى، مطبعة مخيمر، الخرطوم، ١٩٦٧.
- عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم (د): التاريخ الأوربي الحديث والمعاصر، دار الكتاب الجامعي ، ط٣ ، ١٩٨٦.
- عبد العزيز سليمان نوار (د): تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية الحديث، مكتبة سعيد رأفت، جامعة عين شمس، (ب.ت).
- ـــــــــــــــــــــــــ، عبد المجيد نعنعي (د): التاريخ المعاصر "أوربا من الثورة الفرنسية إلى الحرب العالمية الثانية"، بيروت، ١٩٨٩.
- عبد العزيز محمد الشناوي (د): أوربا في مطلع العصور الحديثة، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٨٢.
- عبد العظيم رمضان (د): تاريخ أوربا والعالم في مصر الحديث، ج١، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٠.
- فرانكلين . ل. باومر: الفكر الأوربي الحديث"القرن الثامن عشر"، ترجمة؛ د.أحمد حمدي محمود، ج٢، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٨.
- القس دي وزا: التاريخ الأسود للكنيسة، ترجمة؛ ياسر حطيبة، الدار المصرية للنشر والتوزيع، قبرص، الدار المصرية للنشر والإعلام، القاهرة ، ط١ ،١٩٩٤.
- محمد عبد الرحيم مصطفي وآخرون: اصول العالم الحديث، دار القاهرة للطباعة ، ١٩٥٧.

- محمد عبد الله عنان: تاريخ الجمعيات السرية والحركات الهدامة، مؤسسة مختار للنشر والتوزيع (دار عالم المعرفة)، القاهرة، ١٩٩١.
- محمد فريد السيد حجاج: صفحات من تاريخ الصومال، دار المعارف ١٩٨٣.
- مركز تبادل القيم الثقافية بالتعاون مع منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة، بحوث عن "أثر العرب والإسلام في النهضة الأوربية"، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٧.
- ميلاد القرحي (د): تاريخ أوربا الحديث والمعاصر "من عصر النهضة إلى الحرب العالمية الثانية"، الجامعة المفتوحة، ليبيا ، ١٩٩٥.
- هـ. أ. ل. فشر: تاريخ أوربا في العصر الحديث (١٧٨٩-١٩٥٠)، ترجمة؛ أحمد نجيب هاشم، وديع الضبع، دار المعارف بمصر، ط٩، ١٩٩٣.
- هـ.ج.ولز:معالم تاريخ الإنسانية، ترجمة؛ عبد العزيز توفيق جاويد، المجلد الرابع، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٤.
- يسري الجوهري (د): الفكر الجغرافي والكشوف الجغرافية، منشأة المعارف بالإسكندرية، ط٣، ١٩٧٦.
- يسري الجوهري (د): شمال أفريقيا، منشأة المعارف بإلاسكندرية، ١٩٧٦.

المراجع الأجنبية

- F. Pollard: The History of England (A Study inPolitical Evolution), Biblio Bazaar, 2007.
- Cbban, Alfred, A History Of Modern France 1715-1799,Vol. 1 ,New york,1977.
- Creasy,Edward S.: History Of the Ottman Turks, Beirut, 1968.
- Dehrain, Hernri,Hernri : L 'Egypte Turque, Tome V.,Paris, 1931.
- John Cannon & Anne Hargreaves: The Kings & Queens of Britain, Oxford University Press, USA, 2001.
- John Cannon & Anne Hargreaves: The Kings & Queens of Britain, Oxford University Press, USA, 2001
- Kammerer: La MerRouge , Le Caire , 1935.
- Lucinda Maer and Oonagh Gay: The Bill of Rights 1689,House of Commons Library, 2009.

- Lucinda Maer: The Act Of Settlement And The Protestant Succession, House of Commons Library, 24 January, 2011.
- Mrs. Markham: A History of England from the First Invasion by the Romans to the End of the Reign of George the Third, Vol. II, John Murray, London.
- Nevil Johanson: Reshaping The British Constitution (Essays In Political Interpretation), New York, Palgrave Macmillan, 2004.
- Pennington, D.H: A General History Of Europe Seventeenth Century Europe ,London, 1970.
- T. F. Tout: The History of England (From the Accession of Henry III to the Death of Edward III 1216-1377), Longman, London, 1905.
- William Anthony Hay : The Whig Revival (1808-1830), Palgrave Macmillan, New York, 2005.